

ذاكرة الكتابة

169

الكتاب الأسود
للاستعمار البريطانى فى مصر

شحاته عيسى إبراهيم



www.gocp.gov.eg

السعر: خمسة جنيهات

تصميم الغلاف: فكري يونس

الكتـــاب الأســـود

للاستعمار البريطانى فى مصر

تأليف:
شحاتة عيسى إبراهيم

وزارة الثقافة



سلسلة
ذاكرة الكتابة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• الكتاب الأسود
للاستعمار البريطانى فى مصر
• شحاتة عيسى إبراهيم
• هذه الطبعة :
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2015 م
• تصميم الغلاف :
فكرى يونس
• رقم الإيداع: ٩٢٢٠/ ٢٠١٥
• الترقيم الدولى: 978-977-92-0261-7
• المراسلات :
باسم / رئيس التحرير
على العنوان التالى : 16 شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت : 27947891 (داخلى : 180)
• الطباعة والتنفيذ :
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : 23904096

ذاكرة الكتابة (169)
تعنى بنشر أبرز الأعمال الفكرية والأدبية والنقدية التى طبعت فى بدايات القرن العشرين

الكتاب الأسود
للاستعمار البريطانى فى مصر

تقديم

منذ النهضة الأوروبية والتوسعات الاستعمارية أصاب بلادنا العديد من الويلات والانتهاكات، ولعل الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ هى التى فتحت شهية بريطانيا لاحتلال مصر. فمنذ استقرار الحملة فى مصر وبريطانيا لا تخفى قلقها من ذلك وسعت بكل الطرق لاحتلال مصر. تبدى ذلك فى حملتها الأولى عام ١٨٠٧ والمعروفة بحملة فريزر، والتى فشلت عند رشيد. ولكن هذا الفشل لم يمنع بريطانيا من بذل المحاولات من أجل ذلك، وقد واتتها الفرصة عندما تدخل محمد على لقمع ثورة اليونان لحساب السلطان العثمانى، حينها قادت بريطانيا تحالف أوربى من أجل تحطيم الأسطول المصرى فى واقعة نفارين فضمنت بذلك أضعاف القوة العسكرية لمحمد على ووقف تطلعاته التوسعية فى أوروبا التى كانت تقوم استراتيجية أمنها ونفوذها على توازنات سياسية بين الدول الأوروبية تتفق على عدم السماح للسلطنة العثمانية بالتوسع فى أوروبا والإبقاء عليها كحائط صد ضد النفوذ الروسى الذى كان يسعى للتمدد إلى البحر المتوسط عبر حدود هذه السلطنة.

لكن الأمور لم تستقم لبريطانيا والأمن القومى الأوروبى، فقد عاد محمد على لتوسعاته فى الشام والجزيرة العربية والسودان، غير مراع للأطماع البريطانية والأوروبية فى هذه البلدان، وتفاقمت الأمور عندما زحف إبراهيم باشا بجيوشه من الشام إلى داخل السلطنة العثمانية، عندما أحست بريطانيا ودول أوروبا بخطر محمد على ومصر على نظرية الأمن الأوروبى القائمة على إبقاء السلطنة كحائط صد ضد التوسع الروسى، عندها أجبرت بريطانيا والدول الأوروبية على قمع تطلعات محمد على وأجبرته على توقيع عام ١٨٤٠ التى حددت ولايته على مصر بالتوريث، ولوبيا (ليبيا) والدارفور وكردفان وسنار إداريا لحساب السلطنة، وتقديم الغلال لبلاد الحرمين.

منذ هذه اللحظة صارت مصر جزء من نظرية الأمن الأوربية فتتحالف هذه الدول أحيانا ضد مصر وفى أحيان أخرى تنفصل أحد هذه الدول عن هذا التحالف لتعود له مرة أخرى على وقع الأحداث فى مصر.

حدث هذا عندما أراد محمد على استمالة بريطانيا لسياسته فوافق على قيامها بمد سكك حديد إسكندرية - القاهرة - السويس. مما دفع فرنسا إلى بعث مشروعها القديم حول قناة السويس والذى تحقق فى عهد إسماعيل باشا. خلال ذلك اشتعل من جديد الصراع بين

بريطانيا وفرنسا على مصر. ولكن بريطانيا كانت تتلقى دعما من معظم الدول الأوروبية لسياسة الأمن الأوروبي على حساب مصر.

استمرت السياسات الأوروبية تجاه مصر قائمة على أساس أنها جزء من سياستها الأمنية، ومن هنا كان تكبيل مصر بسياسات صندوق الدين والمراقبة الثنائية من بريطانيا وفرنسا على مالية مصر عام ١٨٧٨، ومن بعدها استغلت بريطانيا حركة العرابيين وقامت باحتلال مصر عام ١٨٨٢، ومنذ هذا التاريخ لم تملك مصر إرادتها كاملة فى تصريف شئونها الداخلية والخارجية حتى قامت ثورة ١٩١٩ التى حددت لأول مرة ماهية الدولة المصرية المستقلة فى دستور مدنى واضح، وطالبت بالاستقلال مما مكنتها من عقد اتفاقية الجلاء الأولى مع بريطانيا عام ١٩٣٦٦. إلا أن بريطانيا ماطلت فى الجلاء التام عن مصر مما دفع الحكومة الوفدية عام ١٩٥١ إلى إلغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد، وتجند الشباب فى حركة مقاومة ضد المعسكرات البريطانية فى عدة معارك كان أهمها معركة التل الكبير التى تعد تحولا نوعيا فى شكل المقاومة المصرية للاحتلال البريطانى.

فى عام ١٩٥٢ دخلت قضية الاحتلال البريطانى لمصر منعطف جديد قام على التفاوض حتى تحققت اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ ومنذ هذا الوقت تدخلت الولايات المتحدة فى الشئون المصرية من منطلق نظريتها عن أمنها الدولى مستغلة موقف مصر من القضية الفلسطينية وداعمة للتحركات الإسرائيلية ضدها، هكذا أصبحت نظرية الأمن الأمريكية هى الحاكمة للعلاقات المصرية الأمريكية، والمحددة لمسارها. ولكن مصر مازالت تسعى لتطبيق نظرية أمنها القومى التى تعتمد على قوتها الذاتية والمصالح المشتركة فى محيطها الأقليمى والدولى.

عبد العزيز جمال الدين

تعريف

كان كتاب (القاهرة تاريخها ونشأتها) للكاتب (شحاتة عيسى إبراهيم) والذى أصدرته دار الهلال فى العام ١٩٦٩، ثم أعادت الهيئة المصرية العامة للكتاب طباعته فى أكثر من مرة ضمن مشروع مكتبة الأسرة، هو الخيط الوحيد الذى يصل الأوساط الأدبية فى مصر باسم الكاتب (شحاتة عيسى إبراهيم) إلا أننا بعد بحث طويل تبين لنا أن الكاتب قد قدم للمكتة العربية بحوثًا أخرى لا تقل أهمية عن كتابه المعروف (القاهرة تاريخها ونشأتها) ومن بين ما قدمه كتاب (زعماء الوطنية فى مصر)، وكتابه الملفت والمهم (الكتاب الأسود للاستعمار البريطانى فى مصر)، والذى أصدرته الدار القومية فى العام ١٩٦٦، أى قبل حوالى خمسين عامًا من الآن، ونظرًا لأهميته قررت إدراجه ضمن خطة (ذاكرة الكتابة) وقد كان أن أحضرته تمهيدًا لنشره، وذلك بعد عرضه على السيد/ رئيس التحرير، وبالفعل اتخذت كل الإجراءات فى سبيل نشره، وكان السبب المباشر وراء طرحه للنشر مرة أخرى، هو ما تضمنه الكتاب من أحداث تتطابق مع ما نعيشه من ظروف الآن، فالكتاب كما جاء فى العنوان (الكتاب الأسود للاستعمار البريطانى فى مصر) - يعرض لنا كافة المؤامرات التى تعرضت لها (مصر) من قبل الاستعمار البريطانى منذ أولى مؤامرته فى العام ١٩٠٧ والمعروفة بحملة (فريزر) الفاشلة على مصر، وبالطبع يسبق ذلك حديث الكاتب عن (الاستعمار) كفكرة ومدلول، ثم ما هى وسائل الاستعمار وغاياته ومؤامرات (إنجلترا) ضد (مصر) لا تنتهى، وظلت منذ عهد (محمد على) وخلفاؤه، حتى حدثت الثورة العرابية والتى كشفت المؤامرات الإنجليزية والتى انتهت بالاحتلال الإنجليزى لمصر فى العام ١٨٨١، وسيظل اسم (اللورد كرومر) وصمة عار كبيرة فى جبين (الإنجليز) لما ارتكبه من فظائع فى مصر كان على رأسها جريمة (دنشواى) فى العام ١٩٠٦، وفى كتاب (شحاتة عيسى إبراهيم) ستتعرف على كافة المؤامرات التى حاكتها (إنجلترا) ضد مصر كمؤامرة احتلال السودان وفصلها عن مصر، ويتتبع الكتاب كل هذه المؤامرات، منذ (فريزر) وحتى إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ حتى حدثت ثورة يوليو من العام ١٩٥٢ وهى نهاية الاحتلال، فالكتاب يستحق الالتفات ولا سيما فى هذه الآونة، لذا كان ضروريًا إعادة نشره كى لا ننسى ما حدث ويحدث ضد (مصر) وتاريخها الكبير.

طارق هاشم

« ان الشعوب التى تســاوم المستعمر على حريتها ، توقع فى الوقت نفسه وثيقة عبوديتها . لذلك فان أول اهدافنا هو الجلاء بدون قيد ولا شرط .

اننا نعلنها عاليــة مدوية ، يجب أن يحمل الاحتلال عصاه على كاهله ويرحل ، أو يقاتل حتى الموت ، دفاعا عن وجوده » .

من خطبة
للرئيس جمال عبد الناصر
فى المنوفية

الإهداء

الى البطل الذى آمن بربه ، ووثق فى شعبه ، وكرس حياته لاسعاد وطنه ، والقضـــاء على الاستعمار ، ورفع لواء الحرية والاستقلال، فنصره الله نصرا عزيزا .

الى جمال عبد الناصر

مقدمة

لم اقصد وأنا أكتب هذه الصفحات ، أن أقدم للقارىء تاريخا مفصلا مسهبا ، بالمعنى المعروف ، للاحتلال البريطاني لمصر ، وانما قصدت أن أقدم للشباب ، والجيل الحاضر ، قائمة بالمؤامرات والدسائس التى حاكها الانجليز لمصر منذ أول القرن التاسع عشر ، تلك المؤامرات التى انتهت باحتلالهم لها فى يوليو عام ١٨٨٢ ، ثم طردهم منها فى ديسمبر سنة ١٩٥٤ ، ثم عودتهم للاعتداء عليها مرة ثانية فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، ثم طردهم طردا نهائيا فى ديسمبر من تلك السنة ، يقرءونها ويستخرجون منها عبرة وعظة ، فى حاضرهم ومستقبلهم •

وقد اقتضى تسجيل تلك المؤامرات أن استعرض استعراضا سريعا ملابساتها التاريخية ، وما احاط بها من ظروف سياسية . ولطالب الاستزادة أن يرجع الى المراجع المطولة ، التى عالجت تاريخ مصر الحديث والاحتلال البريطانى للشرق العربى بافاضة ، ليروى غلته ويطفىء ظمأه .

ولايغرن الشباب أن الاستعمار قد انقشع ظله من بلادنا ، فهو انما يخرج من الباب ، ليعود ادراجه من الشباك ، دأبه المداورة ، والمراوغة ، وديدنه الختل والمكر والخداع . لذلك وجبت ملاحظة تحركاته ومخططاته بكل عناية وحذر ، ومراقبة دسائسه ومؤامراته فى يقظة وانتباه • فهو كالأفعى التى لا يؤمن لها جانب ، ما لم يقطع ذيلها ويحطم رأسها فى الوقت نفسه •

لهذا عندما أجبر على الجلاء عن منطقة الشرق العربى ، ولم يجد من ذلك بدا ، لم يرضخ ويمتثل ، الا بعد أن وضع الخطط الخبيثة لعودته واستعادة نفوذه :

فقد غرس فى قلب الوطن العربى اسفينا ، هو عصابات اسرائيل ،

لتكون له منطقة ارتكاز ، ومكمنا يربض فيه ، وينفذ منه الى الدول العربية ، ووكرا يدبر فيه خططه ومؤامراته ، لتهديد أمنها وسلامتها واشاعة الفتنة والفرقة بين شعوبها .

وهو الذى أنشأ حلف بغداد ، واغرى بعض الدول فى المنطقة بالانضمام اليه ، والانطواء تحت لوائه ، ليربطها بعجلته ، ويجرها فى ذيله، ولتكون له تكاة يرتكز عليها ، وقلعة يكمن فيها . وهذا ما حدا بانطونى ايدن رئيس وزراء انجلترة الأسبق أن يصرح فى البرلمان الانجليزى عقب تاليف الحلف بقوله : (الآن قد أصبحت لنا كلمة مسموعة فى منطقة الشرق الاوسط) .

وهو الذى طوق المنطقة بقواعد عسكرية : فى قبرص ، وليبيا والعراق ، وعدن ، وشرقى افريقية ، حشد فيها جيوشه ، وعتاده الحربى ، وأدوات الخراب والدمار ، لينقض منها على فريسته ، اذا مالاحت له فرصة مواتية .

وهذا ماحدث بالضبط فى حملة السويس والاعتداء الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، ولذا أوضح الرئيس جمال عبد الناصر فى خطابه التاريخى فى عيد الوحدة يوم ٢٢ من فبراير عام ١٩٦٤ خطورة هذه القواعد على استقلال الدول العربية وأمنها ، وطالب بضرورة ازالتها .

فعلى الشباب الواعى ، فى مصر وفى كل البلاد العربية ، الا يثقوا فى وعود المستعمر ومواثيقه ، والا يطمئنوا الى اقواله وتصريحاته ، فهو لايقول الا كذبا ، ولايضمر سوى السوء والشر ، وعليهم أن يتيقنوا أن لاطمأنينة ولا استقرار للشعوب العربية ، الا اذا زال الاستعمار نهائيا من الشرق العربى ، والمناطق المحيطة به . ولن يتم ذلك الا اذا محيت اسرائيل من الوجود ، وازيلت القواعد العسكرية الاستعمارية الأخرى ، التى تطوق بها المنطقة .

وان مصر لتفخر بانها دقت أول مسمار فى نعش الاستعمار ، وما تزال تدق مسمارا تلو مسمار فى نعشه ، الى أن يلفظ ان شاء الله آخر أنفاسه . وقد نفثت من روحها فى كثير من شعوب العالم ، فسرت فيها الحرية ، سريان النار فى الهشيم ، وصرخت فى وجهه الكريه الصرخة المدوية المشهورة : أن احمل عصاك وارحل ، والا فالويل لك والثبور وعظائم الامور ، فرضخ وأذعن ، تفاديا من غضب تلك الشعوب ، وانتقامها .

وها قد أخذت أعلام الحرية ترفرف على كثير من شعوب افريقية وآسيا ، حتى لم يبق منها اليوم الا القليل الذى يستميت مجاهدا فى سبيل الظفر بالحرية والاستقلال ، ولن يمضى القرن العشرون ، الا وتكون أعلام الحرية قد أظلت جميع شعوب العالم ، مما يستحق معه القرن العشرون أن يطلق عليه بحق ، قرن الحرية والاستقلال وزوال الاستعمار .

ولقد عاصر كاتب هذه الصفحات الاستعمار البريطانى فى مصر ، أكثر أيامه ، ووقف على أساليبه الغادرة ، وحيله المنكرة ، وشب على مقته ، وشاب على كرهه ، وزادته دراسة تاريخ الاستعمار كرها له ومقتا ، ونفث هذا الكره فى نفوس تلاميذه ، صغار الامس ورجال اليوم، فى كتبه التى كانوا يدرسون فيها تاريخ مصر . وكانت أمنيته الكبرى أن يرى كابوس الاستعمار وقدزال عن أنفاس المصريين ، وشمسه وقدغربت الى غير رجعة . وقد تحققت هذه الامنية ، بفضل الله وتوفيقه ، فوجد لزاما عليه أن يسجل هذه الصفحات ، ليقف شباب الامة العربية على أساليب الاستعمار ومؤامراته ، ويحذروا أحابيله ومناوراته . فهو مافتىء يتربص بالشرق العربى الدوائر ، غير مؤمن بالوعى القومى ، والقومية العربية ، التى جرفت الشعوب العربية من المحيط الى الخليج .

ولست أجد للتدليل على هذا القول خيرا من تصريح السير دوجلاس هيوم ــ رئيس وزراء بريطانيا السابق ، عند زيارته لكندا فى فبراير عام ١٩٦٤ ، حيث عتب فيه على الولايات المتحدة لوقوفها فى وجه انجلترة ، عند محاولتها غزو مصر عام ١٩٥٦ ، وعدم تمكينها من اتمام هذا الغزو الغادر ، فان دل هذا التصريح على شىء ، فانما يدل على العقلية الاستعمارية التى لا تزال تسيطر على عقول الساسة الانجليز ، والتى لم تهذبها الهزائم المتوالية التى يلقاها الاستعمار فى كل مكان . فهى لا تزال تبكى وتتوجع للامبراطورية المرنة ، التى تحطمت على صخرة مقاومة الشعوب ، وتتمنى لو أن الأسد البريطانى المتهالك المتفانى ، يعود يوما الى سابق قوته وغابر جبروته ، ليستعيد ملكه الزائل من جديد ، ونفوذه الغارب ، ويرجع عجلة التاريخ الى الوراء . ولكن هيهات ، فعجلة التاريخ سائرة قدما ، وقد انقشع الظلام ، وانجلى الليل الطويل ، وأشرقت شمس الحرية ، وعم ضياؤها كل مكان . وقديما قيل :

ماطار طير وارتفع : الا كما طار وقع

فعلى شباب العرب ، تقع اليوم مسئولية أكبر ، هى عدم تمكين الاستعمار من استعادة الاراضى التى طرد منها ، والمواقع التى خسرها، والوقوف له بالمرصاد ، والسهر على سلامة أراضينا وبلادنا ، والاستماتة فى الذود عن حياضنا ، حتى آخر قطرة من دمائنا .

(وأن تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم) .

والله ولى التوفيق .

شحاته عيسى ابراهيم

أول مارس عام ١٩٦٥

«١»

الاستعمار

مدلوله ومفهومه ، وسائله وغاياته

ان المرء ليعجب ايما عجب للاختلاف الشاسع بين مفهوم لفظ الاستعمار ، وبين مدلوله المألوف : فلفظ الاستعمار من أصل اشتقاقها كلمة عمر الخراب ، فهو عامر ، أى معمور . ولكن الاستعمار كما عرفناه وعرفه الناس جميعا ، اذا ماتسلل الى بلد ، فقد حل به الخراب ، ونزل به الدمار . فهو ينتجع موارده لمصلحته الخاصة ، ويستنزف دماء أهله، ويشيع الفقر والمرض بينهم ، ويضرب عليهم ستارا كثيفا من الجهل ، يحجب أبصارهم عن نور العلم والمعرفة ، ويهدر كرامتهم ، ويقضى على كيانهم ، ويسوقهم سوق الانعام . فأحر به والحالة هذه أن يطلق عليه الاستخراب أو الاستغلال او الاستذلال ، أو الاستنزاف .

والمستعمرون كاذبون ومضللون ، عندما يدعون أنهم مصلحون ، يريدون بأهل المستعمرات الخير والبركات ، وأن الله سخرهم لاصلاح مافسد من أمر العباد ، فهم فى الواقع دعاة شر مفسدون ، يعملون وفق سياسة منكرة ، هى سياسة فرق تسد ، لايقر لهم قرار الا اذا أشاعوا الفرقة والانقسام بين الناس ، وأغروا بعضهم ببعض ، وقربوا اليهم فريقا ، واقصوا عنهم فريقا ، يختصون الاول بقليل من عرض الدنيا الزائل ، ويحرمون الآخر ، بل وينكلون به ، وبهذا يقوم الحقد والبغضاء بين أهل البلد الواحد ، وينشب بينهم التنابذ والتشاحن ، ويتسابقون الى ارضاء المستعمر ، والفوز بالدمى التى يلقى بها فى ساحة الاحزاب يلهيهم بها عن الغرض الاسمى ، وهو اجلاء الغاصب ، وطرد المستعمر من أرض الوطن . بل انهم بهذا التنابذ وذلك التشاحن يمكنون لهذا المستعمر الغاصب ، فتزداد قدمه رسوخا ، ويزداد مركزه قوة وثباتا .

والمستعمرون لايعملون الا فى الخفاء والظلام ، ولايستريحون الى النور والضياء ، يرهبهم اتحاد الناس وتضامنهم ، ويفزعهم تعاونهم وتجمعهم ، وسيلتهم الجاسوسية والسرية ، وأسلوبهم الكذب والنفاق والتضليل ، وأدواتهم الختل والمكر والمراوغة . فهم أعداء البشرية والانسانية ، مثلهم كمثل جراثيم الامراض الفتاكة ، والحشرات المؤذية والذئاب المسعورة والحيوانات الضارية ، مافى هذا من مبالغة أو تهويل فقد اكتوينا بنار الاستعمار أربعة وسبعين عاما ، وابتلينا بحكمه الغاشم ، وجبروته الغادر . ظل يجول ويصول ، فى طول البلاد وعرضها منتجعا خيراتها ، مستحوذا على غلاتها ، لايعمل لخيرها بقدر مايعمل لتثبيت أقدامه فيها . وقد انتهى به جشعه ونهمه ، أن نصب أحابيله، وحاك مؤامراته ، لضم مصر الى امبراطوريته المرنة ، التى كان يدعى أن الشمس لاتغيب عنها ، لولا يقظة المصريين ، ووقوف المجاهدين لهذا العدو الغادر بالمرصاد واحباطهم خططه الماكرة .

والاستعمار فى حقيقته ماهو الا ضرب من ضروب القرصنة . والمستعمرون ماهم فى الواقع الا قراصنة ماكرون ، فالكثرة الغالبة منهم من الدول الغربية ، المطلة على المحيط الاطلسى ، كانجلترة ، وفرنسا ، وهولندة ، وبلجيكا ، واسبانيا ، والبرتغال ، دول بحرية ، عاشت طوال حياتها على القرصنة البحرية . فليس غريبا أن تمتد قرصنتها الى الامم النازلة بشواطىء البحار ، والواقعة على حوافها ، والتى أوقعها سوء حظها فى متناول سفن هؤلاء القراصنة .

ولم يكن غريبا أيضا أن تستخدم فى احتلال هذه الاقطار ابشع أساليب الغزو والقهر ، واحط جرائم السطو والنهب ، شأنها فى ذلك شأن اللصوص وقطاع الطرق .

واستعمار انجلترة للهند ، وأسبانيا للمكسيك ، وهولندة لجزر الهند الشرقية (اندونيسيا حاليا) ، وفرنسا للجزائر وجنوب شرقى آسيا والبلجيك للكونغو ، والبرتغال لانجولا ، خير دليل على مانقول .

وليس غريبا أيضا أن يكون أول هم المستعمرين ، انشاء القلاع والحصون ليحتموا وراءها من هجوم أهل البلاد المفتوحة ، وأن يقوم هؤلاء بالهجوم المتواصل على معاقله ومراكزه الحصينة ، وأن تظل الحرب سجالا بين الطرفين ، الى أن يكتب الله النصر لعباده المظلومين، والخزى والخذلان ، للمغتصبين والباغين .

والاستعمار واحد فى كل مكان وزمان . وأساليبه ووسائله

متشابهة لافرق بين مستعمر ومستعمر . فالجميع قدوا من صخرة واحدة ، لافرق بين أحدهم والآخر ، الا كالفرق بين السوء والشر ، والخراب والدمار ، والسواد والظلام . وتاريخه صفحة سوداء فى سجل الانسانية ، ووصمة عار فى تاريخ البشرية ، مهد له تقدم الاوربيين فى علوم البحار ، والتعصب الأعمى الذى مازال ينخر قلوب الغرب .

والغريب فى أمر هؤلاء القوم ، أنهم كلما اصابوا تقدما فى العلوم والفنون ، لايوجهونه لخير البشرية ونفعها ، وانما يسخرونه لادراك مآربهم الاستعمارية ، واغراضهم التوسعية ، غير عابئين بما يصيب الامم والشعوب الاخرى من خراب وفناء . وهذا هو السبب فى الهلع والخوف اللذين يسيطران على الشعوب ، من وراء التسابق فى التسلح بالاسلحة النووية ولايزال العالم يتأرجح على حافة الهاوية ، ولا يدرى المرء : (أشر أريد بمن فى الارض ، أم أراد بهم ربهم رشدا) .

(٢)

اولى مؤامرات الانجليز لاحتلال مصر
حملة فريزر الفاشلة سنة ١٨٠٧ م

منذ أن رحلت الحملة الفرنسية من مصر سنة ١٨٠١م ؛ والانجليز لا يفتئون يتحينون الفرص للوثوب عليها ، واحتلالها . فهم لم يعاونوا السلطان فى اجلاء الفرنسيين عن مصر ، حبا فى سواد عينيه ، كما يقولون ، أو انتصارا للفضيلة ، أو دفاعا عن الحق والمثل العليا ، وانما توطئة للقيام بالعدوان نفسه من جانبهم ، واحتلال البلاد التى على منتصف الطريق ، بين جزيرتهم وبين الهند ، الدرة اليتيمة فى تاج امبراطوريتهم ، وتفاديا من المأزق الحرج الذى أوقعهم فيه نابليون بونابارت عام ١٧٩٨م عندما احتل مصر ، كى يقطع الطريق عليهم الى الهند ، ومستعمراتهم فى الشرق الأقصى .

ظلوا يتحينون الفرص ست سنوات كاملة ؛ منذ مغادرة الحملة للاراضى المصرية ، ويدبرون المؤامرات ، ويحوكون الدسائس ، مستعينين بأحد زعماء المماليك ، المدعو (محمد بك الالفى) الذى اتخذوا منه عميلا لهم فى مصر وهذا كان سبب تلكئهم فى مغادرة الأراضى المصرية ، عقب مغادرة الفرنسيين لها ، وأخيرا رحلوا عنها سنة ١٨٠٣م . ومعهم عميلهم الالفى ، وفى انجلترة ، أغدقوا عليه الهدايا والاموال ، حتى اذا ماعاد الى مصر نفذ مخططهم ، وعمل على تثبيت قدمهم ، ولكن سياستهم باءت بالفشل اذ لقى الألفى حتفه على يد منافسيه من المماليك ، كما فشلوا فى الضغط على السلطان لابعاد محمد على وجنوده عن مصر ، وعندئذ كشف الانجليز عن نياتهم ، فشرعوا يستخدمون القوة فى ادراك مآربهم، وانفذوا حملة مسلحة لاحتلال مصر سنة ١٨٠٧ م ، هى التى عرفت بحملة فريزر ، احتلت الاسكندرية فى مارس ١٨٠٧م ثم احتلت رشيد.

غير أن الشعب المصرى ، الذى دوخ الفرنسيين بثوراته المتلاحقة ضدهم ، هب لصد المعتدين الانجليز ، ووقف أهل رشيد وقفة رجل واحد وهزموهم هزيمة منكرة ، وكانت قد نمت اليهم أخبار أهل القاهرة واستعدادهم لحمل السلاح ، والتوجه الى الاسكندرية ورشيد ، للقضاء على فريزز وحملته . لذلك لم ير الانجليز بدا من الانسحاب ، وأبرموا صلحا مع المصريين ، أجلوا بمقتضاه فى سبتمبر سنة ١٨٠٧ م ، راضين من الغنيمة بالاياب .

رحلوا ، ولكنهم لم ييئسوا . ومن دأب الاستعمار أنه لايعرف اليأس . فانه يرضخ للظروف القاهرة ، ويتقبل الهزيمة ، ولكنه لايستسلم لليأس ، ويتذرع بالصبر ورباطة الجأش ، مؤمنا أن الزمن سيواتيه يوما ما بالنصر ، وتحقيق أهدافه الخبيثة .

أخذ الانجليز يعملون بهمة لاتعرف الملل ، يحوكون المؤامرات ، ويرتبون الخطط والمناورات ، أربعة وسبعين عاما ، الى أن تهيأت لهم الفرصة ، لتحقيق حلمهم الملح ، وادراك أمنيتهم الغالية ، فاحتلوا مصر سنة ١٨٨٢ م .

(٣)

مؤامرات انجلترة ضد مصر فى عهد محمد على

وضعت انجلترة فى رأس أهدافها الكبرى ، احتلالها مصر ، وكانت ترى لادراك هذا الهدف ، أن تظل مصر ضعيفة ، واهنة القوة ، لا تبدى مقاومة ، اذا ما حان الحين لغزوها ، واحتلال أراضيها ، لذلك حرصت كل الحرص على ألا تقوم فيها حكومة قوية ، يكون لها جيش قوى ، وقوة ضاربة مدافعة • ومن أجل ذلك ، كانت ترقب تقدم مصر فى عهد محمد على بكثير من القلق والخوف ، وتترقب الفرصة للقضاء عليه ، وتقويض قوته الصاعدة النامية •

اغراق انجلترة الأسطول المصرى فى اليونان :

فلما استعان السلطان بمحمد على ، لتأديب اليونان الثائرين ضده ، فى ١٦ يناير عام ١٨٢٤ ، وأرسل هذا ابنه ابراهيم على رأس جيش كبير الى شبه جزيرة المورة ، على ظهر أسطول مصرى ، وأحرز ابراهيم انتصارات باهرة كادت تطفىء الثورة فى اليونان ، وتعيدها الى حظيرة السلطان ، لما تم كل هذا ، شمرت انجلترة عن ساعد المؤامرات، وألبت أوربا ضد السلطان ، بدعوى حق اليونانيين فى الحرية والاستقلال، لأنهم ورثة الاغريق القدماء ، أصحاب الحضارة التى نبعت منها الحضارة الأوربية الحديثة • وذهبت الى المورة فى أسطول بحرى متحد ، بقيادة الأميرال كودرنجتون ، فاجأ الأسطول المصرى فى ميناء نفارينو ••• أو (نوارين) ، وانقض عليه ، وأغرق الجزء الأكبر منه ، فى ٢٠ من أكتوبر عام ١٨٢٧ • فلم يجد محمد على بدا من سحب جيوشه من بلاد المورة ، بعد الخسارة الفادحة التى أصابت قوته البحرية ، التى استنفد فى بنائها جهدا ومالا كبيرين •

ولم يكن الأمر كما يبدو فى ظاهره مساعدة شعب اليونان ، كما ادعت انجلترة ، وتظاهرت بالعطف عليه ، وانما كان مجرد مؤامرة لتكسب موافقة الدول الأوربية للانقضاض على الأسطول المصرى ،والقضاء على قوة مصر البحرية والبرية ، قبل أن يستفحل أمرها ، ويعظم شأنها ، ويصبح من العسير القضاء عليها ·

طرد الجيش المصرى من الشام ، ومعاهدة لندن عام ١٨٤٠ م :

وتظهر انجلترة مرة أخرى على مسرح الدسائس والمؤامرات ، فى حروب محمد على ضد الدولة العثمانية ، التى كانت قد وصلت الى درجة بالغة من الضعف ، حتى أخذت الدول الأوربية الاستعمارية تطلق عليها اسم الرجل المريض ، وتتربص بها الدوائر ، للانقضاض عليها ، واقتسام ممتلكاتها فى آسيا وافريقية ، بعد أن شجعت جميع ممتلكاتها فى أوربا على الانفصال عنها ·

وقد اشتبك محمد على مع السلطان فى حروب انتصرت فيها الجيوش المصرية انتصارات حاسمة فى قونية ، فى ٢١ من نوفمبر عام ١٨٣٢ ، وفى نصيبين (أونزيب) فى ٢٤ يونيه عام ١٨٣٩ · وقد عقدت بين الطرفين عقب الحرب الأولى معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣ م ، وبمقتضاها أضيفت لمحمد على ولاية سورية واطنة ، بالاضافة الى حكم مصر · وقد كانت المفاوضات جارية لحسم الخلاف بين الطرفين عقب موقعة نصيبين ، التى انتهت بها الحرب الثانية ، على تقدير ان هذا الخلاف مسالة داخلية ، بين السلطان وأحد ولاته ، لا شأن للدول الأوربية ـ وعلى راسها انجلترة ـ به ·

ولكن انجلترة كانت ترى فى هذا الخلاف شيئا آخر ، يهمها لدرجة كبيرة ، لا يمكن أن تغفل عنه : فقد أقلقت انتصارات محمد على بالها ، فهى لاتطيق أن ترى مصر وقد قامت فيها حكومة قوية ، قادرة على رد أى اعتداء عنها ، أو تعطل مصالحها فيها ، أو تكون عقبة كأداء على طريقها الى الهند ، خصوصا ان (محمد على) قد أصبح قابضا على طريق الفرات بعد استيلائه على سورية ، بالاضافة الى طريق السويس· وقد رأينا ان انجلترة حاولت قبل الآن الضغط على السلطان لطرد محمد على من ولاية مصر ، عندما أنست فيه القوة ، ولكنها فشلت فى محاولتها ·

لهذا جن جنون بالمرستون ، وزير خارجية انجلترة ، عندما علم بسحق الجيوش المصرية ، للجيوش العثمانية فى موقعة نصيبين ، والتجاء الأسطول العثمانى الى ميناء الاسكندرية ، ليكون تحت حماية محمد على ٠ وعول على القضاء على قوة محمد على ، بالرغم من انتصاره انتصارا عظيما فى ميادين القتال ، وتزعم بالمرستون عصابة الدول الأوربية الاستعمارية، التى كانت هى الأخرى تخشى استيلاء محمد على ، على القسطنطينية ، وبعث الحياة من جديد ، فى الدولة العثمانية ، ووقوفه فى وجه تلك الدول، والقضاء على أطماعها فى اقتسام تركة الرجل المريض ٠

ولو أن (محمد على) ، بعد انتصاره فى موقعة نصيبين ، تابع تقدمه نحو القسطنطينية ، لاستولى عليها بسهولة ، ووضع الدول الاستعمارية، وعلى رأسها انجلترة ، أمام الأمر الواقع ، ولدب بينها الخلاف ، ولانتهى الأمر بينها بالرضا والتسليم ، ولتغير وجه التاريخ الحديث ،وخصوصا بالنسبة لمصر ، ولكن مراعاته لبعض تلك الدول ، وخصوصا فرنسا ، والعمل على نيل رضاها ، جعلها تتجمع ضده ، وتحول دون جنيه ثمار انتصاراته فى ميادين القتال ٠

ومع أن الباب العالى كان قد شرع فعلا فى اجراء مفاوضات مع محمد على تمهيدا لعقد الصلح بينهما ، فان الدول الأوربية ، بزعامة بالمرستون، تقدمت بمذكرة الى السلطان ، فى يولية عام ١٨٣٩ ، تشير عليه فيها بألا يعقد صلحا مع محمد على ، ما لم توافق عليه تلك الدول ، وادعت أنها بذلك تحصل له على شروط أفضل ، وتحفظ له حقوقه قبل واليه المتمرد عليه ٠ وبذل بالمرستون قصارى جهده ، فى ألا يتم صلح بين محمد على والسلطان والا أفلتت فرصة التدخل من يديه ٠ ولذلك أسرع بعقد اتفاق فى ١٥ من يولية سنة ١٨٤٠ (١) ٠٠ بين انجلترة والروسيا وبروسيا والنمسا من جهة ، وبين السلطان من جهة أخرى ، لتهدئة الحالة فى الشرق ، تعهدت الدول الأربع فيه بمساعدة السلطان فى اخضاع محمد على ، وأغفلت فرنسا من الاشتراك فى هذه المذكرة ، لوقوفها بجانب محمد على فى صراعه ضد السلطان ، ومعارضتها فى استعمال القوة مع محمد على ٠

ونتيجة لهذا الاتفاق ، عرض الحلفاء على محمد على حكومة مصر ٠ وراثية فى أبنائه ، مع تبعيتها للدولة العثمانية ، واستقلالها داخليا بقيود

---

(١) : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة للاستاذ محمد رفعت ج ١ ص ٢٤٠ ٠

معينة . ومنحه ولاية عكا طوال حيـاته فقط • فاذا لم يقبل هذه الشروط في غضون عشرة أيام ، حرم ولاية عكا • فاذا انقضت عشرة أيام أخرى ولم يقبل ، فللسلطان الحق في اتخاذ أي طريق تشير به عليه مصالحه الخاصة ، ونصائح حلفائه •

وطبعا رفض محمد على ، وهو المنتصر في ميادين القتـال ، تلك الشروط المهينـة ، لوثوقـه من قوته ، وتفوقه ، وادراكه النصر اذا ما اشتبك من جديد ، في قتال مع السلطان وحلفائه ، واعتمادا على تعضيد فرنسا له • ولكن مؤامرات انجلترة ودسائسها ، كانت له بالمرصاد : فبوساطة سفيرها في القسطنطينية « بنسنبى » أوغرت صدر السلطان ، وأثارت حقده وغضبه على محمد على ، فأصدر قرارا بعزله من ولاية مصر ، وبوساطة موظفي سفارتها في سورية ، بذرت بذور الفتنة بين الأهالى ليقوموا بالثورة ضد الحكم المصرى في الشام ، وأمدتهم بأسلحة وذخائر بلغت قيمها ـ ٤١٩٢٨ جنيها (١) •• طالبت تركيا بتسديد ثمنهـا فيما بعد ، فكانت ثورة عارمة في الداخل •

أما في الخارج ، فقد حشدت أسطولا اشتركت فيه حليفاتها تحت قيادة أمير البحر الانجليزى استيفورد لفرض الحصار من جهة البحر • ولم يمض قليل حتى سقطت بيروت ثم حيفا وصيدا •

وفى ١٣ من نوفمبر عام ١٨٤٠ سـقط حصن عكا المنيع ، عقب انفجار هائل من الداخل ، لم يعرف سببه • وكان لسقوطه تأثير كبير في حالة محمد على المعنوية ، وانهيار أمله في المقاومة ، فلم ير بدا والحالة هده من أن يأمر ابنـه ابراهيم بالانسحاب بجيوشه من الشام ، والتقهقر للعودة الى مصر •.

وأخيرا ، وبعد مفاوضات في شروط الصلح ، بين الدول المتحالفة وبين السلطان ، أصدر الأخير فرمانا في يونيه عـام ١٨٤١ بمنح محمد على حكم مصر بالوراثة في أفراد أسرته من بعده • وقنع محمد على بهـذه النهاية التى كان في الواقع يهدف اليها من قديم ، وان كان قد أخفق في مد رقعة بلاده الى خارج حدودها ، وحرم ثمرة انتصاراته الحربية ، ويرجع الفضل في ذلك الى مؤامرات انجلترة ودسائسها ، وأطماعها الاستعمارية نحو مصر ، ونحو الشرق العربى ، تلك الأطماع التى أصـبحت نقطة الارتكاز في سياستها ، ومحور تفكيرها •

---

(١) : تاريخ مصر السياسى للأستاذ محمد رفعت جـ ١ ص ٢٤٦ •

وقبل أن أختم هذا الفصل ، لا بد من ايضاح حقيقة هامة ، وهى أن الضربة التى وجهت الى محمد على ، كانت ضربة فى الصميم ، أصابت نهضة مصر جميعها ، فى هذا العهد ، لأن خفض جيش مصر ، الذى بلغ أكثر من ¼ مليون محارب فى حروب الشام ، الى ١٨ ألف جندى بمقتضى فرمان سنة ١٨٤١ م ، قضى على النهضة الصناعية ، والعلمية فى مصر من أساسها ، اذ ان تلك النهضة كانت قائمة ، فى الواقع ، على انشاء جيش قوى ، وامداده بالضباط والقادة ، المدربين تدريبا علميا حديثا ، وتجهيز ما يحتاج اليه الجيش والأسطول من عدد وأسلحة وأدوات ، ومعدات وذخائر ، فى مصانع امتلأت بها القاهرة والاسكندرية وكثير غيرهما من مدن مصر ، هذا عدا المعاهد والمدارس الحربية والهندسية ، التى انتشرت فى أرجاء القاهرة وضواحيها . وقد أغلقت أغلب هذه المصانع والمعاهد فى عهد عباس الأول ، اذ انتهت الحاجة اليها بعد تخفيض عدد الجيش .

وهذا ما كانت تهدف اليه انجلترة من وراء مؤامراتها ، كما سبق أن أوضحنا : كانت تهدف الى اضعاف قوة مصر ، وعدم تمكينها من صد أى غزو تمنى به فى المستقبل القريب أو البعيد ، ولن يكون هذا الغزو موجها اليها من غير انجلترة نفسها ، وقد أيدت الأيام والسنون المقبلة صدق ذلك .

(٤)

المؤامرات الانجليزية فى عهد خلفاء محمد على
من ١٨٤٩ م الى ١٨٩٢ م

توالى على حكم مصر ، فى هذه الحقبة ، أربعة حكام من أسرة محمد على ، هم : عباس الأول (من ١٨٤٩ م الى ١٨٥٤ م) ، وسعيد (من ١٨٥٤ م الى ١٨٦٣ م) واسماعيل (من ١٨٦٣ م الى ١٨٧٩ م) ،وتوفيق (من ١٨٧٩ م الى ١٨٩٢ م) ٠

لم يتميز واحد من هؤلاء الخديويين ببعد نظر ، أو صدق فراسة، أو حكيم سياسة ، أو سداد تفكير ٠ بل كانوا جميعا يرون فى العرش وسيلة لاشباع ميولهم ، وادراك مآربهم الشخصية ، وبلوغ قمة العظمة والسيطرة وذيوع الشهرة ، وامتداد السلطان والجبروت ، لا يحسبون حسابا لما تجره هذه السياسة على البلاد من خراب ودمار ٠ ولا يأبهون لما ينصب حولهم من شراك ، وما يدبر من مؤامرات ، للتدخل الأجنبى، والاستعمار الأوربى ٠ وتكفى كلمة مدح واطراء (لأفندينا) لينال أفاك من الأفاكين الأوربيين امتيازا يدر عليه أرباحا طائلة ، ويجعله نديم أفندينا ، ومن أقرب الأقربين اليه ، وصاحب كلمة مسموعة فى طول البلاد وعرضها ٠

الخديو محمد سعيد وامتياز حفر قناة السويس :

لم يعرف بين حكام مصر ـ قديما وحديثا ـ حاكم مفرط فى حقوق بلاده ، اتسم بالبله والضعف ، مثل الخديو محمد سعيد ، فقد حصل المرابون والسماسرة والأفاكون الأوربيون فى عهده على امتيازات ، لم يحصلوا عليها فى أى وقت مضى ، منتهزين فرصة ضعفه ، وخور عزيمته ٠

وليس أدل على ذلك من امتياز حفر قناة السويس ، الذى فاز به منه الأفاك العالمى ، فردناند دى لسبس ، صديق محمد سعيد الحميم : ونظرة واحدة فى عقد هذا الامتياز ، ترينا بوضوح مقدار الغفلة والبله، بل قل العته الذى اتصف به هذا الرجل ، عندما فرط فى حقوق الشعب فى صك الاستعباد الذى حصل عليه المحتال دى لسبس • وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل انه تحت اغراء صديقه دىلسبس ، مد يده للاستدانة فاقترض أربعة ملايين من الجنيهات ، لتغطية نصف أسهم الشركة ، التى بقيت فى الأسواق العالمية دون أن يقبل أحد على شرائها • وبذلك أنقذ الشركة من الافلاس والانهيار ، على حين أوقع مصر فى شراك الديون والتدخل الأجنبى •

فالخديو محمد سعيد يعد أول حاكم مهد للتدخل الأوربى ، كى يجد طريقه الى البلاد • والتدخل الأوربى هو الباب الخلفى ، الذى ينفذ منه الاستعمار لاحتلال البلاد والتهامها •

الخديو اسماعيل وتزايد التدخل الأوربى فى عهده :

وأعقبه الخديو اسماعيل ، ولم يكن أقل غفلة وبلها من سلفه • كانت الشهرة وحب الظهور تأخذ عليه مجمع تفكيره ، وتستولى على نشاطه وجهده ، لا يدخر مالا ، وان كان لا يملك منه شيئا ، ليظهر أمام ملوك أوربا وملكاتها بمظهر الأبهة والعظمة ، ولكى يذيع صيته ، وتطبق الآفاق شهرته ، غير حاسب أى حساب لما يجره بذخه ، وسوء تدبيره على البلاد من خراب ودمار •

ومن أمثلة سفهه وتبذيره ، شراؤه لقب خديو ، وحصره وراثة العرش فى أبنائه ، بمبلغ مليونين ونصف المليون من الجنيهات ، صرفها فى تقديم الهدايا للسلطان ، ورشوة حاشيته ورجال حكومته • ثم صرفه مليونا من الجنيهات فى حفل افتتاح قناة السويس ، وتهيئة الاقامة المريحة والعيش الرغد ، والحفاوة البالغة بملوك أوربا وملكاتها ، وانشاء الملاهى للترفيه عنهم ، وتعبيد الطرق لتنقلاتهم وتحركاتهم فى طول البلاد وعرضها •

ومن أصرخ الأمثلة على غفلته وسوء تدبيره أيضا ، دفعه مبلغ ثلاثة ملايين ونصف المليون من الجنيهات لشركة قناة السويس ، تعويضا لها عما لحقها من الخسائر ! • لنزولها عن بعض الامتيازات ، التى نص عليها عقد الامتياز ، وكان فيها اجحاف صارخ بحقوق مصر ومقوماتها ، كما

قضى بذلك نابليون الثـالث ، الذى حكمه فى الخلاف بين مصر وشركة القناة ، وليس هناك دليل أقوى على قصر نظره ، وفتور همته ، وضعف وطنيته ، من احتكامه فى الخلاف بينه وبين شركة القناة الى نابليـون الثالث ، الذى لم يكن هناك أدنى شـك فى أنه لن يلتزم جانب الحق والعدل فى حكمه ، وأنه لن يرعى لمصر شيئا من حقوقها ، وأنه لا بد أن يحابى دىلسبس وشركة القناة لسبب بسيط يدركه أقل الناس ذكاء وتفكيرا ، ذلك لأن نابليون الثالث كفردناند دى لسبس فرنسى ، يهمـه أن ينجح مشروع حفر القناة على حساب مصر ، وبدماء المصريين وأموالهم، ولما كان يربطه بدى لسبس من أواصر القربى والعلاقات الشخصية • غير أن حب الظهور قد أخفى كل هذه الحقائق عن بصيرة الخديو اسماعيل، الذى اتخذ من المال مطية لذيوع صيته ، وامتداد شهرته ، وحرصه على اتمام مشروع حفر القناة ، التى ستقترن باسمه ، والتى أوهمه دى لسبس أنها ستكسبه شهرة يتجاوبها أربعة أركان المعمورة •

ولكن هل كان اسماعيل يملك خزائن المال التى تمكنه من الانفاق بهذا السخاء ، وذلك التبذير ؟ لا ، لم يكن لديه شيء منه • ولذا اضطر الى الاستدانة من المرابين ، وبيوتات المال الأوربية ، ومن ورائها الدول الاستعمارية تساندها وتؤازرها ، اذ أنهـا تعد البيوتات المالية طلائع زحفها ، لادراك مآربها الاستعمارية • وفى مقدمة هذه الدول طبعـا انجلترة التى كانت ترقب اسماعيل وهو يتردى فى هاوية الاستدانة وتنصب له الشباك ، لتقويض نفوذه ، والقضاء عليه قضاء مبرما •

وبعبارة أخرى كان من مقتضى المؤامرة الكبرى التى دبرتها لاحتلال مصر بعد فشلها فى حملة عام ١٨٠٧ م أن تغزو مصر عن طريق التدخل فى شئونها السياسية • وقد وجدت فى غفلة حكامها ، وقصر نظرهم ومد اسماعيل يده للاستدانة ، فرصة ذهبية ، تقربها من هدفها الأسمى، وهو احتلال مصر احتلالا عسكريا •

انجلترة تشترى حصة مصر فى أسهم قناة السويس :

وثمة مؤامرة خطيرة أخرى ، تمكنت بها انجلترة من التسلل الى مصر واحراز مركز حصـين للوثوب منه عليهـا ، والتدخل المباشر فى شئونها :

فالمعروف ان انجلترة عارضت بكل قوتهـا ، مشروع حفـر قناة السويس ، أول الأمر ، لحصول فرنسى على امتيازه • ولكنها وقد

رأت المشروع يتخذ خطوات سريعة نحو اتمامه ، كانت ترقب هذا الحدث بقلق كبير ، وتعض أصابع الندم ، ان فاتتها الفرصة في الاسهام فيه بأية صورة ، ولذلك ما أن لاحت لها بارقة أمل للاشتراك فيه ، وجنى ثماره ، الا سارعت لاقتناص الفرصة ٠

فما أن علمت أن اسماعيل قد عرض ما تملكه مصر من أسهم للبيع ، بعد أن خوت خزائنه من المال ، وأعرضت البيوتات المالية عن مده به ، وكان عددها ٤٥٠ الف سهم ، حتى سارع دزرائيلى وزير خارجية انجلترة الى شرائها ، بثمن بخس ، قدره أربعة ملايين ونصف المليون من الجنيهات ٠

والغريب انه لم يدع البرلمان الانجليزى للحصول على موافقته على هذه الصفقة ، لأن الأمر لم يكن يحتمل أى تريث أو ابطاء ٠ وقد كانت فرصة يتيمة ، خشى أن تفلت من يد انجلترا كما أفلتت فرصة الاشتراك فى المشروع منذ أول الأمر ، ولأنه قدر ما ستحرزه انجلترة من فوز ، من وراء اتمامها ٠

وفعلا قد صار لانجلترة فى ادارة القناة ، بعد الاستحواذ على هذه الأسهم ، المركز الممتاز ، بل انها كانت أنجع طريق فى اتمام احتلالها مصر عام ١٨٨٢ م ٠ وبعدئذ صارت تستخدمها فى تدبير المؤامرات ، للتدخل فى شئونها ، والعبث بكرامتها وقوانينها ٠

هذا هو اسماعيل الذى ساعد انجلترة على أن تخطو خطوات حثيثة نحو ادراك غرضها الوحيد ، وهو احتلال مصر ، ومهد للانجليز أن يدركوا ، بغيتهم ، بغفلته وسوء تدبيره ٠

ديون اسماعيل وتمادى الانجليز فى التدخل فى شئون مصر :

ولم يكن اسماعيل ، وقد تراكمت عليه الديون ، يملك من الوسائل لتسديد أقساطها ، أو دفع أرباحها الفاحشة ، فوقف عاجزا وحائرا ٠ وهنا نشطت الدول الاستعمارية ، وعلى رأسها انجلترة ، للعمل :

بدأت فى التدخل الجدى فى شئون مصر ، باسم ديون رعاياها ، ولم يكن اسماعيل قادرا على الوقوف فى وجهها ٠ بل انه سمح لها بالتدخل على أوسع مدى ، فسمح لانجلترة بارسال بعثة تفحص مالية مصر ، وهى التى عرفت ببعثة (كيف) ٠

ثم رضى بعد ذلك بانشاء صندوق الدين ، لتسلم أقساط الديون وأرباحها ، وتتمثل هيئته من أعضاء من جميع الدول الدائنة ، وطبعا فى مقدمتها انجلترة وفرنسا ٠

وبلغ التدخل أقصاه بقبول (المراقبة الثنائية) ونزوله عن حقه الشرعى عام ١٨٧٨ م الى وزارة مسئولة ، عينت برئاسة نوبار ، وعضوية وزيرين أجنبيين همـــا : ريفرس ويلسن الانجليزى للمالية ودى بلنيير الفرنسى للأشـــغال ، مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ مصر ، أو فى تاريخ العلاقات بين الدول بعضها وبعض ٠٠

تمادت انجلترا وفرنســـا فى تدخلهما فى شئون مصر ، وهيمن الوزيران الانجليزى والفرنسى على شئون البلاد ، وتحكما فى ميزانيـــة الدولة ، وعطلا جميع الاصلاحات التى تتطلبها البلاد ، بل توقفـــا عن صرف رواتب الموظفين ورجال الجيش ، وسلبا الخديو ، وهو حاكم البلاد الشرعى كل نفوذ ، مما أثار حنق الشعب ، وحفيظة الخديو نفسه ٠ فلما أراد أن يستعيد حريته فى العمل ، ونفوذه وسلطانه ، وقفت له انجلترة وفرنسا بالمرصاد ، وحاولتا التخلص منه ، فسعتا لدى السلطان فى خلعه ، فتم لهما ما أرادتا ، وعزله السلطان فى ٢٦ من يونية عـــام ١٨٧٩ ٠

(٥)

الثورة العرابية ، ودسائس الانجليز ومؤامراتهم

ولاية توفيق العرش :

عزل اسماعيل ، وخلفه ابنه توفيق ، وكان أجدر الخديويين بأن يقع الاحتلال البريطانى فى عهده المشئوم لضعفه ، وتردده ، وارتمائه فى أحضان النفوذ الأجنبى ، وعدائه للشعب ، وتباعده عنه ، وتعاليه عليه ونظرته اليه كما لو كان من سقط المتاع ، الذى انحدرت اليه ملكيته له عن آبائه وأجداده !

الثورة العرابية :

وأول الحوادث الخطيرة التى حدثت فى عهد توفيق هى الثورة العرابية دون شك • وكما ذكرنا سابقا ، لا يتصدى هذا الكتاب لدراسة هذه الحقبة من تاريخ مصر دراسة مفصلة ، وانما يتناول من الحوادث ما يمس موضوعه الرئيسى ، ويجلى جوانبه ، بقدر ما يسمح به مقتضى الحال •

ولذلك فهو لن يتناول شرح أسباب الثورة ، ولا الأدوار التى مرت بها ولا ذكر ملابساتها والظروف التى أحاطت بها • وانما يتناول جانبا واحدا منها ، كانت له صلة مباشرة فى اشعال هذه الثورة • ذلك هو التدخل الأجنبى والدسائس الانجليزية ، التى عملت على تشويهها ، وافساد منهجها ، والقضاء عليها •

كان التدخل الأجنبى مثار سخط الشعب ، وسببا من أسباب غليانه • ولقد ازداد هذا التدخل فى عهد توفيق الى درجة كبيرة • وتضاعف عدد الموظفين الأجانب فى المصالح الحكومية ، وكانت الرواتب

الضخمة التى يستولون عليهـــا سببا فى ضـــغط الميزانية ، واهمال المشروعات الاصلاحية ، وانقاص عدد جنود الجيش ، والاستغناء عن عدد كبير من ضباطه (١) .

وهذه الثورة كغيرها من الثورات ، التى قامت وتقوم دواما فى بلاد العالم ، ثورة داخلية ، تخص الدولة التى تنشب فيها ، ولا يحق لأية دولة أخرى أن تتدخل بسببها ، فى شئون الدولة صاحبة الشأن ، فهى تسوى أمورها ، وتصفى حسابها مع الثوار ، وينتهى الأمر فى النهاية لصالح الشعب الثائر ، الذى يعرف مصـــلحته دون سواه ، ويقدر مستقبله .

ولكن انجلترة كانت لهـــذه الثورة بالمرصاد ، لأن الثورة كانت تنادى بالاصلاحات التى تراها ضرورية ولازمة لانهاض البلاد ، ومسايرتها لركب الحضارة ، وفى مقدمتها الحد من التدخل الأجنبى فى شئون البلاد، وترك أمورها لأبنائها ، يديرونها وفق المصلحة العليا ، والصالح العام. وهذه الاصلاحات ، خصوصا الحد من النفوذ الأجنبى ،لا يمكن أن يروق فى عينى انجلترة ، لأنها تعوق أهدافها المنكرة ، وتحول دون بلوغهـــا غايتها المرجوة ، وتعرقل خططها المرسومة .

ولذلك كانت انجلترة توقع بين العرابيين وبين الخديو ، الذى كما قدمنا كان يكره الشعب ، ولا يقبل النزول عن شىء من سلطته المطلقة، ولا يحلو له إلا أن يحكمه حكما أوتوقراطيا مستبدا . ثم هو كما قدمنا ضعيف قصير النظر ، متردد ، لا يستطيع أن يقطع فى أمر بمفرده ، وليته كان يلتمس النصيحة من مستشارين مصريين، يخلصون له النصح، ولكنه كان يلجأ الى قناصل الدول الأجنبية ، ولا سيما قنصل انجلترة ، الذى لا يعمل الا لصالح الاستعمار الانجليزى ، ولا يتصرف الا طبقـا للسياسة التى ترسمها له حكومته ، التى من مقتضاها توسيع الهوة بين الخديو والمصريين ، ليوجد لدولته منفذا تتدخل من خلاله فى شئون مصر، وتدرك مآربها .

ولقد سارت الثورة العرابية فى أول أمرها سيرا عاديا ، وأجاب الخديو مطالب العرابيين التى تقدم بها أحمد عرابى ، فى مظاهرة عابدين الأولى ، فى فبراير عام ١٨٨١ ، لعدالتها ووجاهتها ، فهدأت الأحوال ، وحمد

---

(١) : الزعيم احمد عرابى للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ٢٨ .

العرابيون له صنيعه ، وكانت الأحوال تؤذن بعهد جديد ، يسوده الود والمحبة ، ويبشر بتقدم البلاد ورفاهيتها ٠٠ (١)

ولكن سرعان ما قلب الخديو للعرابيين ظهر المجن ، بتأثير دسائس القنصل الانجليزى ، فعزل محمود سامى البارودى من وزارة الحربية ، وعين بدله صهره داود يكن باشا ، وأخذ ينكل بكبار الضباط ، ويفرق شملهم ويرصد العيون والجواسيس لمراقبة حركاتهم وسكناتهم ، مما أثار شكوك العرابيين ، ودعاهم لأخذ الحيطة لأنفسهم ، والاستعداد لمعاودة المقاومة واستئناف الكفاح ٠

مظاهرة عرابى الثانية والدسائس الانجليزية :

لهذا جمع عرابى آلايات الجيش المعسكرة فى القاهرة ، وقام بمظاهرة ثانية ، فى ساحة عابدين ، فى ٩ من سبتمبر عام ١٨٨١ لمطالبة الخديو باسقاط وزارة رياض ، ومنح البلاد مجلسا نيابيا وانجاز المطالب التى تقاعس فى تنفيذها ٠

تجلت فى هذه المظاهرة الدسائس الانجليزية بأجلى مظهر ٠ فالانجليز يحيطون بالخديو احاطة السوار بالمعصم ، ويرافقه مستر (كوكسن) قنصل انجلترا فى الاسكندرية ، وجنرال جولد سمث (مراقب الدائرة السنية) فى أثناء نزوله الى ساحة عابدين ، حيث كان الجيش مجتمعا ، ويحضران المناقشة التى دارت بين الخديو توفيق وأحمد عرابى وهى : —

الخديو : ما أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟

عرابى : جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة ٠

الخديو : وما هذه الطلبات ؟

عرابى : هى اسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى ، وابلاغ الجيش العدد المعين فى الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القواعد العسكرية التى أمرتم بوضعها ٠

---

(١) :راجع خطب محمود سامى البارودى ، ورياض باشا ، واحمد عرابى ، فى المادبة التى اقامها الأول ، عقب اعداد القوانين العسكرية ٠ كتاب احمد عرابى ، للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ٤٣ — ٤٦ ٠

الخديو : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم الا عبيد احساناتنا ٠

عرابى : لقد خلقنا الله أحرارا واننا لن نستعبد بعد اليوم (١) ٠

فأشار كوكسن على توفيق بالعودة الى السراى ، وناب عن توفيق فى استكمال المناقشة مع عرابى ، يصحبه كلفن المراقب المالى ٠

ومما يثير الدهشة حقا ، اغراء كوكسن للخديو باغتيال عرابى ، عندما ترجل عن جواده لعرض مطالب الشعب عليه (٢) ٠٠ ولاشك أن كوكسن كان يهدف الى اشعال نار الفتنة ، من وراء هذه المؤامرة الخبيثة ، لولا أن الخديو قدر عواقبها الوخيمة ، ورأى أن الجيش جميعه من وراء عرابى ، على حين لا يساند الخديو سوى الانجليز ٠

اقالة وزارة رياض وتولى شريف الوزارة :

ومع ذلك فقد انتهت الأزمة بسلام ، وقدم رياض باشا استقالته من الوزارة فى ١١ من سبتمبر عام ١٨٨١ ، وكلف شريف باشا تاليف وزارة جديدة ، واشترك فيها محمود سامى البارودى ، وزيرا للجهادية (للحربية) ، وعين عرابى بعد قليل وكيلا لها ، وسارت الأحوال مرة ثانية فى مجراها الطبيعى ، ونفذت القوانين التى توقفت وزارة رياض عن اصدارها ، وأجريت الانتخابات ، وافتتح البرلمان فى ٢٦ من ديسمبر عام ١٨٨١ ، ووضعت وزارة شريف القانون الأساسى أو الدستور بلغة العصر الحاضر ٠

وقرر شريف فى هذا الدستور ألا يكون من اختصاص المجلس البحث فى جزية الباب العالى والدين العام ، وكل النفقات التى فرضها على الخزانة قانون التصفية ، وغيره من اتفاقات مصر الدولية ٠ وأما ما بقى من أبواب الميزانية فكان للمجلس أن يبدى فيه رأيه ٠ ولكنه لم يكن يملك اصدار قرار فيه ، ولم يكن للمجلس رأى الا فى سن القوانين ، وفرض الضرائب ٠ فلا ينفذ قانون جديد ، ولا تفرض ضريبة جديدة الا بعد موافقته (١) ٠٠

(١و٢) مذكرات أحمد عرابى طبعة الهلال جـ ١ ص ٧٩ ٠

(٣) تاريخ المسألة المصرية ، تاليف تيودور روتستين ، تعريب الاستاذين عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ٠

وظاهر أنه روعى فى وضع هذا الدستور تجنيب البلاد تدخل الانجليز والفرنسيين ، وعدم اتاحة الفرصة أمامهم للاعتراض على الدستور ، أو عرقلة أعمال المجلس فى المستقبل ، وتركه يؤدى واجبه ، فى ترقية شئون البلاد وتقدمها ٠

وقد وافقت اللجنة البرلمانية ، التى عهد اليها مراجعة الدستور على جميع مواده بعد ادخال تعديل طفيف عليها ، وانصرفت الوزارة الى اجراء الاصلاحات التى تتطلبها البلاد ، لولا فتنة جديدة من معمل الفتن والدسائس الانجليزية ، التى لا تنقطع ، قد عكرت الصفو ، وكهربت الجو ، واضطرت « شريف » الى الاستقالة ٠

الفتنة الجديدة :

والفتنة الجديدة ، مبعثها خوف الانجليز من قيام الحياة النيابية فى مصر ، وتسلم المصريين حكم بلادهم ، اذ أن فى هذا خطرا على النفوذ الأجنبى ، وصدا للتدخل الانجليزى ، واحباطا للمؤامرات والدسائس الانجلو فرنسية ٠ ولذلك لم تأل انجلترا وفرنسا جهدا فى السعى بالوقيعة لدى الخديو وشريف لعرقلة سير الحياة النيابية ٠ وهو تدخل ممجوج مرذول يتسم بالصفاقة وسوء القصد ، لا يبيحه أى قانون أو عرف : فمصر كانت فى ذلك الوقت تابعة للسلطان العثمانى ، ولا يبيح القانون الدولى لدولة أن تتدخل فى الشئون الداخلية لبلد تابع لدولة أخرى ، وهذا ما أعرب عنه السلطان فى مذكرة احتجاج بعث بها الى الدول العظمى (١) ٠٠

كذلك لم يكن هناك أدنى مبرر لهذا التدخل الا انتحال الأسباب ، والمعاذير للتدخل العسكرى ، واحتلال البلاد بقوة السلاح ، الأمر الذى كانت فرنسا وانجلترا تتسابقان لاتيانه ، وان كانتا تتظاهران باتفاقهما فى العمل من أجل غرض واحد ، هو مساندة الخديو ، وتثبيت عرشه ٠

والواقع أنه منذ افتتاح البرلمان فى ٢٦ من ديسمبر عام ١٨٨١ ، والانجليز والفرنسيون لا يفتئون يدبرون المؤامرات ، ويتحينون الفرص للتدخل وتعكير الجو ، فاتفق غمبتا رئيس وزراء فرنسا ، واللورد جرنفل

---

(١) أبدت الدول السلطان فى احتجاجه على التدخل الانجليزى الفرنسى قائلة « انها ترى ان الحال الحاضرة فى مصر لا يمكن تعديلها الا باتفاق الدول العظمى والدولة صاحبة السيادة » (تاريخ المسألة المصرية ص ١٥٠) ٠

وزير خارجية انجلترا ، على توجيه مذكرة مشتركة الى الخديو والوزارة ، عن طريق ممثليهما فى القاهرة المسيو سنكفكس والسير ادوارد مالت ، جاء فيها :

« ان الحكومتين الانجليزية والفرنسية ، تريان أن بقاء سمو الخديو على العرش بالشروط التى قررتها الفرمانات السلطانية ، واعترفت بها الحكومتان رسميا ، هو الضمانة الوحيدة فى الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام فى مصر ، واطراد رخائها ، وهما الأمران اللذان تهتم بهما فرنسا وبريطانيا العظمى على السواء » •

ومضت المذكرة تقول : « ان الحكومتين اللتين اتفقتا اتفاقا تاما فى عزمهما على أن تمنعا كل أسباب الارتباكات الداخلية أو الخارجية ، التى يمكن أن تهدد النظام القائم بمصر ، لا يداخلهما ريب فى أن جهرهما بما عزمتا عليه رسميا فى هذا الأمر ، سيحول دون الأخطار التى قد تتعرض لها حكومة الخديو ، والتى لابد أن تقاومها فرنسا وانجلترا معا » •

وجاء فى ختامها « ان الحكومتين تثقان بأن سموه سيستمد من هذا التأييد مايحتاج اليه من الثقة والقوة لتدبير شئون بلده وشعبه » (١) •• ولا يخفى ما تنطوى عليه هذه المذكرة من خبث ولؤم ، ومكر وسوء قصد ، ينحصر فى سعى الدولتين الى بذر بذور الفتنة بين الخديو ورجال الثورة ، وتحريض للخديو على قلب الحكومة ، وحل المجلس ،والعودة الى السلطة الاستبدادية القديمة (كما قررتها الفرمانات السلطانية) (٢) •

واذا عرف أن فرنسا كانت فى هذا الوقت مشغولة بحربها ضد الشعب التونسى ، فمن السهل علينا أن نعلل سبب اتفاقها مع انجلترا على ارسال هذه المذكرة الآثمة الى الخديو • وقد كان السبب من غير شك ايصاد الباب فى وجه الشعب المصرى اذا هو حاول مساعدة الشعب التونسى فى محنته ، التى أوقعه فيها الاستعمار الفرنسى ، وهو السبب الذى من أجله حاولت فرنسا فى عام ١٩٥٦ م ، بمساعدة انجلترا واسرائيل ، أن تعتدى الاعتداء المنكر على مصر ، ويتلخص فى الفت فى عضد الجزائريين ، الذين كانوا يجاهدون بكل قوتهم الاستعمار الفرنسى ، ويلقون من الشعب المصرى كل مساعدة وتعضيد • فالاستعمار واحد ،

---

(١) تاريخ المسالة المصرية تاليف تيودور روثستين ، تعريب الاستاذين ـ عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ص ١٤٣ ـ ١٤٤ •

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٠ •

فى كل زمان ومكان ، لا تتغير أساليبه ، ولا تختلف وسائله ، ولا تتبدل أهدافه ٠

التدخل يبلغ أقصاه :

وفى ٢٠ من يناير عام ١٨٨٢ قدم القنصلان الانجليزى والفرنسى ، الى شريف باشا مذكرة ، بايعاز من المراقبين الماليين ، الانجليزى والفرنسى ، يطلبان فيها عدم تخويل البرلمان حق اقرار الميزانية ، جاء فيها : أن « المجلس لا يستطيع التصويت على الميزانية من غير أن يخل بالأوامر العالية التى انشئت بموجبها المراقبة » (١) ٠

ومعلوم أن نظر الميزانية هو أهم أعمال البرلمانات فى جميع دول العالم ، التى تتمتع بالنظام الدستورى ، ومع ذلك فقد أعطى البرلمان عند اجتماعه المواثيق باحترام التزامات الحكومة قبل جميع الدول ، يدخل ضمن ذلك التزاماتها بخصوص الديون وحقوق الدائنين ٠ فلم يكن هناك ، والحالة هذه ، أى داع على الاطلاق ٠ لأن يتقدم القنصلان بهذا الطلب ، بناء على رغبة دولتيهما ، اللهم الا للرغبة الملحة فى تعكير الجو ، والعصف بالحياة النيابية ، وهى ماتزال فى أول عهدها ٠

وصل تدخل الدولتين ، انجلترا وفرنسا ، فى شئون مصر ، بعد تقديمهما المذكرة السابقة ، حدا لم يبلغه من قبل ، فهاجت الخواطر ، واكفهر الجو ، ورأت غالبية المجلس الاستمساك بحق مصر ، وعدم الخضوع الى مطلب الدولتين الباغيتين ٠ ولكن شريف باشا ، وكان يؤثر التريث والتمهل ، كان يرى أن يؤجل المجلس بحث الميزانية الى سنة ١٨٨٣ ، حيث ان ميزانية ١٨٨٢ قد تم اعتمادها ، ولكن غالبية النواب كانت ترى عدم التراخى أمام هذا الاعتداء الصارخ ، لذلك ذهب وفد من النواب الى الخديو فى ٢ من فبراير ، يطلبون اليه اقالة الوزارة ٠ فنزل الخديو على رأيهم ، وأوعز الى شريف بالاستقالة ، وعهد بها الى محمود سامى البارودى ، رغبة من الخديو فى القاء مسئولية المشاكل السياسية على عاتق المجلس ٠ فتسلم البارودى مقاليد الوزارة فى ٥ من فبراير عام ١٨٨٢ ، واشترك عرابى فيها وزيرا للجهادية (الحربية) ، وأصدر

---

(١): المصدر نفسه ص ١٥٤ ٠

الدستور حسب ما أراد أعضاء المجلس ، متضمنا النص على حق المجلس فى اقرار الميزانية ٠

مؤامرة الضباط الشراكسة :

ولكن الانجليز الذين كانت لا تهدأ أحقادهم ، ولا يلبثون أن يتبعوا الفتنة فتنة أخرى ، ولا يستريحون الا أن يصطادوا فى الماء العكر ، سنحت لهم فرصة جديدة ، لتوسيع شقة الخلاف من جديد ، بين الخديو وزعماء الثورة : ذلك أن نفرا من الضباط الشراكسة ، الحاقدين على البلاد ، لما أصابته من بعض التقدم ، وعلى الشعب لما أحرزه من فوز ضد الظلم والطغيان ، والباكين على ضياع السلطان من أيديهم ، وكان عدد هؤلاء الضباط أربعين ضابطا ، على رأسهم عثمان رفقى ، وزير الجهادية (الدفاع) السابق ، تآمروا جميعا على قتل عرابى ، وبقية زعماء الثورة ، فقبض عليهم ، وسيقوا للمحاكمة ، وثبتت عليهم التهمة ، وقضى المجلس العسكرى العالى فى ٣٠ من ابريل عام ١٨٨٢ بنفيهم الى السودان ، وتجريدهم من رتبهم ونياشينهم ٠

فلما عرض الحكم على الخديو ، وجده قاسيا ، وأبى التصديق عليه فانتهز الانجليز الفرصة ، وأوعزوا الى الخديو بتخفيفه ، فقام الخلاف من جديد بين الخديو والوزارة ، التى كانت ترى فى تعديل الحكم ، مجاراة لرغبة الانجليز ، مساسا بكرامة الوزارة ، وموافقة على تدخل الانجليز فى صميم شئون الحكم ٠

ولكن الخديو أصر على موقفه ، ولم يأبه لاعتراض الوزارة ، وأصدر فى ٩ من مايو عام ١٨٨٢ أمرا عاليا بنفى الضباط الشراكسة الى خارج البلاد ، الى حيث يريدون ، وليس الى السودان ، مع احتفاظهم برتبهم ونياشينهم ٠

ومن عجب أن يوقع الخديو هذا الأمر بحضور القنصلين ، الانجليزى والفرنسى ، مما يدل على أنهما أمليا ارادتهما عليه ، وبذلك نجحا فى توسيع هوة الخلاف بين الخديو والوزارة ٠

والواقع أن الخلاف بينهما بلغ أشده ، حتى لقد نادى العرابيون بعزل توفيق ، ولكنهم لم يجدوا استجابة من النواب ، للأخذ بهذا الرأى ،

اذ أنهم كانوا يؤثرون الولاء للخديو وأسرته ، ابقاء على مصالحهم الذاتية ، ومنافعهم الخاصة ، يتزعمهم محمد سلطان باشا رئيس النواب ، الذى انضم الى جانب الخديو فى الأحداث المقبلة .

بهذا تهيأت الظروف للانجليز كى يتدخلوا تدخلا عسكريا ، ولم يبق لهم الا أن يفتعلوا حدثا ، يرتبون له الترتيبات المحكمة ، ويدبرون الحيل الماكرة كى يدركوا غرضهم الآثم ، ويحققوا أغراضهم الشريرة وهذا ما حدث فعلا وسيأتى لك نبؤه بعد قليل .

(٦)

مقدمات الاحتلال الانجليزى لمصر

الاعداد للتدخل المسلح ، وانذار باقالة الوزارة :

بدأ التدخل المسلح بأن أرسلت كل من انجلترة وفرنسا أسطولا حربيا الى ميناء الاسكندرية ، الاول بقيادة السيربوشمان سيمور ، والآخر بقيادة الاميرال كونراد ، وظلت البوراج الحربية تتجمع فى الاسكندرية حتى الاول من يونيو عام ١٨٨٢ . فلما تم تجمعها ، بدأ التدخل الفعلى : فقدم القنصلان الانجليزى والفرنسى الى محمود سامى البارودى رئيس الوزارة ، بلاغا من دولتيهما ، تطلبان فيه اقالة الوزارة ، ونفى عرابى من القطر المصرى ، بصفة مؤقتة ، مع احتفاظه بمرتباته ورتبه ونياشينه ، وتحديد اقامة عبد العال حلمى ، وعلى فهمى الديب ، من رؤساء الآلايات ومن زعماء العرابيين ، فى الريف المصرى ، مع احتفاظهما بمرتباتهما ورتبهما ونياشينهما أيضا .

ومثل هذا الانذار أو البلاغ لا يصدر من دولة الى أخرى الا فى حالة نشوب حرب بينهما ، أو توقع نشوبها ، وهو ما لم يكن حادثا وقت تبليغ الانذار ، ولا يمكن أن يبرره عرف أو قانون ، اللهم الا قانون الاستعمار أو قانون الغابة ، الذى سداه ولحمته فتك القوى بالضعيف، واستباحة دمه وماله وثرواته ، ما دام لا يستطيع الصمود أمام القوة والجبروت . وحتى التعلات والأعذار ، التى اعتاد الاستعمار أن يسوقها لادراك مآربه ، وفى مقدمتها حماية أرواح الأجانب وأموالهم ، لم يكن ما يبررها ، لأن الوزراء سبق لهم أن أكدوا لقناصل الدول فى اجتماع الوزارة يوم ١٠ من مايو عام ١٨٨٢ ، أنه لا خوف على رعاياهم ، فأرواحهم وأموالهم مصونة من كل خطر .

والثورة كما قدمنا ، لم تكن سوى ثورة داخلية ، لا يمتد خطرها الى دولة اخرى ، أو قطر آخر ، والخلاف بين الخديو والوزارة لا يعنى انجلترة أو فرنسا فى كثير أو قليل ، وانذارهما باقالة الوزارة ، ونفى عرابى وتحديد اقامة زميليه - فضلا عن مجافاته للقانون الدولى ، لصدوره ممن لا يملك الحق فى اصداره ، وتدخل ممن لا يحق له أن يتدخل ، اهدار لكرامة مصر وشعبها ، وانتقاص من عزتها ، مما لا يمكن أن يقبله حر أبى .

ومن هنا كان لهذا الانذار على البلاد بصفة عامة ، وعلى الوزارة بصفة خاصة ، أسوأ وقع ، فقد كشف عما تضمره انجلترا للبلاد من سوء النية ، والشر المبيت ، وكانت العزة والكرامة تقضيان برفضه بكل اباء ، وعدم الاذعان لهذا التدخل المعيب ، فى شئون البلاد الداخلية .

وليس مقبولا قول بعض المؤرخين ، ان الموقف كان يقتضى من عرابى وزملائه الرضوخ والاذعان ، لتجنيب البلاد ويلات الاحتلال . فالاستعمار كان قد أحكم خططه لاحتلال البلاد ، سواء قبل عرابى وزملاؤه الانذار أو رفضوه . وهذا الانذار مجرد ذريعة من الذرائع التى يتعلل بها الاستعمار لادراك غايته ، وجعبته لا ينضب معينها من هذه الذرائع ، التى تصورها قصة الذئب والحمل المشهورة ، وينسج المستعمرون على منوالها ذرائعهم وأحابيلهم ومؤمراتهم . ومغالبة المستعمر ومقاومته أشرف من الاستكانة اليه ، والهزيمة فى ميدان القتال أنبل من الرضا بالذل ، والتسليم بالعبودية ، مهما كانت قوة العدو الغادر وسطوته . فلا بد للحق أن ينتصر يوما ما ، ولا بقاء لمغتصب فى أرض يعرف اهلها كرامتهم ، ويؤمنون بحقهم فى الحرية والاستقلال .

هاجت الخواطر كما أسلفنا للانذار الانجليزى الفرنسى ، وتبلبلت الافكار ، وتعددت الاجتماعات الشعبية والوزارية والخديوية ، وقررت الوزارة رفض مطالب الدولتين . ولكن الخديو ، بما جبل عليه من استكانة وخور عزيمة ، وضعف ، أسرع فأعلن قبولها ، فلم تجد الوزارة بدا ، والحالة هذه ، من الاستقالة ، احتجاجا على قبول الخديو للانذار ، وامتثاله لأوامر المستعمرين ..

استقالت الوزارة فى ٢٦ من مايو عام ١٨٨٢ ، وطلب الخديو الى شريف باشا تأليف وزارة جديدة ، ولكنه رفض باصرار . وتحت ضغط النواب ، استبقى الخديو أحمد عرابى وزيرا للحربية ، محافظة على الامن واقرارا للنظام ، الى أن ينجلى الموقف ، وتمر العاصفة .

تحين الفرصة لضرب الاسكندرية :

اخذت انجلترة بعد ذلك تتحين الفرصة لضرب الاسكندرية ، وانزال جنودها الى البر ، لاحتلال البلاد ، وشرعت تدبر المؤامرات لتخلق لنفسها الذرائع ، وتلتمس الاعذار ، للعمل المنكر الذى ستقدم عليه ، لا تألو فى ذلك جهداً ، ولا ترعى ذمة ، والجرائم عندها مهما سفلت وسائل تبررها الغاية .

ويحسن بنا هنا أن نوضح : لماذا نسبنا وننسب الى انجلترة جميع المؤامرات والدسائس ، التى حيكت وستحاك فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ مصر . فالواقع أن انجلترة كانت تلعب الدور الرئيسى فى هذه المؤامرات . والمتصفح لتاريخ انجلترة فى القرنين التاسع عشر والعشرين، يجد أنها تتخذ من بعض الدول مخلب قط لادراك مآربها ، وهى عندما تشركها معها فى حروبها ومؤامراتها انما تفعل ذلك حتى اذا ما نضجت الثمرة ، ولاحت تباشير النصر ، انفردت هى بالغنيمة ، واستحوذت على الأسلاب ! .

وهذا ما حدث بالفعل عند احتلالها مصر عام ١٨٨٢ م ، فلقد ظلت تمكر على فرنسا وتخادع ، وتسوقها أمامها سوق الانعام ، وتغمسها معها فى مؤامراتها ، حتى أغرتها اخيراً بارسال بوارجها الى الاسكندرية. فلما دنت ساعة العمل الجدى ، نحت فرنسا جانباً ، فانسحبت أساطيلها فى مساء ١٠ من يوليو عام ١٨٨٢ ، وقامت انجلترة بالاحتلال العسكرى بمفردها ، ولم تستطع فرنسا أن تحتج أو تعترض ، لانها كانت مشتركة فى المظاهرة البحرية ، الى قبيل ضرب انجلترة للاسكندرية كل ذلك لتخلص مصر لانجلترة دون سواها ، ولكى تجنى وحدها ثمرة عدوانها ، ويسلم لها الطريق الى مستعمراتها فى الشرق من كل سوء ، وبذلك تتحقق أهدافها ، التى ظلت ترسم لها الخطط وتحوك لها المؤامرات ، ما يقرب من قرن من الزمان .

والذى يتتبع سياسة انجلترة وفرنسا فى هذه الفترة ، ويطلع على المراسلات المتبادلة بينهما ، بخصوص المسألة المصرية ، يرى كيف أن كلا منهما كانت تخادع الاخرى ، وتمكر بها . وكيف كانت انجلترة تتظاهر بعفة اليد ، وطهارة الذيل ، وتبرأ من أية نية لاحتلال مصر أو انتقاص حقوق السلطان فيها ، فى الوقت الذى كانت تعمل فيه بكل قوتها ومؤامراتها لاحتلال مصر . وكل ما كانت تحرص عليه هو الا تلقى

معارضة من دول أوربا ، أو استنكارا لهذا العمل ، عندما يحين الوقت لتنفيذه . لذلك كانت تضلل ، وتخادع تلك الدول ، وخصوصا فرنسا ، وتموه ، عليها ، حتى حصلت على شبه موافقة فى مؤتمر الاستانة (يونيو عام ١٨٨٢) على العمل بمفردها فى مصر ، اذا اقتضت الضرورة ذلك ، وقد افتعلت الضرورة ، وابتكرت الظرف المناسب للعمل بمفردها ، واحتلالها مصر .

مؤامرة مذبحة الاسكندرية :

دبرت هذه المؤامرة فى منزل القنصل الانجليزى بالاسكندرية ، وقام بتنفيذها أخو خادمه المالطى ، الذى كان يعمل جنديا بالاسطول الانجليزى ، فاستأجر حمارا فى ١١ يونيه عام ١٨٨٢ ، طاف به بجميع أرجاء الاسكندرية يوما كاملا . فلما طالب المكارى (صاحب الحمار) بأجره فى نهاية المطاف ، كان نصيبه خنجرا اغمده الجندى المالطى فى صدره ، فأرداه قتيلا ، وفر الى بيت بعض أصدقائه من الاجانب ، هربا من زملاء القتيل الذين ثاروا للاعتداء الذى وقع على زميلهم ، وحاولوا الانتقام له . وهنا تصدى الاجانب برصاص أسلحتهم ، التى سلحهم بها الانجليز ، فقتل من الجانبين خلق كثير .

فاذا علم أن أخا هذا الجندى كان خادما عند قنصل انجلترة فى الاسكندرية ، وأن هذا القنصل كان من غير شك على صلة تامة بأمير البحر الانجليزى سيمور ، يدبران معا المؤامرات لاحتلال مصر ، أمكن المرء اذن بكل سهولة أن يدرك أن الدور الذى لعبه القنصل فى هذه المؤامرة كان بلا ريب دور المحرض والمدبر ، لاحداث فتنة بين المصريين والاجانب، يتذرع بها الاسطول الانجليزى لاحتلال المدينة ، بحجة المحافظة على أرواح الأجانب .

ولاستكمال المخطط العدوانى ، وزع الانجليز الاسلحة على الاجانب، بعد أن نقلوا النساء والاطفال الاجانب الى ظهر بوارج الاسطول ، ليكونوا تحت حمايته ، فى مأمن من الفتنة .

هذه هى المؤامرة التى تمخض عنها ابتكار الاستعمار الانجليزى ، الذى ما قدم أسطوله الى الاسكندرية لغرض سوى التدخل المسلح فى شئون مصر ، كما سبق أن اعلن الانجليز ذلك ، فى انذاراتهم المتكررة للحكومة المصرية ، ثم احتلال مصر ، وهو هدفهم الاسمى .

فرية ترميم الحصون !

لم يدرك الانجليز مأربهم من فتنة مذبحة الاسكندرية ، ولم يروا فيها ذريعة كافية لاحتلال المدينة ، لأن الوزارة القائمة ، وزارة اسماعيل باشا راغب (من يونيه عام ١٨٨٢) كانت قد شرعت فى القضاء على الفتنة ، واتخاذ التدابير اللازمة لاعادة الحياة الى مجاريها فى المدينة ، لذلك براهم — وقد ابتكروا فرية جديدة ، تذرعوا بها لاحتلال المدينة — صاغوها فى هيئة انذار وجهوه الى الحكومة المصرية ، يتهمون فيه السلطات المصرية بترميم بعض الطوابى (الحصون) القائمة على سواحل الاسكندرية ، وعدوا ذلك اجراء معاديا للاسطول ، وخطرا يهدده !

ومن عجب ان يعد ترميم هذه الحصون معاديا وخطرا بالنسبة للاسطول ، ولا يعد وجود هذا الاسطول خطرا على الاسكندرية ، وعلى البلاد جميعا ! ولكن أليس هذا منطق الاستعمار ! اليست هذه هى قصة الذئب والحمل بعينها ، يمثلها الانجليز تمثيلا واقعيا ، وبصورة مبتكرة ، على مسرح الاستعمار الغاشم ، والاعتداء المنكر !

وقد ردت الوزارة المصرية على هذا الاتهام الكاذب ، بان تلك الترميمات من الاعمال العادية ، التى تجرى باستمرار ، صيانة للحصون من السقوط والانهيار . ومع أن هذه الترميمات ، حق من حقوق مصر ، لا ينازعها فيه منازع ، لانها حصون مصرية ، وفى أرض مصرية ، فقد أصدرت الوزارة أوامرها بايقاف هذه الترميمات ، لكى تبطل حجة قائد الاسطول ، وتفوت عليه الفرصة التى يريد خلقها ، ليتذرع بها للاعتداء على المدينة .

وقد اعترف سيمور ، قائد الاسطول البريطانى فى ٦ من يوليو ١٨٨٢ بأن الترميمات قد أوقفت فعلا ، وظن الناس أن الامر قد انتهى عند هذا الحد ، وأصبح الاسطول آمنا على نفسه من الحصون المصرية ! ولم تعد هناك ذريعة ، يتذرع بها لانزال نقمته على المدينة الوادعة ، وعلى أهلها الآمنين : ولكن جعبة الانجليز المستعمرين لا تفرغ من الذرائع ومعمل مؤامراتهم ملىء بالدسائس التى لا ينضب لها معين ، ولا حد لها ولا نهاية .

ذريعة جديدة :

فلما بطلت هذه الحجة ، وفات على الاميرال سيمور هذه الفرية لضرب الاسكندرية ، اختلق ذريعة جديدة لتحقيق غرضه الشرير . ذلك

أنه أرسل للحكومة المصرية ، بتاريخ ١٠ من يوليو عام ١٨٨٢ ، انذارا(١) يطلب فيه تسليم البطاريات المنصوبة فى طوابى شبه جزيرة رأس التين ، وعلى شواطىء ميناء الاسكندرية الجنوبى ، وهدد بضربهـــا يوم ١١ من يوليو ان هى لم تسلم له قبل شروق شمس ذلك اليوم .

ومعنى هذا الانذار تسليم هذه الحصـــون للاسـطول ، وبعبارة اخرى ، تسليم أجزاء من الاراضى المصرية طواعية ، وبدون أدنى مقاومة ، والرضا باحتلالها ، تمهيدا لاحتلال المدينة ، بعد أن تكون قد فقدت حصونها ، وألقت سلاحها ، وهو أمر تأباه العزة والكرامة دون شك .

ويشبه هذا الانذار تماما ما جاء بالانذار البريطانى لمصر فى ٢٨ من اكتوبر سنة ١٩٥٦ ، قبيل الاعتداء الثلاثى على مصر ، من ضرورة تسليم بورسعيد والاسماعيلية الى الاسطول الانجليزى ، هذا الانذار الذى رفضته مصر بكل اباء وشمم ، وعدته من الصـفاقات الانجليزية التى تستحق كل احتقار وازدراء وردت عليه ردا عمليا حاسما ، جلل رأسها هى وفرنسا واسرائيل بالعار ، واضفى على الفرسان الثلاثة الخزى والشنار .

رفض الانذار الجديد :

وقد عقد الخديو (٢) مجلسا من الوزراء والوجهاء وذوى الحيثيـــة للتشاور فى الأمر ، فقرر المجلس بالاجمـــاع رفض الانذار ، فى رد مسبب ، بعث به الى الاميرال سيمور ، وحمله مسئولية عمله ، الذى ينافى حقوق الانسان ولا تقره قوانين الحرب . الا أن الاميرال الانجليزى الشهم ، قد نفذ انذاره فعلا ، وأصم أذنيه عن أصوات الواجب والضمير والانسانية ، وقوانين الحـرب والعدالة ، أصـم أذنيه عن كل ذلك وغير ذلك ، وصوب فوهات مدافع بوارجه نحو الاسكندرية ، فى ١١ من يوليو عام ١٨٨٢ ، وأمطرها وابلا من قنابله وحممه ، ودك كثيرا من أحيائها دكا .

---

(١) مذكرات احمد عرابى ج ١ ص ٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٨ .

(٧)

القتال بين الانجليز والمصريين ، واحتلال انجلترة لمصر

ضرب الاسكندرية فى ١١ من يوليو سنة ١٨٨٢

ظل الاسطول الانجليزى يقذف الحمم والقنابل من مدافع بوارجه بوحشية لم يسبق لها مثيل ، ابتداء من الساعة السابعة من صباح الثلاثاء ١١ من يوليو سنة ١٨٨٢ حتى منتصف السادسة من مساء ذلك اليوم ، فدكت جميع حصون الاسكندرية ، واشتعلت النيران فى جميع أحيائها ، فأتت على كثير من مساكنها ، وانتشر الفزع والهلع بين الاهالى ، وقضى قرابة ألفين منهم نحبهم « وقد قتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن فى أيديهن ، رمات الاطفال أيضا ، وحمل النساء والاطفال وهن على هذه الحالة » (١) ، وتشردت أسرات لاعد لها ، وهجر أفرادها المدينة ، يهيمون على وجوههم فى العراء ، بعد أن فقدوا المأوى والمتاع ، وعز القوت والغذاء . « نحو من مائة وخمسين ألفا من السكان ، مجردين من كل شىء ، أخذوا فى الحركة بغير قصد ، ولا ماوى . الموت والفزع ملء نفوسهم ، على شواطىء المحمودية ، الى دمنهور ، وجسر السكة الحديدية من دمنهور الى القاهرة » (٢) .

« اما الهاربون (يقصد المهاجرين) فكانوا كالاعاصير ، أو كماء انكسر سده فاندلق ، يتصل بعضهم ببعض ، مزدحمين متراكمين ، وفى حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين أمامهم ، أو حاملين على ظهورهم ،

---

(١) مذكرات الشيخ محمد عبده ، مطبوعات الهلال ص ١٩٣ ، وقد كان معاصرا للثورة العرابية مؤيدا لاتجاهاتها الوطنية ، ولذا نفته السلطات البريطانية مع من نفتهم من زعماء الثورة، بعد أن استتب لها الامر فى مصر .

(٢) المصدر نفسه . ص ١٩٤ .

ما خف حمله من امتعتهم : حيوان ، أثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التي لا قيمة لها » (١) ٠

ولعل هذه اول مرة فى العصر الحديث ، تحصد مدافع عدو مغير ، الارواح بغير حساب ، ولا تفرق بين الاهداف العسكرية وبيوت الاهلين والمستشفيات وتصب نيرانها على الجنود ، وعلى المدنيين على حد سواء ، وبدون أدنى رحمة أو شفقة ، مما لا تقره قوانين الحرب ، ولا شجاعة الشجعان ٠

وبالرغم من « أن العلم الابيض ، وعليه الهلال الاحمر ، كان مرفوعا على الاسبتالية (أى المستشفى) فقد قذف بالقنابل فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى (١٢ من يوليو) ، وهجرها كثير من المرضى والجرحى » (٢) ٠٠

موقف الخديو توفيق :

لا شك أن موقف الخديو توفيق ، من أحداث الاسكندرية ، كان لا يتسم بشىء من الكرامة الوطنية ، أو الشهامة المصرية ، وقد كان من غير شك ضالعا مع الانجليز ، منحازا اليهم ، لانه كان يشعر بمقت الشعب له ، وكرهه لفتور شخصيته وائتماره بأمر الاجانب المستعمرين ٠

لذلك فانه لم ير ضيرا فى أن يرتمى فى أحضان الانجليز ، وأن يرضى عن اهدار كرامة البلاد ، واستباحة حرماتها ، نظير استعادة سلطانه الغابر ، وهيبته المتداعية ، والموافقة على دعوى الانجليز ، التى تذرعوا بها لاعتدائهم المنكر ، من انهم لا يبغون شيئا من احتلالهم البلاد سوى المحافظة على عرش الخديو ، واعادة النظام الى ربوعها ٠

ولا أدل على اغتباط توفيق لاعتداء الانجليز ، واستباحتهم لحرمات الوطن ، من الحديث التالى الذى جرى بينه وبين أحد ياورانه ، منقولا عن مذكرات الشيخ محمد عبده الذى عاصر أحداث هذه الفترة العصيبة من تاريخ مصر ، (فى ١١ من يوليو ، قال أحد الميرالايات الذين فى معية الخديو لسموه ، « ما مصير الاسكندرية ، لو ضربها الانجليز ؟ » فأجاب الخديو « ستين سنه » وهز كتفيه ، فقال الضابط : « لكن السكان

---

(١) المصدر نفسه ٠
(٢) المصدر نفسه ٠

سيحرقونها ، فارجو أن تتوسط لدى الأميرال سيمور ، والوقت لم يزل يسمح بذلك ، استدع « ذو الفقار » وامره أن يحافظ على المدينة ، فعنده من الرجال الكفاية » فأجاب الخديو « فلتحرق المدينة جميعها بحيث لا يبقى فيها طوبة على طوبة ، حرب بحرب ، كل ذلك يقع على راس عرابى وعلى رءوس أولاد الكلاب الفلاحين ») (١) .

مقاومة الشعب لجيش الاحتلال البريطانى :

ولما خلا الجو للانجليز ، واطمانوا الى القضاء على كل مقاومة من جانب الجيش المصرى ، الذى انسحب من الاسكندرية ، وعسكر فى كفر الدوار ، استعدادا للوقوف فى وجه الانجليز عند زحفهم لاحتلال القاهرة وبقية البلاد ، أنزلوا بحارة الأسطول لاحتلال الاسكندرية ، واتصلوا بالخديو توفيق ، وأخذوا يسعون لديه بالمكر والخديعة ، لاصدار أوامره الى عرابى بتسريح الجيش والقاء السلاح .

فبعث الى عرابى تلغرافا هذا هو ملخصه : (٢) « انك تعلم أن الاميرال الانجليزى لم يرد حرب مصر ! وانما أطلق المدافع على الطوابى بسبب ماكان جاريا من التجهيزات ، كما أنذر به ! وقد أعلننا انه يجب اعادة العلائق معنا ، وانه مستعد لتسليم الاسكندرية لجيش منظم مطيع ! فان لم يكن ، فالى جيش عثمانى ، وقد قرر مؤتمر الآستانة أن للسلطان وحده حق المداخلة بقوة السلاح فى المسألة المصرية ! فعليك أن تحضر مع رفاقك الى رأس التين للمداولة فى ذلك ، وآمرك بالكف عن التجهيزات التى لافائدة منها بعد الآن ! »

فرد عليه عرابى بالتلغراف الآتى :ـ

« مولاى »

« فى شريف علم مولاى المعظم ان المحاربة التى وقعت بيننا وبين الانجليز ، انما تسببت عن طلبات الاميرال الانجليزى ، وبلغت مسامع عظمتكم ، وعرضت على مجلس نظاركم ، المنعقد تحت رئاسة سموكم ، بحضور كثير من ذوات البلاد المنتخبين ، ودرويش باشا نائب الحضرة السلطانية ولما تحقق عند جميعهم أن هذه الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية،

---

(١) مذكرات الشيخ محمد عبده ص ١٩٣ .

(٢) انظر نص التلغراف بمذكرات عرابى ج ١ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

ومخلة بشأن البلاد ، قر رأيهم على معارضة طلب الاميرال ، ولو أدى ذلك الى الحرب .

«وبناء على ذلك قرر المجلس المذكور لزوم زيادة ٢٥ ألف عسكرى وصدرت الاوامر الى المديريات بطلبهم ، وقرر المجلس أيضا ألا تطلق المدافع الا بعد اطلاق ٥ طلقات من السفن الانجليزية . ولما ابتدأت السفن باطلاق النار على مدينة الاسكندرية ، لم تقابله الا بعد ٢٠ طلقة. ولم يكن عندنا قبل وقت الضرب أدنى استعداد لاستمرار الاوامر بعدم الاستعداد . ثم أعلن حضرة رئيس مجلس النظار ، وناظر خارجية حكومتكم ، الى جميع جهات الادارة أنه قد اشتبكت البلاد فى حرب مع الانجليز ، وأنها صارت تحت الاحكام العسكرية ، كما هو حكم القانون فى زمن الحرب .

« فلهذه الأسباب ياMولاى تكون حكومتكم الخديوية المصرية ، محاربة لدولة الانجليز بوجه الحق والشرع . ولم يحصل من الحكومة، ولا من عساكرها ، أدنى تحقير ، ولا ازدراء بالدونتمة ، كما هو معلوم لدى عظمتكم ، وانما كانت الحرب عدوانا من الانجليز على الحكومة ، التى لم يبد منها أدنى شيء يستوجب الحرب . فان كان الاميرال أظهر فى مخابرته مع سموكم أنه عدل عن المحاربة الى المسالمة ، فذلك بعد وقوع الحرب ، يعد طلبا للصلح ، وسعيا وراء تجديد العلاقات ، ولايجوز أن يكون انكارا للحرب وتبرؤا من العدوان ، بعد وقوعهما . ولاشك أنى أوافق على أفكار سموكم فى الميل الى الصلح ، مع حفظ شرف البلاد والحكومة . وان كان الاميرال ، يريد تسليم المدينة لجيش حكومتكم المنظم بعد أن تخربت بمدافع السفن الانجليزية ، هدما وحرقا ، فهاهو ذا جيشها المنظم الذى لم يقع منه أدنى أمر يخل بالنظام ، مستعد لأن يتسلمها ، بعد أن تبرح المراكب مياه الاسكندرية ، ولو أنها ضربت المدينة بمدافع سفنها . وللمحافظة على شرف حكومتكم الوطنية ، ينبغى الاستمرار على الاستعدادات العسكرية ، كما يوافق ذلك رأى سموكم أولا ، حتى تفارق المراكب السواحل المصرية ، خوفا مما عساه أن يحدث من قبيل ماسبق . فقد صارت الحادثة الماضية برهانا جليا على أن المسالمة بالوعد ، من الانجليز ، لايمكن كمال الثقة به . وانما هو لأجل شغلنا عن الاستعدادات ، واقتراح مطالب تضر بمصالح البلاد . واننى كنت أتمنى أن أمثل بين يدى عظمتكم لابداء هذه الملاحظات ، لو كنتم فى عاصمة بلادكم ، ولكن من الاسف أن تحقق عندنا تحيز سموكم الى

العدو المحارب لبلادكم ، بدليل رفضكم العودة الى العاصـمة ، وقت ارسال القطار الخديوى لسموكم ، واختياركم الذهاب الى رأس التين، ومعكم النظار وغيرهم من الذوات ، بعـد علمكم بأن المدينة مشـغولة بعسـاكر الانجليز ، اجابة لرأى المستر كلفن .

« فان كنت يامولاى حرا ، فيجب حضوركم الى عاصمة البلاد ، وان كنت أسـيرا لدى الانجليز ، أو متحيزا اليهم ، فلايمكن التسليم بقبول مايكتبه العدو عن سموكم أو عن لسان رئيس النظار وزملائه . والامر لمن له الامر» (١) ..

الامضاء
ناظر الجهادية
أحمد عرابى

والواقع أن (عرابى) قد فطن الى الشراك الذى كان ينصـبه له الخديو بتدبير الانجليز ، وبوحى من مكرهم وخداعهم ، وليس غريبـا أن يتنكر توفيق فى يوم وليلة للكرامة الوطنية ، ويصبح سندا للعـدو الغادر ، ومطية للاستعمار يمهد له السبيل لقهر البلاد واذلالها ، ويبذل له العون لاستباحة حرماتها ومقدراتها . ولقد قال الفرد بلنت فى كتابه التاريخ السرى لاحتـلال الانجليز مصر مانصـه : «ان أعمـال توفيق العموميـة كانت على الدوام لاتدل على اخـلاصه ، والأرجح انه هـو وسلطان باشا كانا قد اتفقا قبلا ، على أن يتظاهرا بالوطنيـة ، حتى يحتميا بالرأى العـام ، اذا ثبتت الحصون ، ولم تهزم امام الاسـطول الانجليزى ، ثم يجب ألا ننسى أن مبعوثى السلطان ، كانا حاضرين فى المجلس . وكانت خطة الحكومة الانجليزية فى ذلك الوقت ، وهى الخطة التى كانت تعلنها على الملأ ، أنها لاترغب الا فى أن يتدخل السـلطان فى النزاع ، وكان توفيق كعادته يلعب دورا مزدوجا ، وغايته أن ينضم الى الفريق المنتصر » (٢) .

وليس عجيبا اذن أن يترك حاكم البلاد الشرعى شـعبه وجهـا لوجه مع العدو المغير ، ويهرب طالبا النجاة لنفسـه ، ويعتصم بقصره فى الرمل انتظارا لنتيجة المعركة ، بفارغ الصبر ، فلما اطمأن الى انتصار

---

(١) مذكرات عرابى جـ ١ ص ١٨٦ — ١٨٨ .

(٢) التاريخ السرى لاحتلال الانجليز مصر . تاليف الفرد بلنت ، وتعريب عبد القادر حمزة ص ٢٧٤ .

الانجليز ، ودكهم جميع الحصون ، عاد الى قصر راس التين ، حيث التقى بقواد الاسطول وقناصل الدول ، الذين هنئوه بسلامته ، وليس بسلامة وطنه ، الذى غلب على أمره .

أخذ الانجليز بعد ذلك يملون على الخديو ارادتهم ، وفى مقدمة ذلك تحطيم المقاومة الشعبية ، وتمهيدا لذلك حاكوا المؤامرة الخسيسة باستدعاء عرابى الى الاسكندرية ، للقضاء عليه ، كما سبق القول ، وقلنا : ان عرابى فطن للمؤامرة الدنيئة ، ورد على الخديو رده السابق . فما كان من الخديو الا أن أصدر أمرا بعزل عرابى ، ووصفه بالعصيان وحض على كراهيته ونبذه ، فى منشورات (١) أخذ الخائن محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب السابق فى توزيعها سرا ، فى طول البلاد وعرضها . ولكن كل ذلك لم يثن عرابى ورفاقه عن حمل لواء المقاومة . ومناهضة غزو البلاد ، واحتلال أراضيها ، يؤيده الشعب ، الذى سارع بتقديم مختلف المساعدات (٢) للجيش المدافع ، من مال وحبوب وحيوان واقمشة ، جنى أحطاب القطن ،فضلا عن تقدم آلاف المتطوعين للانخراط فى جيش التحرير .

ولسنا كما ذكرنا فى مقدمة هذا الكتاب ، بصدد كتابة تاريخ مفصل ولكننا التزمنا فقط فضح مؤامرات الانجليز ومناوراتهم ، وأساليب الغدر والخداع التى اتسمت بها أعمالهم ، والتى هى ديدنهم وأساس سياستهم فى كل زمان ومكان ، ليتذكر العرب عامة ، والمصريون خاصة، سياسة الانجليز الاستعمارية وأساليبهم فى استذلال الشعوب واستغلالها .

تحول الانجليز الى شرقى الدلتا :

لذلك نقول ان الانجليز لما وجدوا طريقهم الى القاهرة ، من غربى الدلتا ، محفوفا بالمخاطر ، لتجمع المحاربين المصريين فى كفر الدوار ، وضخامة الاستحكامات التى قام بها عرابى ، ورئيس أركان حربه محمود فهمى باشا ، أخذوا يعدون العدة لغزوها من جهة الشرق ، بعد أن يعبروا قناة السويس . وقد وجدوا فى فرديناند دىلسبس ، الماكر المخادع ، أداة طيعة لادراك بغيتهم . هذا بالرغم من تأكيده لعرابى بأن الانجليز لن يجرءوا على عبور القناة مطلقا ، وأنهم لو فعلوا فان فرنسا

---

(١) مذكرات عرابى ج ١ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٢ .

ستقف لهم بالمرصاد . فاطمأن عرابى لهـــذا الخداع والمداورة من جانب دى لسبس ، بسذاجته وطيبة قلبه . ولو أنه أسرع الى القناة فردمها، لتعذر على الانجليز الوصول الى أى مـكان فى شرقى الدلتا ، ومن ثم لاستحال عليهم احتلال مصر .

ولقد قال ولسلى ، قائد جيش الاحتلال ، فى أثناء مناقشة المسألة المصرية فى البرلمان الانجليزى « لو أن (عرابى) سد القناة ، كما كان ينوى ذلك ، لكنا الآن لانزال فى البحر ، نحاصر مصر ، فان تأخر عـرابى ٢٤ ساعة نجانا» (١) .

ولقد كادت مأساة احتلال مصر أن تتكرر فى نوفمبر عام ١٩٥٦ ، عندما قام الانجليز باعتدائهم الثلاثى عليها ، بالصورة التى حدثت عام ١٨٨٢ ، لولا أن سدت القناة فى وجوههم ، بما غـرق فيهـا من سفن وصنادل ، أغرقتهـا قنابلهم ومفرقعـاتهم . فاسـتحال على بوارجهم وسفنهم عبورها ، أو التقدم خطوة وراء بور سعيد . نقول لولا ذلك ، لسهل عليهم عبور القناة ، واحتلال مدنها ، ولانهـارت خطوط الدفاع والاستحكامات الاولى ، التى رسمت لمقاومة المعتدين .

تحـول الانجليز اذن الى شرقى الدلتـا ، بعـد أن تدفقت عليهم الجيوش الانجليزية من كل مكان ، وعبروا القناة ، وأسرع العرابيون الى ملاقاتهم ، والتحموا معهم فى القصـاصين ، والتل الـكبير ، ولـكن النصر كان للانجليز ، ومن ثم زحفوا الى القاهرة ، وانتهى الأمر باحتلالها وتحطيم المقاومة الشعبية بأدوات الغـدر والخيانة ، وأسـاليب المكر والدهاء ، وضروب الخسـة والدناءة .

السلطان يصدر قرارا بعصيان عرابى :

قلنا ان الانجليز حاربوا المصريين بأدوات المكر والخديعة وليس بأسلوب الحرب الشريفة : فمنذ أن نجحوا فى دك الطوابى والحصـون ، القائمة على ساحل الاسكندرية ، سعوا جهـدهم الى تحطيم المقـاومة الشعبية ، بالختل والمكر والخديعة ، فاغرى سيمور الخديو باستدعاء عرابى ورفقائه من كفر الدوار الى الاسكندرية ، للقبض عليهم والفتك بهم ، أو بعبارة أخرى لانتزاع زعماء الجيش وقواده ، وضرب المقاومة الشعبية فى الصميم .

(١) التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » تأليف الفرد بلنت ، تعريب عبد القادر حمزة ص ٢٨٧ .

فلمـا لم يذعن عرابى لامـر الخديو ، واستمر فى الاسـتعداد للمقاومة ، ظل الانجليز يحاورون ويداورون فى الآستانة ، لاستصدار قرار من السلطان بوصفه خليفة للمسلمين ، بعصيان عرابى ، لانهم كانوا يعرفون قيمة هذا القرار ، وأثره فى نفوس الضباط والجنود المصريين . وفعلا خدع السلطان ، وظفر منه الانجليز بقرار العصيان ، الذى نشر فى جريدة الجوائب ، بالآستانة فى ٦ من سبتمبر ١٨٨٢ ، فاشـترى الانجليز الوفا من هذا العدد ، وأرسلت الى جميع أنحاء البلاد ، بعـد موقعة القصاصين مباشرة ، التى كاد ينتصر فيها المصريون على الانجليز لما أظهروه من قوة بأس وشجاعة .

فكان لهذا القرار أثره فى انفضاض الضباط والجنود من حـول عرابى ، والقضاء على الروح المعنوية العالية ، التى جعلت الشعب يهب للذود عن حياضه ، اما بالانخـراط فى سـلك الجيش ، واما بتقـديم المساعدات المادية للمحاربين فى ساحة القتال .. وهذا بعض ماجاء فى ذلك القرار : «بارادة سيدنا ومولانا ، السلطان المعظم ، أمير المؤمنين ، خليفتنا الاعظم ، اشعارا لجميع المسلمين ، بأن الافعال التى أجـراها عرابى وأعوانه ورفقاؤه فى مصر ، مخالفة لارادة الدولة العلية السلطانية، ومجحفة لمصالحها ، ومضرة بمصر ، ومغايرة لصـالح المسلمين ، وبنـاء على ذلك تقرر أن (عرابى) وأعوانه عصاة بغاة . وبهذه الصفة تجـرى معاملتهم (١) ..

وما أن ذاع فى البلاد قرار السلطان بعصيان عرابى ، حتى ظهر على المسرح الخـونة ودعاة الهزيمة ، من أعوان الخـديو ، وعلى رأسـهم محمد سلطان ، يحرضون الضباط والجنود على الانفضاض من حـول عرابى ، ويشعلون نار الفتنة بين المشايخ والعمد والاعيـان وأفـراد الشـعب ، لكى يحبسوا معونتهم عن الجيش ، ويوقفوا مسـاعداتهم للثوار . ثم أخذوا يرسلون العيون والجواسيس ، الى معسـكر التل الكبير ، لاستطلاع أخبار الجيش ، لنقلها الى الانجليز ، ويرشون بعض الضباط ، الضعاف الايمان بوطنهم وكرامتهم ، بالمال الزائف ، الذى به كمية كبيرة من الرصاص (٢) .. كى يرتكبوا جريمة الخيانة ضد شرفهم العسكرى ، ويلقوا بأسلحتهم ، ويرضوا بالذلة والهوان . وأخذوا يدلون

---

(١) تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة تأليف الاستاذ محمد رفعت ج ٢ ص ٢٢٤.
(٢) التاريخ السرى لاحتلال الانجليز مصر ص ٣٠٥ .

الانجليز على مواطن الضعف فى المعسكر المصرى ، ويرشدونهم الى أسهل المسالك الموصلة اليه .

موقعة التل الكبير :

فلما حصل الانجليز على كل مايهمهم من معلومات ، ساروا فى جنح الظلام ،بعد منتصف ليلة ١٣ من سبتمبر عام ١٨٨٢ من معسكرهم فى القصاصين ، مسترشدين بالاعراب الذين اشترى الانجليز ذممهم بالذهب الزائف ، والسندات المزورة ، فوصلوا الى المعسكر المصرى وقت الفجر ، وباغتوا الجيش ، وأخذوه على غرة ، فهب الجنود ليجدوا الانجليز مطبقين عليهم من كل صوب ، يعملون فيهم القتل والذبح ، بنادقهم وأسلحتهم الفتاكة ، فشاعت الفوضى وساد الاضطراب ،وركن كثير من الجنود الى الفرار طلبا للنجاة .

ومع ذلك ثبت فى ميدان القتال رجال المدفعية ، بقيادة بعض الشبان الشجعان ، الذين ظلوا يقاومون العدو حتى نفدت ذخيرتهم ، وكلت جهودهم ، وبلغ عدد القتلى من المصريين ألفين وخمسمائة جندى ، وأسر مثل هذا العدد . ويقدر بلنت عدد القتلى والجرحى من المصريين بنحو عشرة آلاف (١) ..

فلما شاهد عرابى ماحل بمعسكره من فوضى واضطراب ، واطباق الانجليز على جيشه من كل ناحية ، نصح له بعض رجاله بالفرار ، لكيلا يقع فى أيدى الانجليز ، فركب حصانه مسرعا حتى أدرك ، عند قريته انشاص ، قطارا مسافرا الى القاهرة ، فركبه ، ووصلها عصر ذلك اليوم .

وتابع الانجليز بعد موقعة التل الكبير ، زحفهم الى القاهرة ، فوصلوها فى ١٥ من سبتمبر ١٨٨٢ ، واستولوا على القلعة ، وثكنة قصر النيل بدون مقاومة . وسلم عرابى وزملاؤه أنفسهم للسلطة الانجليزية، كما سلمت الحاميات المصرية فى مختلف البلاد . وامتلأت السجون بالضباط ، وبكثير من الاعيان والتجار والموظفين ، الذين عرفوا بانتمائهم الى العرابيين . وكان محمد سلطان يشير على الانجليز باعتقال من كانت تحوم حولهم الشبهات شبهات الوطنية والعزة القومية ، والتحرر من الذل والعبودية .

---

(١) التاريخ السرى تاليف الفرد بلنت ص ٣٠٦ .

وحضر توفيق من الاسكندرية ، واستقبله قواد جيش الاحتلال وجنوده استقبالا حافلا ، وقام هو بدوره بالحفاوة بهم ، وأولم لهم الولائم ، وأقام لهم الحفلات الراقصة ، وخلع عليهم الرتب والنياشين ، كما لو كانوا ضباط جيش صديق وجنوده ، أضاف الى أراضى مصر أراضى جديدة ، وليسوا ضباطا وجنودا لدولة معتدية باغية ، اعتدت على كرامة البلاد ، واستباحت حرماتها ، وأودت بحريتها ، وقضت على استقلالها ٠

اتمام احتلال مصر :

وهكذا تم للانجليز احتلال مصر ، لقمة سائغة بالمكر والخديعة ، دون أن تعتدى مصر على انجلترة ، أو يقوم من جانبها أدنى سبب أو مبرر لاعتداء انجلترة عليها ، واحتلال أراضيها ٠

والواقع أن احتلال الانجليز لمصر ، كان عملية من أعجب عمليات القرصنة التى تمت فى القرن التاسع عشر ، بل فى تاريخ العالم الحديث. والعجب أنهم بعد هذا الاعتداء المنكر على مصر ، ينشئون المجالس العسكرية لمحاكمة العرابيين ، لدفاعهم عن بلادهم ، وهو حق مشروع لا تنكره القوانين ، أو تحرمه الشرائع ، وينصب الانجليز أنفسهم قضاة، وهم الد الخصوم ، ولكن هذا هو منطق الاستعمار ، وقانونه المستمد من قانون الغابة ، وتقاليد القرصنة ، وقطاع الطرق !

وحوكم عرابى وزملاؤه الستة وهم : محمود باشا سامى البارودى، ومحمود باشا فهمى ، ويعقوب سامى باشا ، وعبد العال حلمى باشا ، وعلى باشا فهمى الديب ، وطلبه باشا عصمت ، فحكم عليهم بالاعدام ، وعدل الحكم الى النفى المؤبد ، مع مصادرة أملاكهم وأموالهم ، وتجريدهم من جميع الرتب والالقاب ، واختارت الحكومة الانجليزية جزيرة سيلان منفى للزعماء السبعة ، فنقلوا اليها فى ٩ من يناير عام ١٨٨٣ ٠ وفى ١١ من يونيو عام ١٩٠١ أصدر الخديو عباس حلمى الثانى عفوا عن عرابى ، فحضر الى مصر فى الاول من أكتوبر سنة ١٩٠١ ، وتوفى بها فى ٢١ من سبتمبر عام ١٩١١ ٠

ومن عجيب أن يعلن الانجليز عقب احتلالهم مصر، أن هذا الاحتلال ضرورة مؤقتة ، لايبغون من ورائه غير اعادة النظام للبلاد وتثبيت عرش الخديو ، وأنهم لن يتوانوا فى الجلاء بعد أن يتم كل ذلك ٠ وتبع هذا الوعد بالجلاء أكثر من ستين وعدا ، على لسان انجليز مسئولين ٠ وظلوا يراوغون ، ويداورون خمسة وسبعين عاما ٠

(٨)

أعمال الانجليز فى مصر بعد الاحتلال

هدف الانجليز من أعمالهم فى مصر :

أوضحنا بجلاء ، كيف أن احتلال مصر ، كان أمنية الأمانى عند الانجليز ، وكيف أنهم عملوا لتحقيق هـــذه الأمنية بكل ما أوتوا من جهد ، وبكل ما وهب لهم من حذق ومهارة وخداع ، حتى تحقق هــذا الحلم العظيم ، فى غفلة من شعوب العالم ودوله ، وفى ثقة كاملة من أنه لن تقف فى وجوههم أية قـــوة ، أو يرتفع أى صـــوت بالاحتجـاج أو الاستنكار •

ولئن قال انطونى ايدن ، رئيس وزراء انجلترا ، غداة تأميم مصر لشركة قناة السويس ، ان عبد الناصر سرق القناة ، مع مافى هذا القول من مغالطة وتجن على الحقيقة ، فاننا نســـتطيع أن نقول : ان الانجليز قد سرقوا مصر ، وسطوا عليها فى وضح النهار ، وعلى مرأى ومسمع من العالم كله ، وفى غير وجل أو حياء ، وهذا هو الحق الذى لا مراء فيه •

ولقد كان واضحا أنهم كانوا ينوون نية لاشك فيهـا ، أن يكون احتلالهم لمصر أبديا ، بالرغم مما أذاعوه فى أول الأمر ، من آن هذا الاحتلال مؤقت ، وليس لهم مأرب سوى توطيد الأمن ، وتثبيت عرش الخديو •

ومبالغة منهم فى ستر غرضهم ، وايهام العـالم بصدق دعواهم ، دخلت الحـــكومة الانجليزية فى مفاوضـــــات مع الحـــكومة التركيـة من أغسطس عام ١٨٨٥ الى يوليو عام ١٨٨٧ ، لتحديد موعد الجلاء ، وهى التى عرفت بمفاوضات درومندولف • ولكنها اشترطت لتنفيذ الجـــلاء ، شروطا عقيمة ، مجحفة بحق السلطان ، أثبتت بها سوء قصدها ، وعـــدم صدق نياتها • وبذلك انتهت تلك المفاوضات ، أو قل تلك المناورة ، كما

تنتهى جميع مفاوضاتها ، بالاخفاق والفشل ، كما كان متوقعـــا ، لان المفاوضات عند الانجليز ، ليست سوى محاورات ومداورات ، لاتهدف الى شيء سوى اضاعة الوقت وامهال الانجليز لادراك مآربهم الخسيســـة ، وأطماعهم الاستعمارية·ولا يجدى معهم الا القوة القاهرة،والبأس الشديد، عندئذ يركعون على أقدامهم ، ويسلمون بحقوق الشعوب ، وأنوفهم راغمة فى التراب ·

والواقع أن جميع الدلائل ، والوثائق الرسمية تقطع بأن الانجليز كانوا يضمرون فى قرارة نفوسهم ، أن يدوم احتلالهم لمصر الى الأبد ، وأن يكون هذا الاحتلال مقدمة لضمها الى مستعمراتهم فى أفريقية ، وبذلك يمتد حبل هذه المستعمرات من أقصى شمالى القارة الى أقصى جنوبيها ، فضلا عن سيطرتهم على البحرين الابيض والاحمر ، لامتـــلاكهم مفاتيح هذين البحرين وهى : بوغاز جبل طارق ، وبورسعيد ، والسويس ، والقنـــاة الموصلة بينهما ، وبوغاز باب المندب الذى جر الى احتـــلال عدن بعـــد ذلك ·

لذلك اتسمت أعمالهم فيها بعد الاحتلال بسمة الاستقرار ، وطبعت بطابع البقاء والدوام ، وليس فى ذلك أدنى غرابة ، فقد عرفوا منذ غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ الخطر الدائم الذى يهدد الهند ، اذا ما استولت على مصر دولة معادية لهم ، وتأكدت لهم أهميـــة موقع مصر الاستراتيجى بالنسبة لهم فى أية حرب يخوضون غمارها فى المستقبل ، مما ثبت فعلا فى الحربين الأوربيتين الكبيرتين (١٩١٤–١٩١٨ م) و (١٩٣٩ – ١٩٤٤ م) اذ أن وجود مصر فى قبضة انجلترا ، فى أثناء هاتين الحربين ، ساعدهـــا بدون شك على ادراك النصر على اعدائها ، وكسب الحرب ، بما قدمت لها مصر من عون ومساعدات ، تضيق صفحات هذا الكتاب عن عدها وحصرها

كذلك ادركت أيضا الأهمية العظمى التى تجنيها من وضع يدها على مصر بوصفها الباب الأمامى لأفريقية ، المؤدى الى وسطها ، ومن ثم الى بابها الخلفى ، وهو جنوب أفريقية ، الذى هو فى حوزتها أيضا · وبذلك تصبح صاحبة الحول والطول فى القارة السوداء ، اذ بعد احتـــلالها مصر ، وضمها اليها ، وضم السودان أيضا الى مستعمراتها ، تصبح مستعمراتها فى أفريقية متراصة ، متصلا بعضها ببعض ، كجدار منيع ، يختط القارة من أقصى شمالها الى أقصى جنوبها ، ويقف سدا منيعا فى وجه منافسى انجلترة من الدول الاستعمارية الاخرى فى هذه القارة ·

ولم يغب عن خيال انجلترة بلا شك ، المركز الاقتصادى الخطير الذى تجنيه من وراء احتلال مصر : فهى تستولى على غلات مصر وثرواتها ، وعلى رأسها القطن المصرى اللازم لمصانعها فى لنكشير ، وتحتل أسواقا تجارية هامة فى كل من آسيا وأفريقية ، لتصريف بضائعها ، وترويج مصنوعاتها .

ولا ننسى أخيرا أن انجلترة باحتلالها مصر ، قد سيطرت على قناة السويس سيطرة تامة ، ذلك الطريق المائى ، الذى كانت تعده الشريان الحيوى الموصل الى مستعمراتها ، فهى قد أمنت مواصلاتها الى تلك المستعمرات ، وضمنت سيطرتها عليها .

فقل لى بربك : أبعد هذا يصدق مخلوق ، ما تظاهرت انجلترا بترديده فى أول الاحتلال ، وفى أثنائه ، بأنه احتلال مؤقت ، يزول بزوال الأسباب التى دعت اليه ، وهى اختلال الأمن فى مصر ، وتزعزع عرش الخديو توفيق ؟

الواقع أنها بمجرد أن استتب لها الأمر فى مصر ، وقضت على كل مقاومة أو سعى لاخراجها منها ، وأصبحت صاحبة الحول والطول فيها ، وليس من رقيب أو حسيب عليها ، ولا من منازع ينازعها السلطة فى ادارة شئونها ، شرعت تقوم بأعمالها التى كانت تهدف من ورائها الى تدعيم مركزها ، وتثبيت قدمها ، وتحويل مصر بالتدريج الى مستعمرة بريطانية ضمن الدائرة المرنة التى لاتغرب الشمس عنها .

لورد دوفرين يثبت قواعد الاحتلال :

ولقد عهدت انجلترة الى لورد دوفرين سفيرها فى القسطنطينية ، بدراسة حالة مصر وتقديم مقترحاته عن الاصلاحات التى يرى ادخالها فيها . وطبعا ليس المقصود بتلك الاصلاحات ما يعمل على تقدم مصر ورقيها ولكن المقصود تثبيت قدم الانجليز فيها ، ودوام سيطرتهم عليها ، وتحويلها بالتدريج الى مستعمرة بريطانية .

ولقد اختير لورد دوفرين ، دون غيره من ساسة الانجليز لهذه المهمة ، لمعرفته المسألة المصرية حق المعرفة ، ووقوفه على ضعف السلطان العثمانى ، وضعف حكومته من أن تمد يدا لحماية مصر ، واخراج الانجليز منها ، بوصفها جزءا هاما من ممتلكاته . وقد ساعده على اكتساب هذه الخبرة شغله وظيفة سفير انجلترة فى تركيا ، وسفيرها فى الروسيا قبل

ذلك (هذا بالاضافة الى دهائه ومكره ، واتقانه أساليب الخبث والخداع ، ولانه كان له ضلع كبير فى الخطط والأساليب الاستعمارية ، التى انتهت باحتلال الانجليز لمصر • وكان قد اشترك قبل ذلك فى مؤتمر الآستانة ، الذى نجح فيه فى غل أيدى الدول فى الميثاق الذى وقعته فى ٢٤ يونية سنة ١٨٨٢ ، عن أن تتدخل فى شئون مصر ، أو تحتل جزءا من أراضيها فضمن بهذا انفراد بلاده باحتلال مصر ، وهيأ لها الظروف لادراك مأربها ، فى ثقة واطمئنان •

حضر لورد دوفرين الى مصر فى ٣٠ من اكتوبر عام ١٨٨٢ أى بعد اتمام الاحتلال بخمسة وأربعين يوما ، ومكث بها ستة أشهر ، يضع تقريره المشهور ، الذى أرسى فيه الأسس العامة ، والخطوط العريضة للحماية المقنعة ، والذى صار دستورا للاحتلال ، وقانونا أساسيا التزمه طوال بقائه فى مصر •

ولقد كانت الغاية التى هدف اليها ذلك التقرير هى اضعاف مصر ، وسحق الروح الوطنى فيها ، والقبض على ناصية الجيش والشرطة ، ومحو شخصيتها ومركزها الدولى ، بالتصرف فى شئونها الخارجية ، والسيطرة على شئونها الداخلية ، والعودة بها الى مجاهل العصور الوسطى ، بالغاء الدستور ، والقضاء على المجلس النيابى ، والتغلغل فى وزارات الحكومة ومصالحها ، واغلاق المدارس ومعاهد العلم ، والاكتفاء من التعليم بتخريج موظفين يعملون فى ادارات الحكومة ومصالحها •

وبعبارة مختصرة الرجوع بالبلاد القهقرى فى النواحى السياسية والاقتصادية والدفاعية والثقافية والفنية ، وضرب حجاب كثيف من الجهل والضعف على الشعب ، حتى لاتقوم له قائمة ، وسلبه جميع الحقوق والامتيازات التى جاهد فى الحصول عليها طوال الأزمنة السالفة ، وانكار حقه فى أن يعيش حياة حرة كريمة ، كما يعيش غيره من شعوب الارض •

ومما يدل على تعجيل انجلترة فى العمل ، أنه أخذ فى تنفيذ بعض اقتراحات اللورد دوفرين ، قبل مغادرته مصر ، وقبل رفعها الى وزارة الخارجية البريطانية ، وقد عاون الخديو توفيق على تنفيذ تلك الاقتراحات بكل أمانة واخلاص ، وكان وجود جيش الاحتلال ضمانا لسحق أية معارضة تقوم فى وجه تنفيذها •

تسريح الجيش المصرى :

وكان أول عمل بدىء فى تنفيذه انما هو حل الجيش المصرى وتسريح جنوده وضباطه ، للقضاء على الروح الوطنى ، والمقاومة الشعبية ، لذلك

أصدر الخديو توفيق ، بايعاز من الانجليز ، مرسوما فى ١٩ من سبتمبر عام ١٨٨٢ بحل الجيش المصرى ، وتسريح جميع جنوده ، ومحاكمة كبار ضباطه ، واعادة تنظيمه ، باشراف ضباط من جيش الاحتلال ، وانقاص عدد أفراده الى ستة آلاف جندى فقط ، وهو رقم لم يصـــل اليه الجيش المصرى فى أى عهد من العهود السابقة ٠

ولكن الانجليز كما قلنا أرادوا بانقاص الجيش الى هذا العدد ، أن يسحقوا الروح الوطنى ، الذى يتمثل فى الجيش ، والقضاء على كل خطر يأتى من ناحيته ٠

وفى ١٦ من يناير عام ١٨٨٣ أصدر الخديو توفيق مرسوما بتعيين السير افلن وود ، أحد ضباط الحملة الانجليزية ، سردارا للجيش المصرى، ورئيسا لأركان حربه ، مع الانعام عليه برتبة فريق ، ومنذ ذلك الوقت صارت رياسة أركان حرب الجيش المصرى للانجليز ، وظـل الأمر كذلك طوال مدة الاحتلال ٠

كذلك تولى ادارات الجيش ، وقيادة ألويته ضباط من الانجليز ، بلغ عددهم خمسة وسبعين ضابطا ، وبذلك أحكمت الســـيطرة على الجيش المصرى ، وأصبح الانجليز لا يجدون فيه أدنى خطر على وجودهم ٠

ولكى يضمنوا ولاء هذا الجيش وخضوعه لهم تماما ، تعمدوا أن يكون جميع أفراده من الفلاحين الفقراء ، لذلك اخترعوا فكرة نظام البدل العسكرى واعفاء كل من يستطيع تقديم بدل نقدى من شرف الخدمة العسكرية ، وبذلك لا ينخرط فى سلك الجيش الا الفقراء المعدمون الذين لا يملكون هذا البدل ٠ ويحرم الجيش خدمات العناصر المتنورة ، القادرة ، التى تعرف للوطن حقه فى الدفاع عنه ، والذود عن كرامته ٠ وظل البـــدل العسكرى معمولا به طوال مدة الاحتلال ، وهو نظام لم يكن معروفا فى أى بلد من بلاد العالم ، حتى ولا فى انجلترة نفسها ٠

فشرف الدفاع عن أراضى الوطن ، والذود عن حياضه ، واجب محتوم على كل فرد من أفراده ، لايعفى منه الا المرضى والعاجزون ٠

وحرصت انجلترة فى معاهدة ١٩٣٦ التى أبرمتهــا مع مصر قبيــل الحرب الاوربية الثانية على أن يكون لها حق الاشراف على الجيش المصرى ، ونصت تلك المعاهدة على أن يتولى تنظيم الجيش بعثة عسكرية انجليزية ، وأن تمد انجلترة الجيش بما يلزمه من عدد وأدوات وأسلحة حـديثة ٠٠

ولكن الغرض الدفين ، كان ولا يزال فى هذه المعاهدة ، اضعاف الجيش تمشيا مع السياسة الاستعمارية التقليدية ٠

وفعلا ظل الجيش على ضعفه ، وظلت عدده وأدواته وأسلحته هى الأسلحة البالية القديمة ، الى أن هبت البلاد ، وقامت بثورتها فى (٢٣ يوليو ١٩٥٢) ، وكان أحد أسباب هذه الثورة الغضب مما وصلت اليه حال الجيش المصرى من الضعف والاستكانة ، وسوء التدريب ، وقلة الاستعداد ٠

السيطرة على الشرطة :

كذلك لكى يضعوا أيديهم على الأمن الداخلى ، استولوا على قوة الشرطة ، ووضعوا قيادتها فى يد ضباط من الانجليز لقمع أية حركة مناهضة لهم ٠ لهذا أصدر الخديو مرسوما فى ٨ من يناير عام ١٨٨٣ بتعيين السير فالنتين بيكر مفتشا عاما ، وقومندانا للبوليس ، فى جميع أنحاء القطر ، وبهذا صار لانجلترة السيطرة التامة على قوتى الأمن الخارجية والداخلية ، أى على الجيش والبوليس وبذلك أمنت على مركزها فى مصر من أى عدوان خارجى ، أو أى تمرد داخلى ، ومن هنا شرعت فى القيام بأعمالها فى مصر ، فى ثقة واطمئنان كاملين ٠

السيطرة على مالية البلاد :

ومعلوم أن الباب الذى دلفت منه انجلترة للتدخل فى شئون مصر ، فى عهد اسماعيل ، والذى انتهى بها الى الاحتلال المشئوم ، هو الديون المالية ٠ فكان لزاما على انجلترة ، بعد أن انفردت بالأمر فيها ، أن تشل يد الدول الاخرى عن التدخل بسبب تلك الديون ، وأن تنفرد هى وحدها بحل تلك المشكلات سريعا ، بما يضمن لتلك الدول حقوقها ، فلا ترفع عقيرتها مطالبة بحقوق شعوبها المالية ٠

فهى التى ألبت الدول ضد اسماعيل ، عندما عجز عن تسديد ديونه فارغمته على انشاء (صندوق الدين) لتحصيل أقساط الدين وفوائده ، ولم تكتف بذلك بل تمادت فى تدخلها الى أن اضطر اسماعيل فى ١٨ من نوفمبر عام ١٨٧٦ الى اصدار مرسوم بانشاء المراقبة الثنائية ، وذلك بتعيين مراقبين ، الاول انجليزى والآخر فرنسى ، الاول لمراقبة الدخل والآخر لمراقبة المنصرف ، لضمان تسديد تلك الديون ، بصرف النظر عن

حاجة البلاد من الاعتمادات التى تتطلبها الاصلاحات الداخلية ، وتقديم حقوق الدائنين على أى شىء آخر ·

ولم يقف التدخل فى شئون البلاد عند هذا الحد ، بل تعداه الى تعيين وريرين ، انجليزى وهو السير ريفرس ولسون للمالية ، وفرنسى وهو المسيو دى بلنيير للأشغال العمومية ، ضمن أعضاء وزارة نوبار الاولى عام ١٨٧٨ ، فى أواخر عهد اسماعيل · وبذلك بلغ التدخل الاجنبى فى شئون مصر ذروته ، الأمر الذى لم يحدث له مثيل فى أى بلد من بلاد العالم ·

وفى العصر الحالى تدين الولايات المتحدة الامريكية كلا من انجلترا وفرنسا ، وغيرهما من الدول بمبالغ باهظة ، لاتقاس بها ديون مصر فى عهد اسماعيل ، وكثير منها قد عجز عن تسديد ديونه ، ومع ذلك فلم تحاول الولايات المتحدة أن تتدخل فى شئون تلك الدول ، من قريب أو من بعيد ، وهى متمتعة بحريتها ، مستكملة استقلالها ، بالرغم من عجزها المالى ؛ ولكن هى النيات الاستعمارية الخبيثة التى تتلمس أية ثغرة لتنفذ منها ، لتحقيق مآربها الدنيئة ، ونياتها الشريرة ·

وفى عهد توفيق أعيدت المراقبة الثنائية ، وظلت باقية الى أوائل عهد الاحتلال ، فحرصت انجلترا على أن تنفرد بالسيطرة على مالية البلاد فأوعزت الى الحكومة المصرية بالغاء المراقبة الثنائية ، بالرغم من احتجاج حليفتها فرنسا على هذا العمل ، ثم أغرت الحكومة المصرية على تعيين مستشار انجليزى للمالية · فصدر بذلك مرسوم فى ٤ من فبراير عام١٨٨٣ بتعيين السير أوكلن كلفن المراقب الانجليزى مستشارا ماليا ، على أن يكون له حق التدخل فى شئون مصر · وتقتصر وظيفته على الافادة من خبرته فى الشئون المالية ، وشئون مصر بوجه خاص ·

ولكن الواقع أن تعيينه كان الغرض منه السيطرة التامة على شئون مصر المالية · ولقد أصبح المستشار الانجليزى فعلا صاحب التصرف فى الميزانية المصرية ، طوال عهد الاحتلال ، يصرفها على حسب أهواء الاحتلال وأغراضه ، لا على حسب مصلحة البلاد ومقتضيات حاجتها من التقدم والرقى ·

ولقد اقترن عهد الاحتلال منذ بدايته بالكوارث المالية ، وعجز الميزانية ، فالحرب التى شنتها انجلترا على مصر ، ألحقت بها خسائر فادحة ، أصابت الممتلكات والمؤسسات والمبانى عامة فى الاسكندرية ··

وأتت عليها الحرائق التى أشعلتها فى المدينة قذائف البوارج الانجليزية وقنابلها • وقد كانت فرصة مواتية للاجانب ، ليثروا بنهب الخزانة المصرية مطالبين بتعويضات مبالغ فيها كل المبالغة ، عما لحقهم من خسائر مادامت الحكومة المصرية المغلوبة على أمرها هى التى ستضطر الى دفعها ، وليس الانجليز الذين تسببوا فى تلك الخسائر ، وكانوا هم السبب الرئيسى فى حدوثها ، وقد بلغ ما فرض على الحكومة أن تدفعه لهذا الغرض أربعة ملايين من الجنيهات المصرية •

كذلك بلغت صفاقة الانجليز حدا لم يسبق له مثيل بمطالبتهم بأن تدفع الحكومة المصرية نفقات جيش الاحتلال(١) ، المعتدى على كرامة البلاد وحريتها • فمن عجب أن تجبر مصر على أن تدفع للمعتدى عليها ثمن اعتدائه واجر عدوانه • ولكن أما وقد قبض الانجليز على الخزانة المصرية ، فقد صار لهم حق التصرف فيها ، بل قل : صار لهم الحق فى أن يسرقوا وينهبوا ماشاءت لهم السرقة والاغتصاب •

وفى الوقت الحاضر ، تحتل اليابان جيوش أمريكية ، منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، أى منذ عام ١٩٤٤ ، كما تحتل الجيوش الامريكية أيضا ، مع الجيوش الانجليزية والفرنسية ، ألمانيا الغربية ، فهل تدفع اليابان أو المانيا الغربية نفقات جيوش الاحتلال هذه ؟ كلا • انما الذى يقوم بالدفع هو أمريكا وحلفاؤها ، بل ان نفقات جيوش الاحتلال سببت انتعاشا اقتصاديا فى كل من اليابان وألمانيا الغربية ، ووصل هذا الانتعاش الاقتصادى فى ألمانيا الغربية حدا ، طلبت معه الولايات المتحدة عام ١٩٦١ عونا ماليا من الدولارات من ألمانيا الغربية ، لتغطية العجز المالى الذى أصاب ميزانية الولايات المتحدة فى تلك السنة ، وللسبب نفسه لا تطالب اليابان الولايات المتحدة بسحب جيوشها من أراضيها •

ولكن مصر ، تطالب بقوة الحديد والنار ، بدفع نفقات جيش الاحتلال الانجليزى ، علما بأن اليابان وألمانيا قهرتا فى الحرب الأوربية الثانية ، ولو انهما طولبتا بدفع نفقات جيوش الاحتلال ، ماكان فى هذا ما يدعو الى العجب ، والغالب دائما له الغنم ، والمغلوب هو الذى يقع عليه الغرم • ولكن مصر لم تدخل مع انجلترة فى حرب ، ولم تعتد عليها فى

---

(١) بلغت نفقات جيش الاحتلال عام ١٨٨٢ مبلغ ١٧٤٫٠٠٠ جنيه ، وفى عام ١٨٨٣ ٤٢٥٫٠٠٠ جنيه •

(راجع كتاب مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال للاستاذ عبد الرحمن الرافعى، ص ٧١ •

عقر دارها ، وانما المعتدى هو انجلترة ، هى التى اعتدت على مصر بلا أدنى موجب أو مبرر • وهى لهذا السبب تدفع ثمن هذا الاعتداء ، رضيت أم لم ترض ، ولكن ليست فى هذا أية غرابة • فهذا هو منطق الاستعمار ، وهذه هى لغة السيف والمدفع •

فنفقات جيش الاحتلال ، والتعويضات ، ورواتب الموظفين الانجليز الذين تسللوا الى الوزارات والمصالح الحكومية ، والجيش ، والبوليس ، كل ذلك لم تكن لتتحمله ميزانية البلاد ، ولذلك ناءت به مالية مصر ، ونجم عنه عجز ملحوظ(١) • واول علاج بادر به الانجليز لسد هذا العجز ، أن أوعزوا الى مصر بالتوقف عن دفع أقساط الدين الى صندوق الدين •

ولو كانت انجلترة بعيدة عن مصر فى هذا الوقت ، وامتنعت مصر عن أداء أقساط الدين وفوائده ، لأقامت الدنيا وأقعدتها على مصر • ولكنها وقد صارت صاحبة الأمر والنهى فيها ، أصبح جائزا لها أن تفعل اليوم ما لم يكن جائزا فعله بالامس ولكن صندوق الدين لم يقابل هذه المؤامرة من انجلترة بالرضا والتسليم ، بل انه لجأ الى المحاكم المختلطة ، يطالب بأقساط الدين وفوائده ، فقضت له بما أراد •

وهنا ابتكرت انجلترة وسيلة لسد العجز ، وذلك بالعمل على عقد قرض جديد لحساب مصر ، مع مافى ذلك من مخالفة للاتفاقات بين مصر وتركيا • فدعت انجلترة تركيا والدول الاوربية لمؤتمر فى لندن بهذا الخصوص ، ولكن المؤتمر انفض دون أن تبلغ انجلترة مقصدها ، غير أنها لم تيأس كعادتها ، وعاودت الكرة ، ودعت الى مؤتمر ثان فى لندن أيضا حضرته فرنسا والروسيا والنمسا وألمانيا وتركيا وايطاليا ، واستطاعت بحيلها الخبيثة ، أن تفوز من هذه الدول فى هذه المرة وفى مقدمتها تركيا بالموافقة فى ١٨ من مارس عام ١٨٨٥ على اتفاق بعقد قرض جديد ، للحكومة المصرية ، بضمان تلك الدول ، مقداره ٩ ملايين جنيه انجليزى بفائدة قدرها ٣½ ٪ •

وقد كان هذا القرض نصرا للسياسة الانجليزية ، لأنه كان يتضمن موافقة ضمنية من تلك الدول على احتلال انجلترة لمصر ، وعدم اعتراضها عليه •

---

(١) بلغ العجز فى الميزانية فى السنوات ١٨٨٢ ، ١٨٨٣ ، ١٨٨٤ على التوالى ٨٥٠ر٠٠٠ ، ١ر٦٣٥ر٠٠٠ ، ٥١٢ر٠٠٠ من الجنيهات

(راجع مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ٧١ ــ ٧٢) •

والغريب أنه فى أثناء المفاوضات لعقد هذا القرض ، لم يبد من هذه الدول ، حتى ولا من تركيا نفسها ، أى اعتراض على احتلال انجلترة لمصر، ولا على مركزها غير الشرعى فيها • ولم تحاول احداها أن تطالب انجلترة بتحديد موعد جلائها عن مصر • بل كان كل هم تلك الدول ، مراعاة مصلحة رعاياها فى التعويضات • كما اهتمت انجلترة هى الأخرى بأن تفوز بسكوت تلك الدول عن احتلالها لمصر • وتحصل على نفقات جيش الاحتلال •

وبذلك ازدادت اطمئنانا على بقائها فى مصر • واخذت تدير امورها، وتتصرف فى شئونها ، كما لو كانت احدى مستعمراتها القديمة !

القضاء على الحياة النيابية :

لقد كان مجلس النواب ، قبل الاحتلال الانجليزى ، فى عهد الخديو توفيق ، شوكة فى حلق انجلترة ، لانه وقف حجر عثرة فى سبيل النفوذ الأجنبى ، الذى تفاقم الى أقصى حد فى ذلك الوقت • لذلك سعت انجلترة وحليفتها فرنسا، لدى الخديو توفيق فى أن يسحب من اختصاصاته حقه فى نظر الميزانية• وقلنا قبل الآن ان بحث الميزانية هو العمل الأساسى للمجالس النيابية ، فى جميع دول العالم الديمقراطية ، اذ عن طريق الميزانية ، تشرف الهيئة التشريعية الاشراف الكامل على أعمال الهيئة التنفيذية •

والآن وقد احتلت انجلترة مصر ، وسيطرت على حكومتها ، واصبحت تتحكم فى مقدراتها ، فقد تهيأت لها الفرصة أن تقضى على الحياة النيابية فى مصر ، وتلغى الدستور ، وتمحو مجلس النواب من عالم الوجود ، بعد أن سرحت الجيش ، وقضت على البوليس ، وتغلغل الموظفون الانجليز فى جميع ادارات الحكومة ومصالحها •

وفى الواقع ، كان الغاء الحياة النيابية من أهم الموضوعات الأساسية التى تناولها تقرير اللورد دوفرين الاستعمارى الخطير • فبعد أن عدد مساوى الحياة النيابية ، اقترح الغاء البرلمان ، وأن يستبدل به هيئات استشارية ، يكون لها فقط حق ابداء الرأى ، فيما يعرض عليها من مشروعات وقوانين ، دون أن يكون رأيها ملزما للحكومة •

ولو كان هذا السياسى الاستعمارى صادق النية ، لأبقى على الحياة النيابية ، مع وصف العلاج لما بدا له فيها من مثالب • لا أن يقترح الغاءها

الغاء تاما ، ويستبدل بها تلك الهيئات الاستشارية ، التى أثبتت أن وجودها عبث لا طائل تحته ، ولكن الأمر فى حقيقته هو أن الانجليز لا يستطيعون تنفيذ سياستهم الجديدة فى ظل برلمان شعبى ، يقف فى وجوههم ، معارضا كل ما يضر بصالح البلاد ، ويحول دون تنفيذ خططهم فى تحويلها الى مستعمرة بريطانية • وقد كان هذا من غير شك هدفهم الأسمى ، بعد أن تم لهم احتلالها ، والسيطرة عليها •

لذلك ، وقبل أن يغادر دوفرين مصر ، صدر القانون النظامى فى الأول من مايو عام ١٨٨٣ بانشاء (مجلس شورى القوانين) و (الجمعية العمومية) • ويؤلف الأول من ثلاثين عضوا ، نصفهم بالتعيين ، والنصف الآخر بالانتخاب • وتتركز سلطته فى ابداء الرأى ، فيما يعرض عليه من مشروعات القوانين •

وتتالف الجمعية العمومية من ٤٦ عضوا ، ماعدا الوزراء ، وأعضاء مجلس شـورى القوانين • ويكون اجتماعها كلما قضت ضرورة بذلك (للمداولة فى المسائل المهمة التى ترتبط بالمصالح العامة) •

وقد بقى هذان المجلسان ثلاثين عاما ، أى حتى عام ١٩١٣ ، حيث ألغيا ، وحلت محلهما الجمعية التشريعية ، التى لم تعمر سوى عام واحد ، أى حتى عام ١٩١٤ ، حينما قامت الحرب الأوربية الأولى ، فأغلقت أبوابها نهائيا ، وانتهزت انجلترة فرصة نشوب الحرب ، فأسرعت الى فرض الحماية على مصر ، توطئة للخطوة التالية ، وهى ضمها نهائيا الى مستعمراتها ، بعد أن تحرز النصر على أعدائها ، وتصبح كلمتها فى العالم هى العليا •

ولكن مع انتصارها فى تلك الحرب ، تطـورت الحـوادث بما لم يدر فى خلدها ، اذ انتفض الشعب انتفاضته الكبرى عام ١٩١٩م ، مطالبا بحقه فى الحرية والاستقلال ، وهدم كل مابنته انجلترة فى مصر من آمال• فللشعوب قوة كامنة ، تخمد بعض الوقت ، وقد يطول اختفاؤها ، ولكن اذا ما حان وقت ظهورها ، انفجرت كالبركان المدوى ، تلتهم بنيرانها كل ما يصادفها ، ولا تستطيع قوة مهما عظمت أن تعترض سبيلها • والنصر دائما فى النهاية لها • والخذلان لقوى البغى والشر •

ولا يعجب الانسان للسرعة التى صدرت بها مراسيم انشاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية • ففيها التقت أهداف الاستعمار وأهداف الرجعيـة : أهداف الاستعمار فى حكم البلاد حكما يسلب الشعب كل حقوقه ، ويضعه فى مصاف سكان المستعمرات •

وأهداف الرجعية فى أن تحكم البلاد حكما مستبدا ، لا معقب لحكمها، ولا اعتراض من شعب الفلاحين ، عبيد احسان الخديو وأسرته ، هـؤلاء الذين ليس لهم الا الطاعة والاستسلام، وقبول الأمر الواقع، والرضا به !

والحقيقـــة أن « توفيق » كان مثلا أعلى للرجعيـــة الذميمة ، أعان المستعمر على اغتصاب البلاد ، وهو الآن يساعده على تثبيت قدمه فيها ، واذلال أهلها ، واغتصاب ثرواتها ، واستنزاف دمائها ، دون أن يدرك خطورة ما هو مقدم عليه ، أو يقدر للمستقبل والأجيال القادمة أى حساب. يبيع المستقبل بحاضر زائل ، ومنفعة وقتية ، وشهوة الحكم الذى مهما طال ، فهو لابد الى زوال..

وقد بقى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ثلاثين عاما ، كما قدمنا ، يعمل أعضاؤهما كما لو كانوا موظفين فى احدى المصـــالح الحكومية ، يساندونها فى أعمالها ، ولا يرتفع لأحدهم صوت فى معارضتها ولا تعمل الحكومة لهم أى حساب . يرون تغلغل الانجليز فى وزارات الحكومة ومصالحها ، وسيطرتهم على موارد البلاد ومصادرها ، واضعافهم الجيش واذلاله ، وقضاءهم على التعليم ومعاهده ، واستبدادهم بكل صغيرة وكبيرة فى البلاد ، يرون كل ذلك ، ولا يرتفع لأحدهم صوت بالاحتجاج أو الاستنكار ، أو مطالبة المحتل بالجلاء عن البلاد ، وتنفيذ وعوده المتعددة المتلاحقة ، التى قطعها على نفسه بالعودة أدراجه ، عندما يستتب الأمن فى البلاد . ولكن شيئا من هذا لم يكن ليحدث . لأن تكوين المجلسين . وظروف انشائهما ، كانت لا تؤدى الى غير هذه النتيجة المؤسفة !

القضـــاء على التعليم :

ولم تكن الضربة التى وجهها الانجليز الى التعليم أقل جسامة ، وأبعد أثرا ، من تلك التى وجهوها الى الحياة النيابية فى مصر . فقد سبق أن قلنا : ان الاستعمار كالجراثيم التى لا يمكن أن تعيش الا فى الماء الآسن فهو أيضا لا يمكن أن يعيش فى بلاد يشرق عليها نور العلم والمعرفة . والا فان الناس حينئذ يثورون لحقهم المغتصب ويطالبون برد حريتهم المسلوبة . من هنا كان أول عمل يقوم به الاستعمار هو نشر الجهل ، وسد نوافذ العلم فى وجه الشعب ، الذى حلت به نقمة الاستعمار .

لذلك أتبع الانجليز ضربتهم للحياة النيابية ضربة مماثلة للتعليم ، ذلك التعليم الذى أينع فى عهد اسماعيل ، وتقدم تقدما عظيما لدرجة أنه عد من مفاخر عهده ، ومزايا حكمه . فجاء الانجليز وأغلقوا كثيرا من

المدارس العالية ، والقليل الذى تبقى منها مسخت مناهج التعليم فيه ، وحد من عدد طلابه •

كذلك أوقف ارسال البعثات الى الخارج ، تلك البعثات التى أخرجت كثيرا من العلماء الأفذاذ ، الذين نبغوا فى عهد اسماعيل ، وقامت على أكتافهم النهضة العلمية فى عصره ، أمثال رفاعه رافع الطهطاوى ، وعلى باشا مبارك ، ومحمود باشا الفلكى ، وعيسى باشا حمدى ، وغيرهم كثير •

وبعد ان كان التعليم فى جميع درجاته بالمجان ، بل وكان الطلاب يتلقون معونات ومنحا مالية ، بالاضافة الى الطعام والكساء ، أصبح التعليم بالمصروفات • ومعنى هذا ألا يقبل على التعليم الا من كان قادرا على دفع نفقاته • فانحصر التعليم ، والحالة هذه ، فى قلة من أولاد القادرين ، الذين يعرفون للتعليم قيمته •

وادخل تعليم اللغة الانجليزية فى جميع مراحل التعليم ، ثم تحول تدريس بعض المواد باللغة الانجليزية ، توطئة لتدريسها جميعا بتلك اللغة ، مما أثار ثائرة الصحافة المصرية ، وكان موضع نقدها الشديد • وقد هدفوا من وراء ذلك الى هدفين : أولهما اضعاف اللغة العربية ، واذا وجدت بجوارها لغة أخرى أجنبية تزاحمها ، وتصرف جهد التلاميذ عن لغتهم القومية ، الى اللغة الأجنبية • والآخر القضاء على القومية العربية ، والروح الوطنية، وتحويل الشباب المصرى بالتدريج نحو العادات والتقاليد الانجليزية •

وقد فعل الانجليز الشيء نفسه فى الهند والسودان ، وفى كل مكان وطئته أقدامهم • وفعله الفرنسيون أيضا فى تونس والجزائر وبلاد المغرب ، حتى كادت تصبح تلك البلاد فرنسية قلبا وقالبا ، وكادت تمحى فيها القومية العربية •

ولقد سيطر الانجليز على التعليم سيطرة تامة ، وتولى المناصب الرئيسية فى وزارة المعارف موظفون من الانجليز الاستعماريين ، ووضع على رأس هذه الوزارة مستشار انجليزى ، هو المستر دانلوب ، الذى طغى بجبروته على سلطة الوزير المصرى ، وحشد جيشا من المدرسين الانجليز فى المدارس الثانوية والعالية ، لتدريس اللغة الانجليزية ، وبعض المواد الأخرى • وقد كانت مهمة هؤلاء المدرسين الأساسية ، تحطيم الروح الوطنى فى نفوس الطلاب ، وبث روح الاستكانة والضعف فى قلوبهم ، واغرائهم على الرضا والتسليم ، باحتلال الانجليز لبلادهم ، وايهامهم أن هذا الاحتلال أبدى ، لا فكاك لمصر من ربقته ، فاذا أجلى الانجليز عن

مصر ، فلابد أن تحل محلهم دولة أخرى من الدول الطامعة فيها • فالخير كل الخير ، والحالة هذه ، انما هو فى الرضا باحتلال الانجليز ، وقبول حكمهم •

ومما يذكر بهذه المناسبة ، أنه دارت مناقشة بين الطلاب فى مدرسة التوفيقية الثانوية ، وبين أحد المدرسين الانجليز ، عن موعد جلاء الانجليز عن مصر ، واعادة الحرية والاستقلال للمصريين ، وفاء لوعود انجلترة الكثيرة ، وعهودها المتكررة ، فكان رد هـذا المدرس الانجليزى ، مفسرا لسياسة انجلترا بكل جلاء ووضوح : ذلك أنه أخذ قلما ، ورسم صورة على أحد جدران الفصل ، وكان يضغط على القلم ضغطا شديدا • وعندئذ سأل تلاميذه هل تستطيعون استخراج هذه الصورة من الحائط دون أن تحدثوا به أى ضرر أو تشويه ؟ فكأنه أراد تشبيه الاحتلال بتلك الصورة• واخراج الانجليز من مصر ، كمحاولة اخراج الصورة من الحائط ، لايمكن أن يتم بغير تدمير مصر واتلافها • وقد أدرك التلاميذ مغزى هذه المناورة ، وفهموا مايرمى اليه مدرسهم ، من أن الاحتلال أبدى ودائم ، لا فكاك لمصر منه • ولابد أن كثيرا من خريجى هذه المدرسة ، ممن لا يزالون على قيد الحياة ، يذكرون هذه القصة المثيرة •

ويمكن القول باختصار أن التعليم فى عهد الاحتلال ، كان وسيلة من وسائل تثبيت قدمه فى مصر • ولم يقصد منه سوى تخريج طائفة من الموظفين ، ليعملوا فى ادارات الحكومة ومصالحها ، ويتصرفوا طوع ارادة رؤسائهم الانجليز ، ويتباروا فى ارضائهم ومعاونتهم •

ولقد أغضب سوء حالة التعليم أعضاء مجلس شورى القوانين أنفسهم، ولعله لم يرتفع لهم صوت فى نقد أعمال الحكومة، الا بشأن التعليم ، فنقدوا سياسة وزارة المعارف فى (سدها أبواب التعليم بكل حيلة ، فى وجوه الأمة ، ولولا النزر القليل ، القادر على أداء المصروفات ، ما وجـد فى المدارس من التلامذة ، بقدر عدد المعلمين والموظفين ، كمـا فى مدرسـة المهندسخانة ، وغيرها من المدارس التى انحطت كمدرسة الطب ! ويا ليت النظارة كانت تقبل كل من يأتيها ، متعهدا بدفع المصروفات ، بل انها سدت هذا الباب أيضا ، فى كثير من الأحوال والجهات) (١) •

وليس أدل على سوء حال التعليم ، وعدم العناية به من أن متوسط

---

(١) مضبطة جلسة ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٤ لمجلس شورى القوانين (عن كتاب مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ٥٠

ميزانية وزارة المعارف من سنة ١٨٨٣م حتى سنة ١٨٩٥م ، أى فى مدى ثلاثة عشر عاما من عهد الاحتلال ، لم يتعد ٨٥٫٦٢٠ جنيها ، ويذهب أكثر هذه الميزانية ، دون شك ، الى جيوب الموظفين والمدرسين الانجليز ، الذين كانوا يتقاضون مرتبات باهظة · وأقل ما وصلت اليه الميزانية ، كان سنتى ١٨٨٦ ، ١٨٨٧ ، حيث بلغت ٦٨٫٤٩٢ ، ٦٨٫٤٥٢ جنيها · وأكثر ما وصلت اليه كان سنة ١٨٩٥ حيث بلغت ١٠٥٫٠٠٠ جنيه ·

وأكثر ما أصاب فروع التعليم من الافساد والاخلال ، التعليمـان الحربى والبحرى : والسبب فى ذلك لا يحتاج الى أدنى شرح أو تفصيل ، فلقد أنقصت المدارس الحربية الى مدرسة واحدة بالقبة ، عدد طلابها مائة طالب ، بعد أن كان عددها تسعا فى عهد اسماعيل ، وعدد طلابها ١٠٩٠ طالبا (١) · ويقوم بالتعليم فى تلك المدرسة معلمون جميعهم من الانجليز، ولا يعلمون سوى أتفه المواد ، وأقلها نفعا وأهمية للضابط المصرى ·

وقد انحط مستوى طالبى الالتحاق بتلك المدرسة الى درجة أنه كان من الممكن أن يقبل بها من لم يسبق له الالتحاق بمدارس الحكومة · ويكفى أن يكون ملماً بقليل من اللغة الانجليزية أو الفرنسية ، ومبادىء الجغرافيا والحساب والهندسة · بل انه عندما عجزت هـــذه المدرسة عن تخريج الضباط اللازمين للجيش ، أعلنت وزارة الحربية ذات مرة عن حاجتها الى ضباط ، كانت لا تشترط فى المتقدمين للامتحان معرفتهم للمواد الحربية · وفى هذا أبلغ دلالة على المستوى الذى انحدر اليه ضباط الجيش المصرى فى عهد الاحتلال !

كذلك ألغيت المـــدارس البحـرية ، وأقفلت الترســانة البحـرية بالاسكندرية ، وبيعت البوارج الحربية والسفن التجارية ، وكان عددها ١٢ سفينة · ولم يستبق منها سوى « المحروسة » ، التى جعلت يختا خاصا للخديو · وألغى الحوضان العائمان لاصـــلاح السفن فى كل من الاسكندرية والسويس ، وما يتبعهما من معامل بحرية ، وأدوات وعدد وآلات · وأتبعت ترسانة بولاق وزارة الأشـــغال ، وبيعت الســـفن النيلية الى شركة كوك الانجليزية · وفى عهد عباس بيعت بواخر البوستة الخديوية الى شركة انجليزية أخرى ، بأبخس الأثمان ·

بذلك ألغيت البحرية التجـارية ، كما ألغيت البحرية الحربيـة ،

---

(١) قارن هذا بما وصلت اليه ميزانية التعليم فى عهد الثورة فقد اربت الميزانية اليوم عن ٦٥ مليونا من الجنيهات · فشتان بين عهد الاحتلال وعهد الاستقلال أو بين عهد الجهل وعهد النور ·

وفقدت مصر أسطولها بجرة قلم ، وبضربة واحدة من ضربات الاحتلال الانجليزى ، لأنه كان يرى عدم ضرورتها لمصر ، امعانا فى اضعافها وقص أجنحتها ، واعادتها دولة ضعيفة ، فى ذيل الدول ، كما لو كانت قد انهزمت فى ميدان القتال ، مثل ما فعلت انجلترة وحليفاتها مع ألمانيا بعد الحرب الأوربية الأولى ، حيث قضوا على الجيش الألمانى قضاء ظنوه مبرما ، ولكنه ما لبث ان عاد أقوى مما كان ، ليشن عليهم حربا أوربية ثانية ٠

وهكذا يبرهن الاستعمار كل يوم على أنه قصير النظر ، قليل الخبرة بطبائع الشعوب ، وقواها الكامنة ، برغم ما يدعيه من ذكاء ومهارة، وسعة حيلة ، وبرغم مايمتلكه من قوة وجبروت ٠ فاذا ما دقت الساعة ، وأزفت الآزفة ، هبت الشعوب من غفوتها ، وانهارت فوق رأسه كل آماله، وانهدمت جميع مخططاته ، وذهبت أمانيه أدراج الرياح ٠

مشروعات ظاهرها زيادة الثروة ، وباطنها حفظ حقوق الدائنين :

لا يزال بعض الرجعيين والنفعيين وقصيرى النظر ، يشيدون بأعمال الاحتلال ، ويترحمون على أيامه ٠ وليس ذلك غريبا ، فقد سبق لنا القول أن أساس سياسة الاستعمار ، التفرقة بين طبقات الأمة ، واختصاص فريق ببعض المزايا ، على حساب الشعب ، لكى يكون عونا له وسندا ، فى تنفيذ أغراضه ألاستعمارية ٠ لذلك كان طبيعيا أن يطرى هذا الفريق، الذى كانت له الحظوة عند المحتلين ، أعمال الانجليز ، ويمتدح عهدهم المشئوم ، ويثنى على سلطانهم الزائل ٠

اننا لا ننكر أن اصلاحات تمت فى عهد الاحتلال ٠ ولكن هل قصد بتلك الاصلاحات خير مصر ، ونفع أبنائها ؟ لم يقصدوا ذلك على الاطلاق ٠ فما كان يدور برءوس الانجليز ، وهم يقومون بتلك الاصلاحات ، أن يعم الخير وادى النيل ، وأن يرتع أبناؤه فى بحبوحة من العز والرفاهية ، والا فيكون الاستعمار حينئذ قد فقد وعيه ، وخرج على تعاليمه وتقاليده ، التى تضمنها قاموسه ، وانحرف عن طريق الشر الى طريق الخير ، الذى لا يخطر له على بال !

ومثل المستعمر عندما يقوم بالاصلاح فى بلد ما ، مثل من يملك بقرة ٠ فهو يعمل جاهدا لتسمن بقرته ، ويقوى جسمها ، ويكثر شحمها، لتتضاعف كمية اللبن الذى يستولى عليه ، وليحصل على أكبر قدر من اللحم والشحم عندما يعمل السكين فى رقبتها ٠ أو كمستأجر الأرض ،

الذى ينشىء فيها المساقى والمصارف ، ويتعهدها بمختلف أنواع الأسمدة، لا حبا فى تقوية الأرض ، وتحسين حالها ، وانما ذلك للسعى وراء الافادة منها ، وجنى محصول أوفر ، وزرع أينع • وهو فى الواقع ينهكها • واذا ماتركها فانما يتركها قاعا صفصفا •

ثم نكرر هنا ما سبق أن قلناه ، وهو أن الانجليز احتلوا مصر فى غفلة من دول أوربا ، ومركزهم فيها لا يستند الى حق أو قانون • ولذا كان همهم الأكبر ارضاء تلك الدول ، واظهار الغيرة على حفظ حقوق رعاياها فى الديون التى لها على مصر ، وزيادة موارد البلاد ، حتى يمكن تسديد تلك الديون تباعا ، وبلا ابطاء •

لذلك كان أول ما أولوه اهتمامهم تحسين حالة المالية ، وضبط الدخل والمنصرف ، والاهتمام بشئون الرى • وأهم ما قاموا به فى هذه الناحية بناء خزان أسوان ، والاهتمام بالزراعة ، خصوصا زراعة القطن ، الذى أصبح أساس صناعة الغزل والنسج فى مصانع لنكشير • وبعبارة أخرى صارت مصر مزرعة القطن الأساسية لمصانع لنكشير ، تشتريه من مصر بأبخس الأثمان ، وترده اليها منسوجا بأغلى الأثمان وأفدحها فأصبحت مصر بذلك سوقا رائجة للمنتجات الانجليزية • لهذا ابتدعوا أكذوبتهم التاريخية ، وهى أن مصر لا يمكن الا أن تكون بلدا زراعيا ، ولا يمكن أن تقوم للصناعة فيها قائمة ، لافتقارها لمقومات الصناعة ! وظلوا يرددون هذه الأكذوبة ، ولقد سجلوها فى الكتب المدرسية ، حتى تصبح حقيقة راسخة فى عقول التلاميذ ، وعقيدة ثابتة فى نفوسهم ، لا يتحولون عنها فى حاضرهم وفى مستقبلهم •

ولست أدرى ماذا هم قائلون اليوم ، وقد انتشرت الصناعة فى مصر انتشارا جارفا ، واستغنت عن كل ماكان يرد اليها من الصناعات الأجنبية، وأصبحت المنسوجات القطنية المصرية بصفة خاصة مضرب المثل ، فى الدقة والاتقان والجمال ، وغزت جميع أسواق أوربا وأمريكا ، بل واقتحمت انجلترة نفسها ، وحلت محل المنسوجات الانجليزية ، وتهافت على شرائها الأوربيون والأمريكان بشكل منقطع النظير ؟

هذا بالاضافة الى جميع دول الشرق العربى ، ودول آسيا وافريقية، التى تشترى كل حاجاتها من المنتجات المصرية ، وفى مقدمتها المنسوجات القطنية • الا فليخسأ الاستعمار ، وليخجل الانجليز ، ان كان قد بقى فى وجوههم قطرة من حياء •

الاقتصـاد المصرى :

ورب قائل يقول : الم تتحسن مالية مصر ؟ أو لم تكثر مواردها ، وينتظم اقتصادها ؟

ونحن نجيب عن ذلك بالايجـاب • ولكننـا نسال بدورنا هـذا السؤال : هل أفاد المصريون الفائدة المرجوة من كل ذلك ؟ نتولى نحن الاجابة عن هذا السؤال قائلين :

لم تعد على المصريين فائدة بقدر ما عادت على المستعمرين وجيش الاحتلال وأصحاب الديون ، ليس فى ذلك أقل شك أو أدنى مبالغة • فنصف الميزانية كان يذهب الى جيوب الدائنين الدوليين(١) • وما يتبقى منها ينفق على المشروعات الاصلاحية ، التى كانت تتطلبها البلاد • وهذه كان يضن الانجليز بها ، ولا ينفذون منها الا ما كانت تحتمه الضرورة القصوى ، وفيه فائدة محققة لهم •

فالجيش قد أنقص عدده ، وانحط قدره ، والمدارس قد أغلق أكثرها، والتلاميذ يدفعون نفقات التعليم فى جميع درجاته • والأسطول البحرى والتجارى قد قضى عليهما ، وبيعت جميع السفن وما يتبعها من ورش ومعامل وأحواض عائمة وغير ذلك • وأغلب الصناعات التى كانت قائمة فى مصر قبل الاحتلال اختفت تماما ، وأصبح لا وجود لها ، لأن الانجليز كانوا لايطيقون أن تقوم صناعة فى مصر ، لذلك شنوا عليها حرب ابادة، فأصبح كل شىء يستورد من الخارج • وحتى القليل الذى تبقى من تلك الصناعات عزف عنـه المصريون ، وأصبحوا يلحون فى طلب المنتجـات (شغل بره) أى صنع الخارج • لأن المحتلين أدخلوا فى روعهم أن الصناعة الأجنبية ، وخصوصا الانجليزية منها ، أفضل بكثير من الصناعة المحلية • ولو أن الصناعة المحلية وجدت من يحميها من الصناعة الأجنبية ، ومن يعمل على ترقيتها واعلاء شأنها لبزت من غير شك أية صناعة أجنبية • وشاهدنا على ذلك جميع المنتجات ، التى تخرجها المصانع المصرية فى الوقت الحاضر ، كصناعة المنسوجات بمختلف أنواعها ، وصناعة الأحذية ، وصناعة الأدوات المنزلية ، والسيارات ولوازمها ، من اطارات وبطاريات وخلافه ، مما لا يتسع المقام لحصره •

وبجانب الدين العام ، تكدست الديون على الأهالى ، وأصبحت أغلب

---

(١) راجع كتاب مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ص٢٠٩، ٢١٣ •

أراضى مصر مرهونة لدى بنوك التسليف ، ولدى المرابين ، الذين انتشروا فى ريف مصر ، انتشار الجراد ، حتى لقد قيل انك لا ترفع حجرا فى ريف مصر الا تجد تحته مرابيا ، يزينون للفلاح الاقتراض بالربا الفاحش ، وينصبون له الشباك ، ويستعملون لذلك أدنا الوسائل وأحطها ، يحتمون بنفوذ الاحتلال ، وسيف المحاكم المختلطة وجبروتها : وفى مقدمة وسائلهم نشر الخمور ، ولعب الميسر· فما كنت تجد قرية تخلو من واحد من هؤلاء · يهبط عليها أول أمره ، مرقع الثياب ، لا يملك شروى نقير · فما يلبث أن يبنى له (كوشكا) ، يجمع فيه قليلا من المأكولات : من جبن وزيتون وخبز ، ومن زجاجات الخمر المفعمة بالكحول ، فيقبل عليه الفلاحون بسذاجتهم وقلوبهم الطيبة ، فيبتز أموالهم · وبعد أن يتجمع له رصيد معقول من المال ، يبدأ فى اقراضهم ، بضمان أراضيهم ، فيرهنها سهما سهما ، وقيراطا قيرطا ، ولا تمضى بضع سنوات الا ويصبح (الخواجة) وقد رهن أغلب أرض القرية · ولا يلبث أن ينزع ملكيتها ، لعجز أصحابها عن تسديد ديونهم ·

هذا بالاضافة الى بنوك الرهن العقارية والتسليف ، فقد وضعت هذه أيديها على أراضى كثير من أغنياء الفلاحين ، الذين انغمسوا فى الديون ، التى دفعهم اليها حب التظاهر ، والبذخ والاسراف ، وعيشة الترف ، والعكوف على الملاذ والملاهى ، وكلها آفات لم يكن للمصريين بها عهد قبل أن يطأ الانجليز أرضها ، ويجثموا على أنفاس أهلها · وهى من أدوات الأستعمار ، التى يستعملها فى القضاء على كيان المجتمع ، وهد أجسام الأفراد ، وهدم أعصابهم ، بالاضافة الى سلب أموالهم ، ودفعهم الى هاوية الدمار والخراب !

والخلاصة أن الاقتصاد المصرى كان موزعا بين الدائنين الدوليين ، وبنوك التسليف والمرابين : فبينما كان الأولون يستولون على نصف ميزانية الدولة ، كان الآخرون يضعون أيديهم على أراضى الفلاحين ، اما بالرهن ، أو الامتلاك عن طريق نزع الملكية ، حتى قدر أن ثلاثة أخماس الأراضى المصرية يملكها الأجانب ، ملكا أو رهنا ، فاصبحوا والحالة هذه ملاكا لها · على حين أصبح الفلاحون أجراء وعبيدا ، يعملون لمصلحة هؤلاء المرابين ·

أما التجارة الخارجية ، بل وكثير من التجارة الداخلية ، فقد كانت تسيطر عليها الشركات الاجنبية ، التى تضاعف عددها ، وكثرت أموالها، بقدوم الانجليز الى مصر ، ورسوخ أقدامهم فيها ، وبسط حمايتهم على تلك الشركات ٠

ولا يغيبن عن الذهن أن أموال تلك الشركات وأرباحها ، معفاة من الضرائب ، اذ تحول الامتيازات الأجنبية دون تحصيل أية ضرائب عليها ، وتعود أمـوال تلك الشركات وأرباحها الفاحشـة فى النهاية الى الدول التابعة لها تلك الشركات ، فهى كالديون الأجنبية ، سواء بسواء !

(٩)

السير أفلن بارنج أو اللورد كرومر

اللورد الطاغية :

كان لا بد لانجلترة من أن تعهد لعميد من عمد الاستعمار ، بمهمة تنفيذ مقترحات اللورد دوفرين فى مصر ، وتوجيه الامور فيهـــا الوجهة الاستعمارية التى تنشدها • وأن يخطو بها خطوات وئيدة نحو تحويلها الى مستعمرة بريطانية ، تنضم الى بقية المستعمرات الانجليزية •

فعهدت بهذه المهمة فى ٣٠ من مايو عام ١٨٨٣ الى السير افلن بارنج، العضو الانجليزى فى صندوق الدين ، والذى منح لقب لورد بعد ذلك ، فصار معروفا باسم اللورد كرومر •

وقد وجدت فيه مصر استعمــــاريا كبيرا ، وطاغية عتيدا ، ساس البلاد ثلاثة وعشرين عاما سياسة استعمارية خالصة ، حتى لقد ظن فى أواخر عهده ، أن مصر قد أمحت شخصيتها تماما ، وأوشكت ان تصبح مستعمرة انجليزية بكل معانى الكلمة !

ولقد أصبح كرومر صاحب الحول والطول فى البلاد ، تتضاءل بجانبه أية سلطة أخرى ، لايبرم أمر الا باذنه• وأصبح الآمر الناهى، الذى لايخشى الناس أحدا سواه • ولا يلتمسون المعونة من أحد غيره • لذلك أصبحت داره ـ قصر الدوبارة ـ مقصد المصريين ، خصوصا الاقطاعيين والمستغلين ، يسعون للزلفى اليه ، والتقرب منه ، لقضاء حوائجهم غير المشروعة ، وكيد بعضهم لبعض ، على حساب مصلحة الشعب ، وهدم للتقديرات القومية ، وتجاهل للروح الوطنية •

وهكذا كان اللورد الطاغية ، فضلا عن جهوده الجبارة ، فى تثبيت قدم دولته فى مصر ، ووضع أسس الحماية الانجليزية بها ، وسيلة من

وسائل افساد اخلاق أهلها ، وخراب ذمم أعيانها ، وكبار الملاك فيها ، والتفرقة بين طبقاتها ، واضعاف الروح القومية فيهم ، والاقلال من هيبة السلطة الشرعية فيها • بل قل محوها محوا تاما : فقد كان فى واقع الأمر ملكا غير متوج ، ووزراؤه الحقيقيون المستشارون وكبار الموظفين الانجليز ، الذين حشدهم حشدا فى جميع وزارات الحكومة ومصالحها • ومن هؤلاء وعلى رأسهم كرومر كانت تتكون السلطة الفعلية التنفيذية ، التى تحكم البلاد ، وتسير دفة الامور فيها ، وتتضاءل بجانبها السلطة الشرعية ، سلطة الوزراء المصريين وعلى رأسهم الخديو ، حاكم البلاد الشرعى •

حشد الانجليز فى وظائف الحكومة :

وبالتدريج أصبح لكل وزارة من الوزارات مستشار انجليزى ، للمالية ، والمعارف ، والحقانية (وزارة العدل) والاشغال ، والداخلية • بل انه أصبح لكل من وزارتى الاشغال والداخلية وكلاء من الانجليز ، ومفتشون يجوبون جميع أنحاء البلاد ، وكانوا هم الحكام الحقيقيين للأقاليم !

وهكذا أصبح مفتشو الرى من الانجليز أيضا ، وهؤلاء الذين كانوا لايرعون فى توزيع المياه الا ولا ذمة ، وانما كان أساس عملهم المحسوبية ، وقبول الهدايا والرشوة ، من الاقطاعيين والمستغلين ، لتوفير مياه الرى لأراضيهم ، وحرمان صغار الزارعين ، الذين لا حول لهم ولا قوة •

كذلك عين أحد الانجليز نائبا عموميا لدى المحاكم الاهلية ، وظل الأمر يتفاقم حتى عين كثير من الانجليز فى مناصب القضاة والمستشارين فى المحاكم الاهلية • واستمر الزحف الانجليزى على جميع الوظائف الكبرى ، حتى لم تعد وظيفة من تلك الوظائف الا شغلها انجليزى ، من ذلك :

وظيفة المدير العام لحسابات الحكومة فقد أسندت الى الفريد ملنر فى نوفمبر عام ١٨٨٩ ، هذا الذى أصبح فيما بعد اللورد ملنر ، وقلد وزارة المستعمرات فى الوزارة البريطانية ، وكان من كبار الاستعماريين الانجليز •

ووظيفة المراقب العام للأموال المقررة ، فقد أسندت الى الدون

غورست عام ١٨٩٠ ، وهو الذى صار فيما بعد السير الدون غورست ، وأصبح معتمدا بريطانيا ، خلفا للورد كرومر (١) ٠

وعين أيضا مديرون من الانجليز لكل من مصلحة الجمارك ، ومصلحة المساحة ، وميناء الاسكندرية ، والفنارات ٠ وذكرنا قبل الآن استيلاء الانجليز على جميع الوظائف الرئيسية في وزارة المعارف ، وحشد جيش من المدرسين الانجليز فى مدارس الحكومة ، وتغلغلهم فى وظائف الجيش والبوليس الكبرى ٠ ولقد استمر هذا التغلغل حتى وصـل الى الرتب الدنيا ٠ ولو استطاعوا أن يستولوا على وظائف الجنود ، لفعلوا ذلك ، دون أدنى تأخير ٠ ولكن هى الغطرسة الانجليزية، التى كانت تحول دون ذلك٠

النصائح الانجليزية :

ولقد وضع الانجليز فى مستهل احتلالهم لمصر ، دستورا يسـير بمقتضاه الحكم ، ويحدد العلاقة بين الوزارة المصرية وبين سلطات الاحتلال وقد تضـمن هذا الدستور تلغرافان للورد جرانفيـل ، وزير خارجيـة انجلتره :

أحدهما مؤرخ فى ٣ من يناير عام ١٨٨٣ ، وقد وجهـه الى الدول الأوروبية :

والآخر مؤرخ فى ٤ من ينـاير عام ١٨٨٤ ، وقـد وجهه الى اللورد كرومر ٠

وخلاصة هذين التلغرافين أن ما توجهه انجلتره الى الخديو وحكومته من (النصائح) يجب تنفيذها بلاتوان ٠ وأن من يقف فى سبيل تنفيذها يقال من وظيفته ، حتى ولو كان وزيرا ، فيستبدل به غيره فى الحال ٠

وهذا يفسر بجلاء كلمة (نصائح) التى وردت فى هذين التلغرافين فهى ليست نصائح بالمعنى المفهوم ، والا لم يجبر الوزراء على تنفيذها واتباعها ٠ فمتى كانت النصيحة واجبة الاتباع ! ويعاقب مخالفها بالاقالة ولو كان وزيرا ! لاتكون كذلك الا اذا خرجت عن مفهومها الى كلمة (أمر) أو (قانون) واجب التنفيذ ! وكل ما هنالك أن انجلترة لم ترد الافصاح عن ذلك ، لأن مركزها القانونى فى مصر لا يبيح لها املاء ارادتها ، واصدار

(١) انظر كتاب مصر والسودان فى أوائل الاحتلال البريطانى للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ١٧٦ ـ ١٩٦ ٠

أوامرها ، الى حكومة لاتدين لها بالتبعية ،ولا يربطها بها أى رباط قانونى أو شرعى ٠

فمركز انجلتره فى مصر مركز المغتصب ، المعتدى ٠ وليس لمغتصب أو معتد على المعتدى عليه أية طاعة أو ولاء ! لهذا انتحلت كلمة نصائح لتبرر جرائر أفعالها وأعمالها ٠ وحيث أن المعتمد البريطانى ، اللورد كرومر ، أو غيره ، هو مبلغ هذه النصائح ، والآمر بها ، فقد أصبحت كلمته والحالة هذه ، هى الكلمة العليا ، أو القانون الذى لا مرد له ٠ ولا منـــاص عن تنفيذه ، فورا وبلا ابطاء ، رضى الخديو وحكومته ، أم لم يرضوا ٠

والغريب أن هذه النصائح كانت تلقى كل عناية ، وكل ترحيب ، من الحـــكام والوزراء ، والمتـكالبين على الوزارة والمناصب العليـــا ٠ ولو أن اجماعا حدث من هؤلاء على رفض تلك النصائح ، وعدم الرضوخ لأوامر الانجليز ، لتعرقلت سياستهم ، وتزعزع مركزهم ، وانتهى الأمر بجلائهم ، كما حدث عندما اضربت البـــلاد جميعها عن لقاء لجنة ملنر ، التى جاءت الى مصر فى أعقاب ثورة ١٩١٩ م ، واضرب جميع السياسيين عن تولى الوزارة ٠ فاضطرت لجنة ملنر الى العودة بخفى حنين ، وذكرت فى تقريرها أن الحماية علاقة غير مرضية ، وأنه يجب البحث عن علاقة أخرى ، يرضى عنها المصريون ٠

ولم يخرج من الوزراء المصريين المتعاقبين فى أوائل عهد الاحتلال ، على النصائح الانجليزية سوى محمد شريف باشا ، الذى عندما (نصحه) الانجليز بالموافقة على اخلاء السودان ، رفض ذلك رفضا باتا ، وقال كلمته المأثورة «أننا اذا تركنا السودان ، فان السودان لا يتركنا» ، واستقال من الوزارة فى يناير عام ١٨٨٤ ، فكان فى عمله هذا مثلا كريمـــا للوطنية والكرامة ، والعزة القومية ، والشـــجاعة الادبية ٠ ولكن مع الأســف لم يحذ حذوه أحد ٠

نوبار باشا :

وقبل الوزارة من بعده نوبار باشا ، على أساس قبول النصـــائح الانجليزية ، والعمل بها :

فوافق على انسحاب الجيش المصرى من الســودان ، ومكن للانجليز فى مصر ما استطاع الى ذلك سبيلا ، تقربا اليهم ، واستمساكا ببقائه فى كرسى الوزارة ٠ ولا غرابة فى ذلك ، فنوبار أجنبى ، لم يشعر قط بشعور

المصريين ، ولم يرع يوما ما صالح البلاد التي آوته ، وأحسنت اليه • انما كان يرعى مصلحته الخاصة ، ومصالح أبناء جلدته ، دون سواهم •

ومع ذلك فعندما استوفى الانجليز جميع رغباتهم فى عهده ، لفظوه لفظ النواة ، كعادتهم مع كل خائن أثيم ، وتركوا الخديو يقيله من الوزارة، ويطرده شر طردة ، فى يونيه عام ١٨٨٨ م ، فخلفه رياض باشا ، ولكنه استقال فى مايو عام ١٨٩١ ، فخلفه مصطفى فهمى باشا ، فكان مطيـة ذلولا للانجليز ، نالوا فى عهده ما لم ينالوه فى أى عهد مضى • ولم يكن ينفذ نصائحهم ، بل أوامرهم فحسب ، بل انه كان يقاسـمهم عواطفهم ومشاعرهم ، حتى قال عنه ملنر « ان اختيار اللورد كرومر قد وقع على مصطفى فهمى باشا ، الوزير الذى كانت تنشده انجلترا • وقد ظل فى الوزارة حتى وفاة توفيق فى يناير عام ١٨٩٢ م ، ثم تولاها فى عهد الخديو عباس ، الى أن استقال فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، وكانت الحركة الوطنية قد اشتد ساعدها ، واشتعلت نيرانها ، وبدأت تهز كيان الاحتـلال هزا عنيفا ، بفضل الزعيم الوطنى الشاب ، ، مصطفى كامل •

لذلك لم يكن غريبا ان يحكم مصر ، طوال الثلاثة والعشرين عاما الأولى من الاحتـــلال الانجليزى ، طاغية مستبد كاللورد كرومر ، وبيده سيف (النصائح) ، يشهره فى وجه حكامها ، ويلوح به كلما اقتضى الامر ، تسانده دولته ، ويؤيده جيش الاحتلال • فمن يرفع عقيرته فمآله الطرد والاقصاء ، اذا كان موظفا ، مهما كانت درجته ، أو السجن والنفى والتشريد ، اذا كان غير موظف !

أما من رضى واستسلم ، وسبح بحمد الاحتلال والمحتلين ، فله عندهم الحظوة ، ولن يعدم أن ينال شيئا من فتات موائدهم ، وبعض الامتيازات ، والمنافع المادية ، على حساب الغير !

الصحافة المصرية :

والصحف التى من أولى وظائفها نقد أعمال الحكومات ، واظهار الرأى العام على بواطن الامور ، وبث الروح الوطنى فى نفوس الشعب ، وتنبيهه الى حقوقه وواجباته ، هذه الصحف قد تجاهلت رسالتهـــا ، خوفا على حياتها من أن يعصف بها جبروت اللورد ، وعلى حياة أصحابها من أن يلقى بهم فى غياهب السجون ، أو أن ينفوا خارج البـلاد • وكانت أية مقالة يرى الاحتلال فيها تعريضا به ، أو نقدا لأعماله ، من قريب أو من بعيد ،

كافية لتعطيل الجريدة التى صدر بها المقال ، واغلاق مطبعتها ، وتشريد عمالها ، وحبس صاحبها ، بلا أدنى مناقشة أو جدال •

ولم تستطع نقد أعمـال الاحتـلال ، ولوم المنطوين تحت لوائه من حكام مصر والمستضعفين والخانعين ، سوى جريدة العروة الوثقى ، التى كان يحررها الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الافغانى • ومع أن هذه الجريدة كانت تطبع فى باريس ، فقد حرمت سلطات الاحتلال دخولها مصر ، وفرضت غرامة قدرها خمسة جنيهات على من يضبط فى حوزته عدد من أعدادها •

هكذا كانت تسير الأمور فى مصر فى عهد الاحتلال : الوزراء والحكام مستسلمون كل الاستسلام ، ولا يجرؤ أحد منهم ، مهما علت مكانته ، على عصيان أوامر سلطات الاحتلال ، بل الكل يتسابقون فى تنفيذ أوامره • وأعضاء المجلسين ، مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، ليس لدى أحد منهم الشجاعة الادبية ، لنقد القوانين الجائرة ، والأعمال الاستبدادية، التى كانت تنفذ رغم ارادة الشعب ، ودون مراعاة لصالحه •

والصحافة مكممة لا تفوه بكلمة ضد سياسة الاحتلال • وهى تراعى فى ذلك صالحها الخاص ، وتخشى أن يبطش بها المحتلون • ولذلك سلس قيادها ، وكانت تسير فى ركب النفاق والمداورة والخداع •

والشعب يرى كل ذلك عن قرب • فكان يؤمن بأنه ليس فى الامكان أحسن مما كان • وخيل اليه أن الاحتلال باق الى الابد • وأنه ما دام أولو الأمر ، والقادة ، وأهل الرأى ، يسبحون بحمد الاحتلال بكرة وأصيلا ، فلا معدى له عن الاقتداء بهم ، والنسج على منوالهم • والخير كل الخير فى أن يرضى بالواقـع ، ويستسلم للقـدر ، الى أن يقضى الله أمـرا كان مكتوبا !

والحقيقة أن هذه الحال لم تكن تدعو الى كثير من الغـرابة ، لان الانجليز كبلوا البلاد بالسـلاسل والاغلال ، من كل ناحية ، واحكموا وثاقها ، ولم يتركوا لها متنفسا تتنفس فيه ريح الحرية • وكان اللورد كرومر بمثابة السجان الاكبر ، أو السفاح الأعظم • وهـو وأعوانه من الانجليز ، واتباعه من الخـونة المصريين ، كانوا يحيطون المصريين بعين ساهرة ، لايغمض لهم جفن ، ترقب حركاتهم وسكناتهم ، فاذا بدت منهم أية حركة للعصيان ، أو أية بادرة لشق عصا الطاعة ، قوبلت بالضربات الموجعة ، والمقاومة الساحقة !

مصطفى كامل ومحمد فريد :

وكل ما كانت تفتقر اليه البلاد ، زعامة قوية ، تطارد روح الذلة والمسكنة ، التى سادتها وتفشت بين أبنائها ، وتدفع عوامل اليأس والقنوط ، التى استولت على البلاد ، وتقضى على الرجعية ، وأعوان الهزيمة والمرتزقة الذين اعتمد عليهم المحتلون فى بث روح الاستكانة والاستسلام، لقاء ماكانوا ينالونه من رضا الانجليز وحمايتهم ٠

وقد ظهرت هذه الزعامة وتمثلت فى شاب مناضل مكافح ، أشربت نفسه حب مصر ، وشب على كره الانجليز ومقت استبدادهم وطغيانهم ٠ فأخذ على نفسه زلزلة أقدامهم ، وزعزعة كيانهم ، بالرغم مما كبلوا به البلاد من قيود وأغلال ، ذلكم الشاب هو مصطفى كامل ، وخليفته محمد فريد ٠

ولقد كانت حادثة دنشواى ، وما ارتكبه فيها الانجليز من جرائم ، أول مسمار دق فى نعش الاحتلال ٠ ولم تشفع ثلاثة وعشرون عاما قضاها اللورد كرومر فى تثبيت قدم الاحتلال ، عن اقصائه ، وهدم صرح شهرته بعد أن كشف مصطفى كامل للعالم فى خطبه التى القاها فى عواصم البلاد الاوربية ، وفى انجلتره نفسها، عن جبروته وطغيانه، وفضح سياسة الظلم والجبروت ، التى أثقل بها كاهل المصريين ما يقرب من ربع قرن ٠ فلم تجد انجلترا بدا من اقالته ، بعد أن انفضح أمرها ، وتكشفت للعالم نواياها فى مصر ، فى عام ١٩٠٧ ، وعينت مكانه السير الدون غورست ٠

والخلاصة أن اللورد كرومر ، من غير شك ، هو الذى ثبت دعائم الاحتلال وأرسى قواعده ، لكى يكون أبديا ، وكان يراجع ساسة الانجليز فى كل ما كانوا يفرطون به من وعود بقرب الجلاء عن مصر ، ويوعز اليهم بالاطمئنان الى البقاء فيها أبد الآبدين ، دون الاهتمام بما كان يبدو ، بين آن وآخر ، من بعض الدول الاوروبية ، من عرقلة السياسة الانجليزية تجاه الاحتلال ٠

الاتفاق الودى :

وكان أكثر هذه الدول عملا على مناوأة الانجليز هى فرنسا ، التى سرعان ما باركت الاحتلال ، وتركت لانجلترة حرية العمل فى مصر ، بعد الاتفاق الودى المعقود بينهما عام ١٩٠٤ ٠ وفى نظير ذلك اطلقت انجلترة لفرنسا يدها فى بلاد المغرب ، وبذلك ازداد كرومر اطمئنانا على بقاء انجلترا فى مصر ، وحرية فى أن يعمل فيها ماشاء ، دون رقيب أو

حسيب • وعظمت همته فى أن يخطو بها خطوات حثيثة نحو اليوم الذى تصبح فيه مستعمرة انجليزية ، ضمن الدائرة المرنة ، التى لا تغيب عنها الشمس ! وتقدرون فتضحك الاقدار ! •

سرقة نصف السودان :

ولا يغيب عن الذهن أن كرومر كان الموعز لانجلترا باصدار أوامرها الى الحكومة المصرية ، بسحب الجيش المصرى من السودان • ثم اعادة فتحه بمساعدة انجلترة وكان يقصد من وراء هذه المؤامرة الكبرى ، اغتصاب نصف السودان • وقد تحقق ذلك فعلا فى معاهدة ١٨٩٩م ، التى أجبر حكومة مصر على توقيعها ، خلسة وفى غفلة من شعبها ، بل ومن دول العالم أجمع ، وبمقتضاها أصبح السودان شركة بين مصر وانجلترا ، أو بعبارة أدق سرقت انجلترا بمقتضاها نصف السودان ، وأوجدت لنفسها فيه مركزا شرعيا ، تستطيع به تحويله هو الآخر الى مستعمرة انجليزية ، فكانت مؤامرة مجرمة ، وسرقة عالمية خطيرة ، لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الحديث ، ولا فى التاريخ القديم !

(١٠)

المؤامرة الانجليزية الكبرى لاحتلال السودان

(الفصل الأول من المؤامرة : اخلاء السودان)

ان مؤامرة الانجليز ، لسلخ السودان عن مصر ، ثم اقتسامه معها ، بحجة المشاركة فى عملية استرجاعه ، لا تقل خسة ولا دناءة عن مؤامرتها لاحتلال مصر واستعمارها .

وانك لا يمكن أن تصدق ، بحال ، أن لصا اقتحم منزلا ، واستولى عليه وعلى ما فيه من متاع ، على مرأى ومسمع من أصحابه ، ومن الناس جميعا ، وأخذ يبدد محتوياته ماشاء له التبديد . وأخيرا ، وتحت الارهاب والوعيد ، اضطر أصحاب المنزل الى توقيع عقد معه ، بأن هذا المنزل شركة بينهم وبينه . وبهذا اغتصب اللص ، بناء على عقد قانونى ، نصف المنزل . ولم يجد أصحابه من دونه نصيرا ولا مجيرا .

انك لا تصدق أن يقع مثل هذا الحادث ، بين فردين أو أكثر ، لمجافاته للقانون ، الذى يحمى صاحب الحق ، ضد المعتدى ، مهما علت مكانته ، وعظمت قوته . ولكن صدق أن هذا الحادث بالضبط ، قد وقع لمصر مع الانجليز القراصنة ، على مسمع ومرأى من شعوب العالم ودوله ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم تهب دولة لنصرة مصر ، بل ولم تبد احداها اعتراضا أو احتجاجا على هذه السرقة العلنية العالمية ، لانها جميعا اشتركت مع انجلترا فى عملية السرقة والاغتصاب . فاستولت كل منها على قطعة من الامبراطورية المصرية ، التى كانت تمتد حتى منابع النيل الاستوائية جنوبا .

وعند التعليل لقيام الثورة فى السـودان ، تذكر أسباب كثيرة : منها : عدم اتباع سياسة عادلة فى معاملة السودانيين ، وابطال تجارة

الرقيق ، واحتكار تجارة العاج ، وتشجيع الثورة العرابية لمحمد أحمد المهدى على القيام فى وجه الحكومة ، وانتشار تأثيره الدينى فى جميع أنحاء السودان ، ولكن هناك حقيقة لا يمكن أن تحتمل أى جدل فى أن هناك سببا رئيسيا لاستفحال هذه الثورة ، وهو الخطة التى رسمتها انجلترا ، والتى تهدف الى مشاركة مصر فى ملكية السودان • ووسيلتها فى تنفيذ هذه الخطة ، ترك الثورة تستشرى فى السودان ، حتى تصل الى درجة لا يمكن معها قمعها • وعندئذ تضغط انجلترا على مصر لاخلاء السودان • فتعم الفوضى جميع أرجائه ، ويصبح جموع الثوار مصدر تهديد لمصر وأمنها • وهنا تنصح انجلترا لمصر باستعادة السودان ، وتتعاون معها فى هذا الأمر ، وترتب لنفسها بذلك حق الاشتراك مع مصر فى ملكية السودان بحكم الاشتراك معها فى استعادته !

هذه حقيقة كما قلنا لا تقبل الجدل ، أيدتها الحقائق التاريخية ، والملابسات والظروف التى صحبت هذه العمليات ، وشهد بها المؤرخون والعسكريون المنصفون ، الذين جاهروا بالحقيقة دون خوف أو وجل • ان مئات الألوف من الشهداء ، من الجنود والضباط المصريين ، الذين راحوا ضحية هذه المؤامرة الكبرى ، ليشهدون الله على ما انطوت عليه قلوب الساسة الانجليز ، الذين دبروا هذه المؤامرة ، وعلى رأسهم اللورد كرومر ، من خسة ودناءة ، وقسوة وبشاعة ، ومكر وخداع لم يسبق لها مثيل •

وان المرء ليعجب كيف استنام حكام مصر فى ذلك العهد ؟ وكيف أنهم عاونوا على تنفيذ هذه المؤامرة الدنيئة ، التى لم يكن يختلف اثنان فى نتائجها ومرماها ، وظهور نيات الانجليز ومكرهم ظهورا جليا فى العمل على اقتسام السودان مع مصر ، وبشاعة الوسيلة التى اتخذت لتنفيذ هذه السياسة ، من القضاء على الجيش المصرى فى السودان ، والسماح للفوضى والجوع والمرض بالانتشار فى جميع ربوعه ، والقضاء على الأعمال المجيدة ، التى أنشأتها مصر فى السودان ، خلال ستين عاما مضت ؟

لقد اتفق قيام الثورة فى السودان مع قيام الثورة العرابية فى مصر ، واستهان العرابيون بأمر الثورة فى السودان ، ولم يرسلوا النجدات للجيش المصرى هناك ، كى يقضى على الثورة فى مهدها • حدث كل ذلك حقيقة • ولكن الجيش استطاع أن يحرز كثيرا من الانتصارات

فى أول الثورة ، بقيادة الأميرالاى عبد القادر حلمى • ولو ان هذا القائد استمر فى عمله ، بما أوتيه من كفاية حربية ، واخلاص ، وصدق وطنية ، لأمكنه تحطيم قوة محمد احمد المهدى ، ولم تكن قد استفحلت بعد ، ولحد من انتشار نفوذه • ولكن هذه الانتصارات لم تكن فى صالح الانجليز ، ولم تكن لتوصلهم الى أهدافهم •

لذلك أوعزوا الى الخديو باقالة هذا القائد الشجاع من منصبه ، واستدعائه لمصر ، بالرغم من توالى الالتماسات ، من المصريين والأجانب المقيمين بالسودان ، بترك هذا القائد فى منصبه ، لقدرته وتفانيه ، ولالقائه الرعب فى قلوب الثوار •

ولكن الخديو لم يأبه لكل ذلك ، فالقول عنده ما قال الانجليز ، والرأى ما رأوا ، وما عليه الا الطاعة والاسراع فى التنفيذ • وهكذا كلما احرز قائد مصرى نصرا ، أو ظهرت قدرته فى القضاء على الثوار • سارع الانجليز بالضغط على الحكومة المصرية لتنحيته عن وظيفته ، ونقله الى وظيفة أخرى ، بعيدة عن ميدان القتال ، كما فعلت مع القـــائد سليمان نيازى باشا ، بعد انتصاره فى موقعة المرابيع ، وسحقه الثوار فى ٢٩ من ابريل عام ١٨٨٣ ، فعينه حكمدارا لشرقى السودان وسواحل البحر الأحمر •

وانجلترة فى سبيل تنفيذ مآربها الخسيسة ، لا يهمها الأشخاص ، سواء أكانوا من المصريين أم الانجليز • فهى تقدم الأشخاص وقودا فى سعير أطماعها ، وتسيل الدماء أنهارا على مذبح أغراضها !

ولا أدل على ذلك من مقتل كثير من القواد الانجليز فى ثورة السودان أمثال هكس وغردون وجراهام •

حقيقة كان هؤلاء القواد تنقصهم الكفاية الحربية ، ولم يكونوا أهلا للمهام التى وكلت اليهم ، وكان مقطوعا من بداية الأمر بفشلهم ، ولكنهم كما ســـبق القول قدموا وقودا للأطماع الانجليزية الدنيئة ، والنيات الماكرة الخبيثة •

قال غردون فى يومياته : « كلما فكر الانسان فى فداحة الخسائر فى الأرواح فى السودان منذ عام ١٨٨٠ ، لا يمتنع عن أن يتمنى اعـدام السير أولكن‌كلفن ، والسير أدوارد مالت ، والسير شارلس ديلك ، فان

هؤلاء الثلاثة الذين كانوا مستشارين للحكومة البريطانية فى مسـألة السودان ، هم المسئولون عن هذه الكوارث (١) ٠

وقال الكولونل شايى لونج بك « ان مهمة غردون الحقيقية هى بسط الفوضى والخلل فى السودان ، وأن يسهل على انجلترا الاستحواذ عليه بعد انفصاله عن مصر » (٢) ٠

ويقول ابراهيم فوزى باشا ، وكان زميـلا لغردون « ان مأمورية غردون منحصرة فى هذه السطور ، وهى أن حكومة جـلالة الملكة ، كان غرضها أن يمهد غردون السبيل لوقوع تلك البلاد فى مخالب الفوضى ، وبعبارة أخرى أن يقضى على نفوذ مصر فى تلك الأرجاء » (٣) ٠

ولما استفحلت الثورة فى السودان ، وأوقعت قوات المهدى الهزيمة بالجيش المصرى فى كل مكان ، نظرا لعدم كفاية القواد الانجليز ، الذين كانوا يتولون قيادته ، واقصـاء القواد المصريين الكفاة عنه ، وبذلك انتشر نفوذ المهدى فى أغلب ربوع السودان ، تحقق لانجلترا الفصل الأول من المأساة ، التى قامت بتمثيلها فى السودان ٠ وحان لها تمثيل الفصل الثانى ، وهو العمل على اخلاء السودان من القوات المصرية !

لهذا نصحت الحكومة الانجليزية الحكومة المصرية ، أو بعبارة أصح أمرتها باخلاء السودان ٠ وأبلغ السير افلن بارنج (اللورد كرومر) الخديو توفيق فى ٧ يناير ١٨٨٤ ، ثم « شريف باشا » رئيس وزرائه ، تعليمات الحكومة الانجليزية باخلاء السودان ، فكان رد شريف باشا على ذلك قاطعا جازما بأن مصر لا توافق على اخلاء السودان ، لما فى ذلك من اضرار بمصالح مصر والسودان ، وان ثمت مناطق لم تمتد اليها الثورة ، وأن الحملة التى تعدها ، والمكونة من خمسة عشر ألف جندى ، كفيلة باعادة النظام والاستقرار الى السودان ٠

وعندئذ أرسل اللورد جرأنفيل ، وزير خارجية انجلترة ، تلغرافه المشهور الى اللورد كرومر ، والذى سبقت الاشارة اليه ، وخلاصته أن النصائح التى تقدمها انجلترة الى مصر ، واجبة التنفيذ بدون ابطاء ، ومن

---

(١) عن كتاب مصر والسودان للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ١٢٣ نقلا عن يوميات غردون ص ١٥ ٠

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٢ ٠

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٢ نقلا عن السودان لابراهيم باشا فوزى ، ج ١ ص ٢٩٥ ٠

يعارض فى تنفيذها من الوزراء أو غيرهم ، تجب اقالته ، واحلال غيره محله • فلم يسع «شريف» باشا أمام هذا الاعتداء على كرامة مصر ، وتدخل الانجليز هذا التدخل الشـــائن فى أمورها ، الا الاستقالة ، وقد صرح تصريحه المشهور : « اذا نحن تركنا السودان ، فان السودان لا يتركنا » فكانت أول وآخر استقالة مشرفة ، وقعها وزير مصرى فى عهد الاحتلال •

غردون واخلاء السودان

خلف « شريف » باشا ، نوبار الأرمنى ، على اساس قبول النصائح أو الأوامر الانجليزية • وكان أول عمل قام به ، فور تسلمه الوزارة ، اصداره الأوامر باخلاء السودان ، وسحب الحاميات المصرية ، وكان عدد جنود هذه الحاميات خمسة وعشرين الف جندى •

ومما يثير العجب حقا أن يصدر مجلس الوزراء البريطانى فى ١٨ من يناير عام ١٨٨٤ قرارا يعهد فيه الى الجنرال غردون بمهمة اخلاء السودان، دون استشارة مصر ، أو الرجوع اليها ، قبل اتخاذ هذا القرار ، كما لو كانت انجلترة هى صاحبة الشأن الأول فى السودان ، وتملك التصرف فى شئونه • أو كما لو كانت وصية على مصر ، أو قيمة عليها • مع أن غردون هذا كان قد انتقد بشدة فكرة اخلاء السودان فى مقال نشرته الجرائد الانجليزية فى ١٠ من يناير عام ١٨٨٤ ، وعده ضربا من الجنون ولكن الانجليز كأفراد ، غيرهم كأعضاء فى هيئة الحكومة ، يخلص كل فى تنفيذ سياستها ، مهما تتعارض مع آرائه الشخصية •

حضر غردون الى مصر ، وتلقى التعليمات من اللورد كرومر ، وعينه الخديو توفيق حاكما عاما للسودان ، وسلمه الأمر العالى بذلك فى ٢٦ من يناير عام ١٨٨٤ وغادر القاهرة الى الخرطوم ، فوصلها فى ١٨ من فبراير عام ١٨٨٤ • وانك لتعجب دون شك من السرعة التى نفذ بها قرار اخلاء السودان • ولكن لا يلبث هذا العجب أن يتلاشى ، اذا تذكر المرء الدافع الذى حدا بانجلترة الى الاسراع فى اتخاذه • انه رغبة انجلترة الملحة فى وضع قدمها فى السودان ، واقتسامه مع مصر ، وسنوح فرصة فريدة لتنفيذ هذه الخطة الخبيثة بقيام الثورة فى السودان ، وعدم تمكين مصر من اخمادها •

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فامتلاك السودان ، الذى يتاخم حدود مصر ، والذى فيه منابع النيل ، يفيد الانجليز فوائد خطيرة : فمنه

يستطيعون الوثوب على مصر ، اذا ما حدثتها نفسها يوما بالانقضاض عليهم • هذا بالاضافة الى تحكمهم فى مياه النيل ، شريان الحياة بالنسبة لمصر ، واتيان كثير من المضايقات التى تهدد الرى والزراعة فيها ، كوسيلة من وسائل الضغط عليها •

وأخيرا سيكون مركز انجلترة فى السودان ، أثبت من مركزها فى مصر ، من الناحية الدولية ، لأنهم سيرتبون لأنفسهم حقا شرعيا لوجودهم فيه ، ينشأ عن حق اشتراكهم مع الجيش المصرى فى اعادة فتحه • على حين لا يستمد وجودهم فى مصر ، أى حق من شرع أو قانون •

ولم يكن غردون بالقائد ذى الكفاية للمهمة التى نيطت به ، ولم تكن لديه من الكفاية الحربية ، ولا من قوة الشخصية ، مايكفل له النجاح فى مهمته فقد ارتكب بمجرد وصوله الى الخرطوم عدة اخطاء ، لم يمكنه بعدها المحافظة على مركزه ، بل انه بأخطائه ضاعف من سلطان المهدى ، وقوى من نفوذه ، ومهد له الطريق لفتح الخرطوم ، والقضاء على الحاميات المصرية فيها ، وعلى الموظفين المصريين وعائلاتهم وأولادهم « فأعمل فيهم الثوار السيف ، وقضوا عليهم بلا رحمة ولا شفقة • وقد بلغ عدد ضحايا هذه المجازر نحو ثمانين الف نسمة » (١) •

ولما اتضح له آخر الأمر فشـــل الخطط التى انتهجها ، وتعرض الخرطوم لخطر السقوط فى أيدى الثوار ، طلب النجدة من انجلترة ، التى وضعت أصابعها فى آذانها • ولكنه الح فى طلب النجدة ، وتحت ضغط الرأى العام الانجليزى أرسلت اليه أخيرا حملة لانقاذه ، بقيادة الجنرال ولسلى • ولكنها لم تصل الى قرب الخرطوم الا فى ٢٨ من يناير سنة ١٨٨٥ ، وكانت الخرطوم قد سقطت فى أيدى الثوار ، وقتل غردون ، وأبيدت الحامية جميعها فى ٢٦ من يناير عام ١٨٨٥ •

وقد كان ســـقوط الخرطوم ايذانا بتقلص الحكم المصرى من السودان ، وبلوغ سلطان المهدى أوجه ، ووقوع السودان فريسة للفوضى والاضطراب • واضطرت انجلترة مصر الى اخلاء دنقلة ، وجعل حدودها الجنوبية فى وادى حلفا • وتبع ذلك وقوع عدة مصـــادمات بين القوات المصرية والدراويش ، حيث أوقعت القوات المصرية بها هزائم ساحقة ، وأبلت فيها بلاء عظيما • وأهم تلك المواقع ، واقعة طوشكى ، شمـــالى

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٥ •

وادى حلفا ، فى ٣ من أغسطس عام ١٨٨٩ حيث قتل فيها عبد الرحمن النجومى ، أشهر قواد المهدى ، والساعد الأيمن لعبد الله التعايشى ، خليفة المهدى .

وقد كانت واقعة طوشكي هذه ايذانا بانحلال الدولة المهدية ، وقرب زوالها .

الفصل الثانى

ترك السودان نهبا للفوضى والمجاعة والأمراض ، وانتقاصه من أطرافه ، وتوزيع الاسلاب على الدول الاستعمارية ، التى كانت تناهض انجلترة وتنافسها

توفى محمد أحمد المهدى فى ٢٢ من يونية عام ١٨٨٥ ، وخلفه فى حكم السودان عبد الله التعايشى ، ولم يكن له شىء من المميزات التى كانت للمهدى . كما لم يكن له شىء من تأثيره الدينى . فضلا عن وقوع الخلاف بينه وبين أتباع المهدى . وتقريبه فريقا ، وابعاده فريقا آخر منهم . فكان حكمه ايذانا بانحلال الدولة المهدية .

والواقع أنه فى عهد التعايشى عمت الفوضى جميع أرجاء السودان ، وانتشرت المجـــاعة ، وتفشت الاوبئة ، وفتكت بالأهلين فتكا ذريعا . وقد ذكر سلاطين باشا أن خمسة وسبعين فى المائة من مجموع سكان السودان قد ماتوا فى عهد المهدى والتعايشى ، اما بالحرب ، واما فريسة للأمراض الفتاكة ، وأن ما بقى من سكانه لم يكونوا أحسن حالا وأفضل عيشة من الرقيق . وتبدلت حياة الرفاهية التى كان يعيشها السودانيون قبل الثورة الى حياة بؤس وفاقة . وطمست معالم المدنية والتقدم ، التى شيدتها مصر فى ربوع السودان ، فى أكثر من نصف قرن . فرجع الى عصور الهمجية الأولى ، وتوقفت التجارة ، وسدت مصادر الرزق ، وغاض معين الثروة .

وقد كان كل هذا متوقعا من غير شك ،وكان نتيجة حتمية لخطط الاستعمار ومؤامراته . فهو فى سبيل ادراك غاياته ، وتحقيق أطماعه ، يعرض شعبا بأسره الى الفناء والزوال ، غير مستشعر أية رحمة ، أو اية

عدالة . ومن أين تأتى له الرحمة ، وهو لا قلب له ولا ضمير ، ولا ذمة . ولا يستنكف من أن يبنى مجده على جماجم الشعوب ، وحطام الأمم ، وشقاء الناس وبؤسهم !

والآن وقد انسحبت القوات المصرية من السودان ، وأضحى ذلك معلوما لدى العالم أجمع ، أصبح السودان مسرحا لأطماع الدول الاستعمارية ، تتهافت كل واحدة منها على التهام قطعة منه ، وتتعاون جميعا على الاثم والعدوان ، وعلى رأسها انجلترة ، دولة البغى والاستعباد.

وأخذت تقتسم مع تلك الدول بعض أراضيه ، وتنتقصه من أطرافه، قطعة تلو أخرى ، لكى تكف عن مناهضتها ، واثارة المسألة المصرية ، ومطالبتها بالجلاء : فأقطعت ايطاليا محافظة مصوع وأريتريا . وأقطعت فرنسا تاجور وجيبوتى . وتركت هرر لتستولى عليها الحبشة. واستولت هى على محافظتى زيلع وبربره عام ١٨٨٥ ، ثم على مديرية خط الاستواء عام ١٨٩٣ ، بعد أن أجلت أمين باشا (الدكتور شنيتزر) والحامية المصرية عنها ، بدون أدنى مسوغ ، الا أن تمهد السبيل للاستيلاء عليها وتكوين مستعمرة انجليزية منها ، هى مستعمرة أوغنده ، لكى تصبح مستعمراتها سلسلة متصلة الحلقات تختط افريقية من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ، يدخل ضمن ذلك اقليم السودان بأسره . وقد مهدت لذلك بعقدها معاهدة مع المانيا عام ١٨٩٠ ، ضمنت بها ما تدعيه من حق فى المنابع الاستوائية وأعالى النيل .

حادث فاشودة

واغرب ما حدث فى هذه الاثناء ، حادث فاشودة المشهور : فقد سيرت فرنسا حملة بقيادة الكابتن مرشان ، من غربى افريقية ، فوصل فاشودة فى يوليو عام ١٨٩٨ واحتلها . وكانت فرنسا تهدف من وراء احتلالها ، مد نفوذها من غربى افريقية حتى شرقيها عبر جنوبى السودان. وكاد ينتهى هذا الحادث بوقوع الحرب بين اللصين : انجلتره وفرنسا . وكما يقول المثل السائر «اذا اختلف اللصان ظهر المسروق» ، فلما احتلت فرنسا فاشودة ، سارعت انجلتره بارسال حملة من الف وخمسمائة جندى مصرى ، على رأسها كتشنر ، الى فاشودة . فاحتج كتشنر على هذا الاحتلال ، مثبتا أن فاشودة أرض مصرية ! فاضطر مرشان الى الانسحاب، لضعف القوة التى كانت معه .

والمغزى المستخرج من هذا الحادث ، انه بينما كانت انجلتره توزع أجزاء من الامبراطورية المصرية ، على بعض الدول الاستعمارية ، كما لو كانت هذه الم[illegible] لا مالك لها ، اذا بها تقرر فى حادث فاشودة تبعيتها لمصر ، وعدم أحقية فرنسا فى احتلالها !

فهى والحالة هذه تستعمل سياسة مزدوجة ، وتعمل بسلاح ذى حدين ، فتحرم الحلال تارة ، وتحلل الحرام تارة أخرى • ولا عجب فى ذلك ، فهذه هى سياسة الغاية تبرر الواسطة ، التى يلتزمها المستعمر فى جميع فعاله •

الفصل الثالث

استعادة السودان بجنود مصرية ، وعلى نفقة مصر ، ومع ذلك يفرض الانجليز على مصر اتفاقية ١٨٩٩ م باقتسام السودان

ادعى الانجليز أن الدراويش يهددون حدود مصر الجنوبية• ولذا فانهم أبدوا النصيحة الى مصر باستعادة السودان • والواقع ان الدراويش بعد هزيمتهم فى موقعة طوشكى ، لم يعاودواالاغارة على مصر ، وانما الذى حدا بالانجليز الى اغراء مصر باستعادة السودان ، هو الخطر الذى كان يتهدده من الدول الاستعمارية بعد اخلائه ، وسحب الحاميات المصرية منه، وتركه بدون حكومة تتولى شئونه ، وتدبر أموره ، وتتحمل مسئولية الدفاع عنه أمام الطامعين فى اغتصاب أراضيه • وقد كان حادث فاشودة، ومحاولة فرنسا مد نفوذها من غربى افريقية الى شرقيها عبر السودان الجنوبى ، منبها لانجلتره الى هذا الخطر ، ومحرضا لها على استعادة السودان •

أدركت انجلتره اذن حمق سياستها ، التى أوحت باخلاء السودان، وتعريضه لخطر الاغارة عليه ، والتهام الدول الاستعمارية الاخرى له • وتلافيا للاشتباك مع احداها ، كما كاد يحدث بينها وبين فرنسا ، أوعزت الى مصر عام ١٨٩٦ باستعادة السودان !

وكما صدر الامر باخلاء السودان من لندن ، دون التشاور مع مصر، وأخذ رأيها ، كذلك صدر الامر باستعادته من لندن ، دون التشاور مع مصر ، أو تدبر الامر معها •

واقتصر الامر على أن يبلغ اللورد كرومر الخــديو توفيــق أوامر انجلتره ، وينقل الخديو بدوره هذه الاوامر الى رئيس وزرائه ، مصطفى فهمى باشا ، الذى سارع كعادته الى النزول على أوامر الانجليز، وتنفيذها دون توان ٠

اعداد الحملة :

فحشدت الحكومة المصرية حملة مؤلفــة من سبعة عشر ألف جندى تقريبا ، وعهدت بقيادتها الى كتشنر ، سردار الجيش المصرى ، يعاونه فى قيادتها لفيف من الضباط الانجليز ٠ وأمدت الحملة بجميع المعدات اللازمة لنجاحها٠ وطبعا كان تمويلها وجميع نفقاتها من الخزانة المصرية ، والاموال المصرية ٠ ولم تتحمل انجلتره من نفقاتها مليما واحدا ٠

سير الحملة :

أعدت الحملة فى ١٢ مارس عام ١٨٩٦ ، وسارت الى دنقلة ، ثم أبو حمد ثم « بربر » ، « والعطبرة » ، « وأم درمان » ، « فالخرطوم » التى سقطت فى يد الجيش المصرى فى ٤ من سبتمبر عام ١٨٩٨ ٠

وفى أثناء ذلك كان الجيش المصرى يشــتبك مع الدراويش فى معارك حامية ، كان الجنود يبلون فيها أحسن البلاء ، ويظهرون من القوة والشجاعة ورباطة الجاش ، ما شهد به العالم أجمع ، فضلا عن الأعداء والمستعمرين ٠وقد أظهروا بصفة خاصة صبرا وجلدا ، وقوة احتمال ، فى مد السكة الحديدية التى استعان بها الجيش فى تقدمه عبر صحراء النوبة ، وحفظ بها خطوط مواصلاته مع مصر ، واعتمد عليها فى القضاء على الدراويش ، فى كل موقعة التحم فيها معهم ، وسحق قوتهم ، وابادها ابادة تامة ٠

نية الانجليز نحو امتلاك نصف السودان

ولقد أذهل رجال الحملة ، من جنود وضباط مصريين ، أن يرفع كتشنر على الخرطوم ، غداة فتحهــا ، العلم الانجليزى ، بجوار العلم المصرى ٠ مع أن الحملة ، كما سبق أن ذكرنا ، كانت مؤلفة من قوات مصرية ، وجميع نفقاتها قد خرجت من الخزانة المصرية ، وقائد الحملة اللورد كتشنر (وقد منح لقب لورد أوف خرطوم بعد فتحه المدينة) ومعــاونوه من الضــباط الانجليز ما هم الا موظفون تابعون للحكومة

المصرية ، ويتقاضون رواتبهم من الخزانة المصرية ولا يعملون الا لحساب مصر ومصلحتها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد اعترف كتشنر فى حادثة فاشودة ، أن السودان ملك لمصر . وليس لدولة أن تعتدى على ممتلكات مصر .

كذلك صرح اللورد سالسبورى « أن وادى النيل ، كان ولا يزال ملكا ثابتا لمصر » .

ولكن انجلترة ، كما سبق أن ذكرنا ، لا تعترف بحقوق مصر ، ولا تدافع عنها ، الا اذا تشابكت مصالحها مع مصالح غيرها من دول الاستعمار . أما اذا عرض لها أن تعتدى على حقوق مصر ، وأن تنتهك حرماتها ، فما أيسر أن تتنكر لهذه الحقوق ، وأن تدعى لنفسها ، قوة واقتدارا ، ما ليس حقا لها !

اتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ م

كان رفع العلم الانجليزى ، بجوار العلم المصرى فوق الخرطوم ، منبئا بما كانت تضمره انجلترة حيال السودان ، بعد أن تمت استعادته. فبعد اتمام فتحه مباشرة ، أى فى ١٩ من يناير عام ١٨٩٩ ، قدم اللورد كرومر الى الوزارة المصرية ، اتفاقية من وضع الحكومة الانجليزية ، باشتراك انجلترة فى ادارة السودان ،وتفويض الرياسة العليا، العسكرية والمدنية فى السودان الى موظف واحد ، يكون تعيينه بناء على طلب حكومة جلالة الملكة (ملكة انجلترة) .

ولم يكن تقديم هذا الاتفاق بقصد مناقشته ، وابداء الحكومة المصرية رأيها فيه ، وانما كان تقديمه بقصد التوقيع عليه ، وكانت الوزارة المصرية حينئذ ، برياسة مصطفى فهمى باشا ، وكان وزير الخارجية « بطرس غالى باشا » فوقع وزير الخارجية ، ثم رئيس الوزراء على الاتفاق، دون أدنى تردد أو معارضة . ولم يعلم الرأى العام المصرى بخبر الاتفاقية، الا بعد التوقيع عليها . فكانت مفاجأة مذهلة ، ومؤامرة دنيئة ، وسرقة ضخمة لا مثيل لها .

مسئولية وزارة مصطفى فهمى فى التوقيع على الاتفاقية :

فهذه الاتفاقية وقعتها الوزارة المصرية بالاكراه وبتهديد جيش الاحتلال الرابض فوق أرض مصر ، ووعيد الحكومة الانجليزية ، على

حسب ما ورد فى تلغراف اللورد جرانفيل فى ٣ من يناير عام ١٨٨٤ بان أى وزير لا يخضع لنصائح انجلترة ، يجب أن يتخلى عن وظيفته فورا ٠

ولكن كل ذلك لم يكن ليخلى مسئولية مصطفى فهمى باشا ، وبقية الوزراء أمام الشعب ، وأمام التاريخ : فلقد أثبتوا جميعا افتقارهم الى الشجاعة الأدبية ، والكرامة الوطنية ٠ ووصموا أنفسهم بالذلة والمسكنة، والخضوع والاستسلام الى جبروت الاستعمار والاحتلال ، والتضحية بشرف البلاد وكرامتها ، فى سبيل بقائهم فى كراسى الحكم !

ولقد أبى شريف باشا بكل قوة نصيحة انجلترة لمجرد اخلاء السودان واستقال من الوزارة بكل عزة واباء ٠ ولكن «مصطفى فهمى» ووزراءه ، لم يستشعروا شيئا من تلك الكرامة ، ولم تتحرك فى نفوسهم أية آثار للعزة القومية ٠ ونزلوا على ارادة المحتل دون أى اعتراض ، أو حتى كلمة احتجاج، مما أمد له فى حبل الاغترار فتمادى فى الانتقاص من حقوق مصر، ما شاء له الانتقاص ٠

ولا غرو فقد وجد الانجليز فى مصطفى فهمى ضالتهم المنشودة ٠ وتكرر هنا قول اللورد ملنر عنه : « ان اختيار اللورد كرومر قد وقع على مصطفى فهمى باشا ، الوزير الذى كانت تنشده انجلترا » ٠ وقال عنه أيضا : « انه أول رئيس وزراء يشـــارك الانجليز فى عواطفهم بدون تحفظ » ٠

والحقيقة المؤسفة بلاشك أن مصطفى فهمى كان نكبة وشرا ابتليت به البلاد ، ساعد على تثبيت قدم الاحتلال كما لو كان أحد ساسة الانجليز أو عميدا من عمد الاستعمار !

حادثة دنشواى ـ ١٣ من يونيو ١٩٠٦

سيطرة الانجليز على مصر بعد الاتفاق الودى

ظن الانجليز أن الأمر قد استتب لهم فى مصر ، وأنهم قد امتلكوا رقاب المصريين ، وأن صوتا لا يمكن أن يجرؤ على معارضتهم ، أو يجهر بعصيانهم . وأن الدول الأوربية قد أغمضت العين عن كل ما يرتكبه الانجليز فى مصر من فظائع وجرائم . لأنهم عرفوا كيف يسترضون تلك الدول ، ويجتذبونها الى جانبهم ، بما كانوا يمنحونها من امتيازات ، ويقطعونها من أملاك مصر . وقد كادت معارضة فرنسا لانجلترة أن تختفى تماما ، بعد الاتفاق الودى بينهما عام ١٩٠٤ . فاطمأنت انجلترة ، ووثقت ألا يصيبها ماتكره من هذه الناحية .

ولكن الله العلى القدير ، مازال يمد للظالم فى حبل الاغترار ، حتى تضج الأرض والسماء من مظالمه ، وعندئذ يفتضح أمره ، وتتكشف جرائمه ، فيأخذه أخذ عزيز مقتدر .

شاء الله أن تحدث مأساة دنشواى ليتردى الانجليز فى مأزق لايستطيعون النهوض منه ، ولتنكشف للعالم أجمع سياسة العسف والاستبداد التى تمارسها انجلترة فى مصر ، وانتهاكها حرمة العدالة والقانون ، واعتداؤها على حقوق الانسان ، والعودة به الى عصور الهمجية وشريعة الغاب ، وتصرفها مع المصريين كما لو كانوا من أحط الشعوب . واغفالها ما كان لمصر والمصريين من حضارة عظيمة ، ومدنية زاهرة ، وشأن مرموق على تعاقب عصور التاريخ

وقد كانت هذه المأساة نقطة تحول فى تاريخ مصر ، فى هذه الحقبة من الزمان ، وجرحا داميا أصيبت به الكرامة والعزة الوطنية ، وظل هذا

الجرح يدمى وينزف دما ساخنا ، لأنه لا يبرئه الا ثورة عارمة ، تقتلع الاحتلال من جذوره ، وتعصف بالاستعمار والمستعمرين ·

ملخص لحادثة دنشواى ·

وتتلخص حادثة دنشواى فى أن خمسة من ضباط جيش الاحتلال ، فاجئوا قرية دنشـــواى ، التابعة لنقطة بوليس الشهداء ، مركز شبين الكوم ، بمحافظة المنوفية فى ١٣ من يونية عام ١٩٠٦ ، لصيد الحمام الذى يتكاثر بها ، خصـــوصا فى وقت الحصـــاد · فصوب أحد هؤلاء الضباط بندقيته على سرب من الحمام ، كان يحط فوق أحد الاجران · فصاح به أحد الأهالى أن يكف عن اطلاق النار ، خشية اشتعالها فى القمح ·ولكنه لم يصغ السمع الى هذا التحذير ، وتمادى فى اطلاق النار على الحمام ، فأخطأه غير أنه أصاب زوجة صاحب الجرن ، فسقطت تتخبط فى دمها ، واشتعلت النار فى الجرن !

عندئذ ثار أهل القرية وتجمعوا حول الضباط ، وانتزع أحدهم من الضابط المعتدى بندقيته ·

ولما ذاع الخبر فى القرية ، أسرع الخفراء الى مكان الحادث ، وأبعدوا الأهالى عن الضباط · ولكن هؤلاء ظنوا أن الخفراء ما قدموا الا للتنكيل بهم والانتقام منهم ، فأطلقوا عليهم النيران ، فسقط شيخ الخفراء يتخبط فى دمه ، وأصيب خفير آخر ،وواحد من الأهالى · وعندئذ اشتد هياج الاهالى فأخذوا يقذفون الضباط بالطوب ، وانهالوا عليهم ضربا بالعصى ، فأسرع الخفراء بانتزاع الاسلحة من الضباط ، واستبقوهم الى أن حضر ملاحظ بوليس النقطة فاوصلهم الى المعسكر ·

ولقد أسفر الحادث عن كسر ذراع أحـــد الضباط ، وجرح اثنين آخرين جروحا خفيفة ، واصابة ثالث فى رأسه ، وكان هذا قد فر مع زميل له ، وأخذا يعدوان مسافة ثمانية كيلو مترات ، سقط بعدها من شدة الاعياء ، وبتأثير حرارة الشمس ، عند قرية (سرسنا) ، اذ كان الوقت صيفا ، وفارق الحياة · وتركه زميله الى أن وصل الى المعسكر ، الذى كانت تعسكرفيه جنود الكتيبة ، بناحية (كمشوش) ·

ولما علم الجنود بالحادث ، قدموا للانتقام من أهل دنشواى · فلما وصلوا الى سرسنا ، حيث كان يرقد الضابط المتوفى ، ظنوها دنشواى·

وكان أحد الأهالى ينحنى فوق الضابط ، يسقيه جرعة ماء ، فظنوه هو القاتل ، واوسعوه وخزا وطعنا ببنادقهم ، حتى هشموا رأسه ، وراح ضحية الظلم والانتقام ، وشهيدا للرحمة والشفقة التى كانت تملأ قلبه ٠

محاكمة المتهمين :

ولما وصل نبأ الحادث الى المراجع العليا فى القاهرة ، غلت مراجل الغضب عند رجال الاحتلال ، وصمموا على الانتقام من أهالى دنشواى ، وسارع كبار رجال وزارة الداخلية ، وعلى رأسهم المستشار الانجليزى ، المستر ميتشل ، للتحقيق معهم ٠ وعقدت المحكمة المخصوصة فى ٢٤ من يونيه بسراى المديرية فى شبين الكوم ، وقدم للمحاكمة اثنان وخمسون متهما ، فى جو تسوده الرهبة والفزع ٠ واستمرت المحاكمة ثلاثة أيام ، وقبل أن تصدر المحكمة حكمها ، أرسلت المشانق الى دنشواى ، مما يدل على سبق الاصرار على الغدر والانتقام ٠

وفى ٢٧ من يونيه صدر الحكم على واحد وعشرين من أهل القرية ، وهو يقضى بالاعدام شنقا على أربعة منهم ٠ وبالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ٠ وبالاشغال الشاقة لمدة خمس وعشرين سنة على واحد ، وبالسجن سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مع الاشغال مدة سنة ، مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة ٠

تنفيذ الحكم

وفضلا على عدم توافر العدالة فى هذه المحاكمة ، وعدم مراعاة حق المتهمين فى الدفاع عن أنفسهم ، هذا الحق المشروع فى جميع قوانين العالم، فقد نفذت الاحكام فى اليوم التالى للنطق بها ، بطريقة تدل على الجبروت والطغيان ، وتنم عن الحقد والانتقام ، وتثير السخط والألم فى نفوس الأحرار والشرفاء ٠ فقد علقت المشانق ، ونصبت آلات الجلد فى قرية دنشواى ، ونفذت أحكام الشنق والجلد على المحكوم عليهم ، على مرأى ومسمع من ذوى قرابتهم وأسرهم ، بين صراخ الأطفال ، وعويل النساء ٠ وظل المحكوم عليهم بالشنق معلقين فوق المشانق بعض الوقت ، امعانا فى الانتقام ، ومضاعفة فى آلام ذوى قرابتهم والأهلين ٠

وكان المحكوم عليهم بالجلد يجلدون بالسياط بكل قسوة ووحشية ، مما لم يسبق له مثيل ، حتى فى أظلم عصور التاريخ وأحلكها ٠ وستبقى محاكمة هؤلاء الأبرياء ، وطريقة تنفيذ الحكم فيهم ، صفحة سوداء فى

تاريخ الاستعمار الانجليزى ، ودليلا على انحراف القضاء الانجليزى ، وتنكبه طريق العدل السوى ، عندما يتناول غير الانجليز .

تعقيب على الحكم

واذا نحن انعمنا النظر فى أسباب هذه الحادثة ونتائجها ، والاحكام التى صدرت فيها ، نخرج بالنتائج الآتية :

أولا — أن المعتدى فى هذه الحادثة انما هم الانجليز . فقد فاجئوا قرية آهلة بالسكان لصيد الحمام ، كمـــا لو كانت قرية مهجـــورة ، لا سكان فيها .

ثانيا — أن بعض الأهالى قد حذروا الضباط من اطـلاق النار . ولكنهم لم يأبهوا الى هــذا التحــذير ، وركبوا رءوسهم ، وتمادوا فى غيهم ..

ثالثا — لا يمكن الأهالى وقد رأوا احدى نسائهم تسقط قتيــلة ، والنار تشتعل فى أجران القمح ، وشيخ الخفراء ، وخفيرين آخرين يعتدى عليهم بالرصاص ، أن يقفوا مكتوفى الأيدى، دون أن يدافعوا عن أنفسهم .

رابعا — أثبت تقــرير الطبيب الشرعى ، وكان انجليــزيا ، أن الضابط المتوفى ، انما توفى متأثرا بضربة الشمس . وسبق أن ذكرنا أن الوقت كان صيفا ، والحرارة شديدة . وقد ذكر الطبيب أن الضابط كان يمكن أن يعيش لولا تأثره بحرارة الشمس .

خامسا — أن أحكام المحكمة المخصوصة كانت تجافى العــدالة . هذه المحكمة التى تألفت عام ١٩٠٦ بايعاز من اللورد كرومر لمحاكمة من يعتدى من الأهالى على جنود الاحتلال . وغالبية قضاتها من الانجليز . ومعنى هذا أن الانجليز نصبوا أنفسهم حكاما ، وهم فى الوقت نفسه ألد الخصوم ، على حين لم تكن ثمة محاكم لحماية المصريين من اعتداء الانجليز ، المدججين بالأسلحة الفتاكة ، بالبنــادق والمدافع ، على الأهالى الأبرياء الضعفاء العزل من السلاح . لذلك كان طبيعيا ألا تتوافر فى أحكام هذه المحكمة العدالة المنشودة .

سادسا — نفذت الأحكام فى اليوم التالى للنطق بها ، ولم يستمهل المحكوم عليهم بالاعدام ، حتى يمضى الوقت الذى حــدده القانون ، كى يستعمل الخديو حقه فى العفو عنهم أو تعديل الحكم .

سابعا ـ كانت المحاكمة صورية • وكانت النية مبيتة على الانتقام • فالمحاكمة لم تستغرق سوى ثلاثة أيام • وقبل أن تنتهى المحكمة من اجراءاتها ، صدر الأمر الى مخازن بولاق باعداد المشانق ، وآلات الجلد ، وارسالها الى دنشواى •

نتائج حادثة دنشواى :

لذلك كانت هذه الحادثة مثار سخط عام بين جميع المصريين ، وناقوس الخطر الذى دق عاليا • فأفاق المصريون على رنينه ، وبدءوا يستعرضون تاريخ الاحتلال ومظالمه ، ويدركون الطريق الوعر الذى يسوقهم اليه الاحتلال والمحتلون •

ولقد كان للحملة القوية التى شنها الزعيم الشاب ، مصطفى كامل ، فى الصحف الأوروبية ، على محاكمات دنشواى ، وطرق تنفيذها ، وعلى سياسة الانجليز وتعسفهم فى مصر بصفة عامة ، تأثير كبير فى الرأى العام العالمى ، وفى أحرار الانجليز أنفسهم •

وقد هزت حادثة دنشواى مشاعر الكاتب الانجليزى الحر «برناردشو» وخفق قلبه للقسوة والبطش ، اللذين أنزلهما الانجليز بأهالى دنشواى ، وتصرفهم تصرفا ينافى الحق والعدل ، ويجافى المدنية والانسانية • فكتب ست عشرة صفحة فى مقدمة كتابه (جزيرة جون بول الأخرى) ، جاء فيها : « ان الفلاحين لم يتصرفوا فى هذا الحادث غير التصرف الذى كان منتظرا من جمهرة الفلاحين الانجليز ، لو أنهم أصيبوا بمثل مصابهم فى المال والحرمات • وان الضباط لم يكونوا فى الخدمة ، يوم وقوع الحادث ، بل كانوا لاعبين عابثين • وأساءوا اللعب ، وأساءوا المعاملة • وان الفلاح الانجليزى ربما احتمل عبثا كهذا لأنه على ثقة من التعويض • ولكن القرويين لم تكن لهم هذه الثقة بالتعويض ولا بالانصاف • وان أحد المشنوقين كان شيخا فى الستين ، يبدو من الضعف كابن السبعين • ولو لم يشنق لجاز أن يموت فى السجن ، قبل انقضاء خمس سنوات » •

ونحا باللائمة على الوزارة والبرلمان الانجليزى ، اذ لم يمنعا تنفيذ الحكم ، بعد تبليغه ، ثم قال : « ان الافراج عن المسجونين ، من أهل القرية ، أقل تكفير منتظر عن هذه الكارثة ! » •

ولكى تتفادى انجلترا من حملات النقد التى وجهت الى سياستها فى مصر ، ولكى تغطى موقفها ، أوعزت الى اللورد كرومر بالاستقالة • فقدم

استقالته ، بعد ثلاثة وعشرين عاما ، عمل فيها بكل قوة ونشاط لتثبيت قدم انجلترا فى مصر ، ومد نفوذها الى قلب القارة الافريقية ٠

الدون غورست

ولكن كل ذلك لم يكن ليمنعها من التضحية به ، كما هى عادتها فى التضحية بالأفراد ، اذا قضت السياسة الاستعمـــارية بذلك ٠ وخلفه السير الدون غورست ، الذى حاول أن يخفف من الجبروت ، وسياســة العسف والاستبداد التى كان يتبعها اللورد كرومر ٠ ولكن الســياسة الاستعمارية فى أساسها ، وجوهرها ، ظلت ثابتة لم تتغير ، وهدفها كما هو معلوم تحويل مصر الى مستعمرة بريطانية ٠ ولحافظ ابراهيم قصيدة فى حادثة دنشواى نقتطف منها ما يلى :

أيها القائمـــون بالأمر فينـا
هل نسيتم ولاءنا والودادا
خفضوا جيشكم وناموا هنيئا
وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
واذا أعوزتكم ذات طــوق
بين تلك الربى فصيدوا العبادا
انمـا نحن والحمـام سـواء
لم تغادر أطواقنا الأجيـــادا
ليت شعرى ، أتلك محكمة التفتيـ
ـش عادت أم عهـــــد نيرون عادا
كيف يحلـو من القوى التشــفى
من ضعيف ألقى اليه القيادا

(١٢)

سياسة الاحتلال فى عهد عباس حلمى الثانى

وفاة توفيق وتولى عباس الثانى الحكم

توفى الخديو توفيق فى ٧ من يناير عام ١٨٩٢ ، فخلفه ابنه عباس حلمى الثانى ، وقد رأينا كيف أن « توفيق » ارتمى فى أحضان الانجليز ، منذ أن وطئت أقدامهم ارض مصر عام ١٨٨٢ م ، وكيف انه سلم لهم فى حقوق البلاد ، وعاونهم على تثبيت أقدامهم فيها ، وفرض سيطرتهم عليها ، وتحقيق رغباتهم التى كانت تستهدف تحويل مصر الى مستعمرة انجليزية .

ثم خلفه ابنه عباس حلمى الثانى فى حكم مصر ، وكان شابا ، لا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، ممتلئا حماسة ورغبة فى التخلص من سيطرة الاحتلال والمحتلين ، تلك السيطرة التى بلغت ذروتها قبيل وفاة أبيه ، حتى انه لم يكن يبرم أمرا الا بموافقتهم ورضاهم .

أزمة الوزارة الفهمية

ولقد حاول عباس فى أول عهده أن يتخلص من هذه الوصاية ، ويحد من تدخل الانجليز فى شئون البلاد ، خصوصا فيما هو حق شرعى له ، أعنى بذلك تعيين الوزارات أو اسقاطها .

ولما كان مصطفى فهمى باشا ، كما قدمنا ، ضالعا مع الانجليز بكل قوته ، لا يدخر وسعا فى ارضائهم ، والنزول على ارادتهم ، فقد عول على التخلص منه ، كخطوة أولى للانفراد بالحكم . وفعلا فقد أقاله من الوزارة فى ١٥ من يناير عام ١٨٩٣ ، وعين مكانه « حسين فخرى باشا » . فكان هذا الحادث أول اصطدام وقع بينه وبين الانجليز .

فلما علم كرومر بهذا التغيير ، أرغى وأزبد ، وقابل الخديو بمجرد علمه بتأليف الوزارة الجديدة ، محتجا ومهددا ، ومطالبا باقالتها ، واعادة مصطفى فهمى الى رياستها ، وأيدته انجلترة فى هذا الاعتراض بتلغراف تلقاه كرومر من وزارة الخارجية الانجليزية ، يؤكد ما سبق أن ورد فى تلغراف اللورد جرانفيل فى يناير عام ١٨٨٤ ، من ضرورة عدم اجراء أى تعديل وزارى الا بعد أخذ رأى انجلتره • فاذا لم يتقبل الخديو نصائح انجلترة فى هذا الصدد « **فعليه أن يتحمل اخطر العواقب** » •

اضطر الخديو ، تحت هذا التهديد ، الى اقالة فخرى باشا ، ولكنه أبى اعادة مصطفى فهمى الى الوزارة • وكحل وسط ، عين « رياض » باشا رئيسا لها •

وهذا الحادث ــ وان انتهى بخضوع عباس الى قوة الاحتلال الغاشم ، وسيطرته المرذولة ــ فقد قوى المعارضة للانجليز ، وضاعف من عدد الناقمين على الاحتلال ، وساند الحركة الوطنية ، التى بدأت فى الظهور آنذاك •

موازنة بين أزمة الوزارة الفهمية وأزمة ٤ من فبراير عام ١٩٤٢

ويذكرنا هذا الحادث ، بحادث مماثل ، وقع فى مصر بعد ذلك بثمانية وخمسين عاما ، بعد أن عقدت بين بريطانيا ومصر معاهدة عام ١٩٣٦ م ، التى اعترفت فيها باستقلال مصر •

هذا الحادث هو المعروف بحادث ٤ من فبراير عام ١٩٤٢ والذى سيأتى تفصيله فى حينه ، وخلاصته أن انجلتره فرضت على الملك فاروق وزارة برياسة مصطفى النحاس (باشا) • فكلف الملك فاروق النحاس بتاليف وزارة قومية ، تواجه صعوبات البلاد الداخلية والخارجية ، اذ كانت الحرب الأوروبية ما تزال دائرة رحاها ، ويقتضى الأمر تعاون الأحزاب جميعا فى مواجهة الانجليز •

ولكن النحاس رفض تاليف وزارة قومية ، وأبى الا أن تكون الوزارة التى يؤلفها وفدية ، وأعضاؤها من حزب الوفد الذى يرأسه • فلما علم اللورد كليرن ، السفير البريطانى حينذاك ، برفض النحاس تاليف الوزارة ، أرسل الى الملك فاروق انذارا هذا نصه : « اذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء ، أن النحاس باشا قد دعى لتاليف وزارة ، « **فان جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج** » •

وعقب ذلك حضر السفير الى قصر عابدين ، يصحبه الجنرال ستون قائد القوات البريطانية فى مصر ، وبعض الضباط الانجليز ، يحملون المسدسات ، وكانت قد حضرت الى قصر عابدين ، قبيل ذلك ، بعض الدبابات الانجليزية المسلحة بالمدافع ، وتظاهرت أمام القصر ، مهددة متوعدة ، وقدم السفير الى الملك صكا بنزوله عن العرش ، فى حالة رفضه الانذار البريطانى .

أمام ذلك التهديد والوعيد ، نصح الى فاروق بعض خاصته ، بقبول الانذار ، وتكليف النحاس بتأليف الوزارة . فامتثل فاروق ، وكلف النحاس بتأليفها .

فالحادثان كما ترى متماثلان ، مبعثهما الجبروت والسيطرة الغاشمة ، التى يمارسها الاستعمار فى كل زمان ومكان . ولا يستطيع المستعمر أن يتخلى عنهما لتثبيت أقدامه ، واملاء ارادته على الشعوب ، التى تقع فى براثنه . ووسائله الى ذلك واحدة لا تتغير ، ولا تتبدل ، مهما تغيرت الظروف ، أو تبدل المكان .

لقد كانت دعوى الانجليز عند غزوهم مصر ، أنهم ما قدموا اليها الا لحماية عرش الخديو ، وتثبيت ملكه ، وماذا هم قائلون الآن ، وهم يعملون على تقويض أركان هذا العرش ، والاطاحة بالجالس عليه ، اذا هو لم يستكن لأوامرهم ، ويستسلم لارادتهم ، وينضوى تحت سيطرتهم ؟ انهم لا يعدمون حجة ، يتذرعون بها ، لكل جرم يقدمون عليه ، لا يمنعهم من ذلك خجل أو حياء . فالاستعمار لا يخجل ولا يستحى . والكذب والمكر والخداع والقرصنة والسرقة وسائله لادراك غاياته المنكرة التى يبرر بها كل وسيلة ، وأية وسيلة ، مهما انحطت وسفلت .

ومن أطرف ما يذكر بهذه المناسبة ، أنه فى يوم طرد فاروق فى ٢٦ من يوليو عام ١٩٥٢ ، وبعد مغادرته البلاد ببضع ساعات ، تقدم القائم بالأعمال فى السفارة الانجليزية الى مجلس قيادة الثورة بانذار كان من ضمن بنوده **عدم احداث (فراغ) فى العرش « وحفظ حقوق أسرة محمد على فى العرش »** . فرد مجلس قيادة الثورة على الانذار بالرفض التام ، ذاكرا أن هذه الأمور من شئون مصر الداخلية ، التى لا يحق لبريطانيا أن تتدخل فيها . ومع أنه كان لانجلترة فى منطقة القناة ثمانون ألف جندى ، فقد تراجع ممثلها فى مصر ، وعد الانذار كأنه لم يكن (١) .

---

(١) قصة الثورة كاملة بقلم أنور السادات ص ١٥٦ ــ ١٥٧ .

وغادر فاروق أرض مصر ، ولم يستطع المحتلون بجيوشهم الجرارة أن يمدوا اليه أية مساعدة ، ولا شك أنهم كانوا يتمنون لو أنهم أعادوا تمثيل مأساة عام ١٨٨٢ ، ولكن أنى لهم ذلك · وعجلة التاريخ قد دارت وقطعت سبعين عاما ، ومن المحال ارجاعها الى الخلف ثانية ، والقادة اليوم لا يرهبون شيئا ·

أزمة الحدود

وما زال المحتلون يتحينون الفرص لافتعال الأزمات ، واثارة المشكلات ، امعانا فى اذلال الخديو ، واخضاعه لسيطرتهم · فسنحت لهم فرصة لمؤامرة جديدة ، تمثلت فيما يعرف بأزمة الحدود ·

وخلاصة هذه الأزمة أن الخديو اعتزم زيارة الوجه القبلى · فبدأ رحلته يوم ٩ من يناير سنة ١٨٩٤ · وكان أينما حل ، يقابله الشعب بالفرح والابتهاج ، مما آلم الانجليز بدون شك ، فهم ينقمون على الشعب أن يلتف حول الخديو الشاب ، وأن يؤيدوه فى معارضته لهم ، لذلك كان لا بد لهم من أن يدبروا للخديو مؤامرة يظهرونه فيها بمظهر الضعف والاستكانة ، ويبددون الأمل الذى علقه عليه الشعب فى تخليصه من ربقة الاستعباد !

ولقد سنحت هذه الفرصة عندما وصل الخديو فى رحلته الى وادى حلفا ، فى ١٨ من يناير عام ١٨٩٤ ، حين استقبله عند وصوله حرس شرف من الجنود المصريين بقيادة أحد الضباط الانجليز ، فلما تفقد الخديو الجنود ، لحظ عليهم نقصا فى التدريب ، وبعض العيوب فى هندامهم · وأبلغ وكيل وزارة الحربية ماهر باشا ، الذى كان يرافقه فى هذه الرحلة ، تلك الملاحظات ، فاعتبر اللورد كتشنر ، سردار الجيش ، هذه الملاحظات اهانة موجهة الى شخصه · فقدم استقالته فورا ، وما أن بلغ اللورد كرومر خبر هذه الحادثة حتى أبرق الى وزارة الخارجية البريطانية ، فردت على الفور بأن على الخديو أن يقدم اعتذارا عن هذه الاهانة ·

وهنا نصح رياض باشا للخديو بتقديم الاعتذار ، انهاء للأزمة · فصدع الخديو للأمر ، وقدم الاعتذار ، وبذلك ازداد ذلة ومهانة ، وأيقن الجيش أن الخديو لا يملك من الأمر شيئا ، وأن السلطة الحقيقية ما زالت بيد المحتلين !

أزمة الحدود عام ١٨٩٤ وأزمة السلاح عام ١٩٥٥

ان موقف الاستكانة هذا ، الذى وقفـه عباس من أزمة الحـدود ، ليذكرنا بموقف آخر ، ولكنه موقف مشرف ، وقفه الرئيس جمال عبد الناصر ، أعلى فيه قدر مصر ، ورفع رأسها عاليا ، فى الأزمة المعروفة بأزمة شراء الأسلحة للجيش المصرى عام ١٩٥٥ · واليك تفصـيل هذه الأزمة ، وان كان سيرد ذكرها ثانيا فى موضعها :

كان من الأهداف الرئيسية « لثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ » انشاء جيش مصرى قوى ، يدفـع عن البـلاد أى عدوان خارجى ، ويذود عن حياضـها ، ويحفظ لها الأمن والاستقرار ، ويكون لها درعا واقية أمام الاستعمار وأمام ربيبته اسرائيل ·

ومعلوم أن الانجليز عملوا طوال عهد الاحتلال على اضـعاف الجيش المصرى ، والضن عليه بالعتاد والأسلحة ، ليبقى كسيحا هزيلا ، لايقوى على أى عمل يناهض الاحتلال أو يقف فى وجهه ·

فمنذ أن قامت الثورة ، سعت جاهدة الى شراء السلاح ، من محتكرى السلاح ، من انجلتره والولايات المتحدة وفرنسا ، فلم تجد سوى مماطلة وتسويف من تلك الدول ، التى تعمدت أن يظل الجيش المصرى ضعيفا ، لأغراض استعمارية لا تخفى على أحـد · واشترطت شروطا فيها اذلال لمصر ، واهدار لكرامتها ·

فاشترطت انجلتـره وأمريكا لامداد مصر بالسـلاح جر مصر الى سياسة الأحلاف ، التى تبغى من ورائها ربطها ، وربط الدول العربيـة بمناطق نفـوذها فى الشرق الأوسـط ، وشـدها الى عجلة سياستها الاستعمارية الكريهة · وقد رفضت مصر هذه الشروط بكل اباء ·

كذلك اشترطت فرنسا أن تتخلى مصر عن عروبتها وانسانيتهـا ، وتغمض عينيها عن سيـاسة الارهاب والابادة التى كانت تمارسهـا فى الجزائر · فرفضت مصر التخلى عن مساعدة شعب الجزائر ، بل وجاهرت بمساندتها لهذا الشعب المناضل ، ورفضت شروط فرنسا رفضا باتا ·

وفى الوقت الذى أبت فيه هذه الدول الاستعمارية عـلى مصر أن تمدها بالأسلحة ، كانت تغدق الدبابات والطائرات والسيارات المصفحة وغير ذلك من العتاد والأسلحة الفتاكة على اسرائيـل ، التى كانت تشن الغارات المتوالية على مصر والدول العربية المتاخمة لها ، ومن بينها غارتها

على غزة فى ٢٨ من فبراير عام ١٩٥٥ ، التى وصفتها الأمم المتحدة بأنها غارة وحشية مدبرة ٠

لذلك لم يكن هنـاك بد أمام مصر من أن تولى وجههـا نحو احدى دول الكتلة الشرقية ، تستمد منها حاجتها من السلاح ، وقد استجابت جمهورية تشيكوسلوفاكيا الى طلب مصر ٠ وقبلت أن تمدها بما تطلب من السلاح ، عـلى أن تكون صفقة تجارية فحسب ٠ ووقـع الاتفاق فى سبتمبر عام ١٩٥٥ ٠

عندئذ هاجت أمريكا وانجلتره وفرنسا وماجت ، وأرغت وأزبدت ، وقلبت الدنيا عـلى رأس مصر ، متهمـة اياها بانضـمامها الى المعسـكر الشيوعى ٠ فكان ينطبق عليها المثل العامى (لا هى ترحم ، ولا هى تترك رحمة الله لتدرك العباد) ٠

وأرسل المستر دلاس ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، السياسى الجبار ، الذى كثيرا ما دفع العالم الى هاوية الحرب والخراب ، ولذا عرف فى المحافل الدولية السياسية بصاحب (حافة الهاوية) ، أرسل وكيله المستر ألان الى مصر ، يحمل اليها انذارا ووعيدا ، بقطع المعونة الأمريكية عنها ، جزاء وفاقا لعقدها صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا ٠ وهنـا نترك بقية القصة ، يرويها الرئيس جمال عبد الناصر بنفسه ٠ قال :

« وأرسلت أمريكا مستر ألان ، منـدوبا لها ، ليحمل رسـالة من الحكومة الأمريكية ، وكان المفروض أن يقابلنى ، وقالت الأنباء انه يحمل تهديدا لمصر ! »

« واتصل بى أحد الرسميين الأمريكيين لمقابلتى ، وقال : انه متأسف للحالة التى وصلت اليها العـلاقات بين البلدين ، ونصحنى بأن أقبل الرسالة ، بأعصاب هادئة ، فقلت له : كيف أقبلها وفيها جرح للعـزة المصرية ؟ فقال : لن يترتب عليها أى أثر عملى ، فهى مجرد رسالة » ٠

« فقلت له : انى لست رئيس وزارة محترفا ، ولكنى رئيس وزارة عن طريق ثورة ٠ ولن أتردد اذا حضر مندوبكم وتكلم كلمة عن طرده »

« هـذا كلام رسمى ٠ وسأعلن للشعب أنكم أردتم اهانة عـزته وكرامته ٠ وسنقاتل جميعا لآخر قطرة من دمائنا ، وانى سـأقاتل فى سبيل مصر ، لآخر قطرة من دمى ، فهددوا بقطع المعونة ٠ فقلت سأعلن قطعها ٠ ونحن لم نتلق دروسا فى السياسة ٠ فقد قمنا بثورة وسنحافظ عليها ٠ كان ذلك فى أكتوبر » ٠

« ثم عاد وقابلنى ، وقال انه أبلغ مستر ألان هذا الكلام · وهو فى حيرة لأنه - لو حضر سيطرد - واذ أبلغ المستر دلاس ، فسوف يطرده ، فما الموقف ؟ · فقلت له : انى لا أعرف الا أنه اذا حضر الى فسأطرده » ·

« جاء لنا مستر ألان ، ولم يفتح فمه بكلمة · واستمع الى وجهة النظر المصرية · وأسرد لكم وجهة نظر أمريكا بايجاز : انهم يعتقدون اننا سياسيون محترفون · ولكن مصر استطاعت أن تحافظ على كرامتها وعزتها (١) » ·

استسلام الخديو عباس لسيطرة الاحتلال

والواقع أن الخديو عباس كان يهدف من وراء معارضة الانجليز الى الانفراد بالحكم ، وممارسة الحكم المطلق ، الذى كان يمارسه آباؤه وأجداده · ولم يكن مبعث تلك المعارضة حافزا وطنيا ، أو شعورا قوميا · فهو واحد من أسرة محمد على ، التى لم تكن تربطها بالشعب وشيجة من وشائج القربى أو الدم ، أو صلة من صلات الأصل أو اللغة أو التقاليد ، لذلك ظلت غريبة عن الشعب طوال حكمها له ؛ لا تعنى بشىء غير المصلحة الشخصية · فلما لم تسعفه معارضته للانجليز ، كى ينفرد بالحكم دونهم ، فسرعان ما انطوى تحت سيطرتهم ، وانصاع الى نصائحهم ، واصبح كأبيه توفيق ، عاملا من عوامل تثبيت أقدامهم فى البلاد · وانصرف الى جمع المال ، والبحث عن الثراء !

عندئذ أمن الانجليز جانب الخديو ، الذى آثر السلامة والعافية ، واطمأنوا الى «انعدام» المعارضة لسياستهم فى كل الجبهات ، فاستمروا فى غيهم وعدوانهم ، وتابعوا اعتداءهم على حقوق البلاد ، وانتهاكهم لحرماتها ·

ومبالغة فى ارضائهم ، استعرض جيش الاحتلال مرتين فى ساحة عابدين ، بمناسبة عيد ميلاد ملك الانجليز ، سنتى ١٩٠٤ م ، ١٩٠٥ م ، وكان يرى فى كلتا المرتين واقفا بجوار اللورد كرومر ، تحت العلم البريطانى ، فى أثناء العرض العسكرى ·

وأكثر من هذا أنه قد عين له ضابط انجليزى ، ليكون ياورا خاصا له عام ١٩٠٥ م ، مما أحبط آمال الوطنيين الأحرار فى اخلاص الخديو للحركة الوطنية ، وزادهم اعتقادا فى وقوعه تحت سيطرة الاحتلال ·

---

(١) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر الذى القاه بالاسكندرية فى ٢٦ من يوليو عام ١٩٥٦ ·

كذلك عاد الى تعيين مصطفى فهمي رئيســا للوزارة عام ١٨٩٥، وظل هذا متربعــا فى رياستها حتى عام ١٩٠٨ م ، أى مدة ثلاث عشر سنة ، وهى مدة طويلة ، لم تتمتع بها وزارة أخرى بالبقاء فى الحــكم لأنها كانت تستظل بحمــاية الانجليز ، وتســتند الى حرابهم ، وتتمتع بتعضيدهم وثقتهم ٠

بعض جرائم الانجليز فى عهد وزارة مصطفى فهمى

وفى عهد زارة مصطفى فهمى المشئومة ، ارتكب الانجليز كثيرا من الجرائم فى حق مصر ، بقصد اضعافها والانتقــاص من قوتها ومقدرتهــا وممتلكاتها ٠ من ذلك حرمانها من أسطولها التجــارى ، فبيعت البواخر الحديــوية عام ١٨٩٨ الى شركة (ألن والدرسن) الانجليزية ، بأبخس الاثمان ، ادعاء بأنها تكلف الحكومة من النفقات ، أكثر من ايرادها ٠

كما بيعت أملاك الدائرة السنية ، الى شركة سوارس الانجليزية وانشىء البنك الأهلى عام ١٨٩٨ م بأموال وأسهم أجنبية ٠

وفى ٩ من يناير عام ١٨٩٩ ، وقعت الحــكومة معاهــدة اغتصب الانجليز بمقتضاها نصف السودان ، ووضـــعوا أقدامهم فيه ، تمهيدا بتحويله الى مستعمرة انجليزية ، كما سبق تفصيله ٠

(١٣)

الزعيم مصطفى كامل ، والمقاومة الشعبية (١)

مقاومة الشعب المصرى للغزاة الفاتحين :

لم يستكن الشعب المصرى فى يوم ما للغزاة والمستعمرين ، بالرغم مما يصطنعه من صبر على المكاره ، وصمود للشدائد . والتاريخ حافل بالأمثلة الكثيرة ، التى تثبت مقاومة هذا الشعب الباسل لكل معتد أثيم ، سولت له نفسه فتح مصر ، والقضاء على استقلالها . وجهاده المتواصل فى سبيل حريته وكرامته ، والذود عن حياضه ، وايقاعه الهزيمة بالغزاة الفاتحين ، كثيرة لا حصر لها ، حتى وصفت مصر بأنها مقبرة الغزاة والفاتحين .

ومن الأمثلة القريبة فى تاريخ مصر الحديث ، التى تدل على اباء الشعب المصرى ، وصلابة عوده ، وشدة مراسه ، ايقاعه الهزائم بجيش نابليون والحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) ، مما اضطرها الى الجلاء عن مصر ، تجر أذيال الخيبة والفشل .

كذلك الاعتداء الثلاثى على مصر فى نوفمبر عام ١٩٥٦ ، الذى سيأتى الحديث عنه فى حينه . انما نذكر هنا أن الفرسان الثلاثة باءوا بالفشل الذريع ، والخيبة المنقطعة النظير ، وانسحبوا من مصر يجلل رءوسهم العار والشنار .

توهم الانجليز بأنهم قضوا على المقاومة الشعبية

ولقد ظن الانجليز انهم قضوا على كل مقاومة لشعب مصر ، بما فرضوه عليه من قيود ، وما كبلوه به من سلاسل وأغلال . ولكنهم كانوا

(١) راجع سيرة الزعيم مفصلة فى كتاب مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية للاستاذ عبد الرحمن الرافعى .

فى هذا واهمين · فالشعوب لا يمكن ان ترضى بالذل والهوان ، ولا يمكن أن تغمض العين عن حقوقها المسلوبة ، وأرزاقها المنهوبة ، وحرياتها المنتهكة · وانما هى تتحين الفرصة كى تثور ثورتها العارمة ، لتقتلع شجرة الظلم من جذورها ، منتظرة الزعيم الذى يقودها فى المعركة ، ويرسم لها طريق الجهاد والنضال ·

وتاريخ مصر ، القديم والحديث ، حافل بأسماء زعماء أبطال ، رفعوا علم الجهاد عاليا ، واثبتوا أن مصر لا يمكن أن تعقم ، فهى غنية برجالها ، كما أنها خصبة فى أرضها ، صافية فى سمائها ، طيبة فى هوائها · وقد سجل التاريخ فى صفحات أبطاله كثيرا من الاسماء اللامعة ، التى لا يمكن أن تنسى ، نذكر منها على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر · أحمس قاهر الهكسوس ، والظاهر بيبرس قاهر التتار فى عين جالوت ، وصلاح الدين الايوبى كاسر شوكة الصليبيين ، والسيد عمر مكرم مدوخ الفرنسيين ، وأحمد عرابى بطل الثورة العرابية ، وجمال عبد الناصر محرر مصر من الاستعمار الانجليزى وبطل القومية العربية ، وناصر المجاهدين والأحرار فى كل مكان ·

بعث الزعيم :

ولقد قيض الله لمصر فى محنتها مع الاحتلال الانجليزى ، زعيما شابا ، وهب حياته لمصر ، وأفنى شبابه فى الدفاع عن حقوقها ، والذود عن كرامتها ، بقلمه ولسانه ، بمقالاته الجامعة ، وخطبه الرنانة ، التى أقضت مضاجع الاستعمار ، وهدمت طوده الركين فى مصر · ذلكم هو مصطفى كامل المصرى الصميم ، الذى أنبتته أرض مصر ، فأحس باحساسها ، وأفعم قلبه بحبها ، وراعه سيطرة الانجليز على مقدراتها ، وسلبهم حريتها ، اعتداؤهم الاثيم على كرامتها وعزتها · فنصب نفسه ، منذ كان فى العشرين من عمره ، وبعد نيله اجازة الحقوق مباشرة من جامعة تولوز فى نوفمبر عام ١٨٩٤ ، للدفاع عن حقها فى الحرية والاستقلال ، ووجوب جلاء الانجليز عن أراضيها ، ورفع سيطرتهم عنها ·

جهاد الزعيم :

كانت خطة مصطفى كامل أن يبعث الأمل فى نفوس مواطنيه ، ويزيل الغشاوة عن عيونهم ، ويثير حماستهم ووطنيتهم لمقاومة سيطرة الاحتلال والمحتلين ، بخطبه ومقالاته فى الصحف المصرية ، وشرح مظالم الانجليز ، واعتدائهم على حقوق مصر للرأى العام العالمى ، بخطبه البليغة،

فى عواصم الدول الأوروبيــة ، ومقــالاته الفياضة فى أشــهر الصحف العالمية ، مســتغلا التنافس القــائم بين الدول الاســتعمارية الكبرى ، خصوصا بين انجلترا وفرنسا .

وقد ظل ينشد العون من فرنسا ، أول الامر ، الى أن حدثت حادثة فاشودة عام ١٨٩٨ م ، التى انتهت بتراجع فرنسا ، وايثارها السلامة والعافية ، ثم عقدها الاتفاق الودى مع انجلترا عام ١٩٠٤ م ، وبمقتضاه أطلقت فرنسا لانجلترا يدها فى مصر ، وأطلقت انجلترا لفرنسا يدها فى شمال افريقية . عندئذ أيقن أن الامر يقتضى أن تعتمد مصر على نفسها فى جلاء الانجليز ، واعادة الحرية الى البلاد ، وليست الدول الاوروبية الا عصابة من اللصوص ، تقتسم الاسلاب والغنائم فيما بينها ، وطغمة من الاستعماريين ، الذين لا يهمهم سوى مصالحهم الشخصية . وبهذا يكون الاعتماد عليها كالاعتماد على الوهم والخيال .

وقد كان يعتمد ايضا على تشجيع الخديو عباس ، وتعضيده . ولكن الخديو ما لبث أن وقع تحت سيطرة الانجليز ، وانضوى تحت لوائهم ، وصار اليهم أطوع من بنانهم . فقطع مصطفى كامل صلته به ، وازداد ثقة بضرورة الاعتماد على أبناء مصر الاحرار ، وشعبها المناضل فى الكفاح والجهاد .

انشاؤه المدارس الوطنية :

ولما كان يعلم أن جيش الاحتلال لم يتمكن من بسط نفوذه على مصر الا بنشر الجهل بين ابنائها ، وسد سبل العلم فى وجوههم ، فقد نادى بانشاء المدارس التى يتلقى فيها الشــباب العلم خالصا من الشــوائب ، ويلقنون فيها دروسا فى الثقافة الوطنية ، فيعرفون حقوقهم وواجباتهم حق المعرفة . ولقد بدأ هو فى يناير عام ١٩٠٠ بانشاء أول مدرسة من هذا النــوع فى سراى السلحدار بشــارع أمير الجيوش البرانى ، وكانت تحمل اسمه . كما نادى بانشاء جامعة يتمم فيها الشباب ثقافتهم العالية ، وقد بدىء فعلا فى جمع الاكتتابات لهذه الجامعة ، واتخذت بعض الاجراءات الاولية لانشائها .

تأسيسه جريدة عربية ، وواحدة انجليزية ، وأخرى فرنسية :

كذلك عندما رأى الصحف المصرية مغلولة الأيدى ، مكممة الأفواه ، يضطرها خوفها من نقمة الاحتلال وسخطه ، أن تشايعه ، فلا تجرؤ على نقد أعماله . لهذا انشأ جريدة اللواء عام ١٩٠٧ لتكون مدرسة لتثقيف

الشعب ، وتبصيره بحقوقه وواجباته ، ونقد أعمال الانجليز وأعوانهم ، واظهار الشعب على خطط الاستعمار وأساليبه • ولم يكتف بذلك ، بل انه انشأ جريدتين أخريين : احداهما باللغة الانجليزية ، والأخرى باللغة الفرنسية ، ليمتد صوت مصر الى خارج حدودها ، وليدفع عنها ما كان يلصقه بهـا المحتلون من الأكاذيب ، فى مقـدمتها ما يدعونه من تعصب المصريين ، وقصورهم عن أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وكرههم للاجانب.

احتجاجه على أحكام المحكمة المخصوصة

ولقد رفع مصطفى كامل صوت مصر عاليـا بالاحتجاج على أحكام المحكمة المخصوصة فى حادث دنشواى ، مبينا للرأى العام العالمى مظالم الانجليز فى مصر ، وعسفهم بأهلها ، واستبدادهم بمواطنيه ، مما أثار موجة من الاسـتياء والاستنكار ضـد الاحتلال ، لا فى الدول الاوروبية فحسب ، بل فى انجلترا ذاتهـا ، مما اضطرها أن تحنى رأسـها أمام العاصفة ، وتتلافى حملات النقد المريرة التى أشعل مصطفى كامل نيرانها فى جميع أنحـاء أوروبا ، بأن طلبت الى اللورد كرومر أن يسـتقيل ، مضحية به ، بعد أن ثبت قدم الاحتلال فى مصر طيلة ثلاثة وعشرين عاما• اللورد كرومر الذى كان كالطود الشامخ ، والذى لم تكن أية قوة لتجرؤ على زحزحته أو النيل منه ، استطاع مصطفى كامل أن يهدمه ويحطمه ، ويقضى عليـه • وما زال يوالى حمـلاته حتى أفرج عن جميع المسجونين من أهالى دنشواى بعد عام من سجنهم •

كذلك اضطرت انجلترا أن تغير من سياسة العسف والاستبداد ، وتختط لها سياسة جديدة ، عرفت بسياسة الوفاق ، عهدت بتنفيذها الى السير ألدون غورست ، الذى خلف اللورد كرومر عام ١٩٠٧ •

تاليفه الحزب الوطنى

قلنا : ان « مصطفى كامل » ، كان يسعى جهده لتكوين رأى عام مستنير ، يناهض الاحتلال ، ويقاوم خططه ، ويحبط مؤامراته • لذلك ، ألف الحزب الوطنى ، من خيرة شباب مصر ، ورجالها الأحـرار ، الذين حملوا علم الجهاد طوال عهد الاحتلال ، وجعل أهدافه الكبرى ، الجـلاء العاجل والحرية التامة ، وبعث الدستور •

وعقدت أول جمعية عمومية للحزب الوطنى فى ٢٧ من ديسمبر عام ١٩٠٧ ، وانتخبت مصطفى كامل رئيسا له • وخلفه فى رياسته بعد وفاته فى ١٠ مّن فبراير عام ١٩٠٨ محمد فريد المجاهد العظيم •

كلمة اخيرة في اعمال الزعيم :

كانت حيـاة مصطفى كامل ، على قصرها ، حافلة بأجل الأعمـال الوطنية • وما قام به من جهود جبارة ، تنوء بها عصبة من الرجال • وكفاه فخرا أنه وقف بمفرده في وجه الاستعمار ، معرضا حياته وحياة أفراد أسرته لانتقام المحتلين ، ورفع الصوت عاليا بنقد اعماله ، وفضح مؤامراته، في وقت استحوذ فيه اليأس على القلوب ، وأيقن الناس أن لا خلاص من ربقة الاستعمار وسيطرته ، ولكنـه زلزل أقدامه ، وأقض مضاجع المستعمرين ، وهدم ركنهم الركين •

ولم يمت الا بعد أن أزكى شعلة الجهاد في النفوس ، وقضى على اليأس الذى كان قد تملك قلوب مواطنيه ، وجدد الأمل والثقة في نفوسهم ، وخرج بالمسألة المصرية الى المحيط الدولي ، والف الحزب الوطني الذى حمل الشعلة ، وأدى الرسالة من بعده ، وكان مدرسة وطنية تلقى فيها الشباب المثقفون دروس الوطنية الخالصة ، والوعى القومي ، وكان لكثير من رجاله دور ملحوظ في السياسة المصرية في السنين التالية •

وقد كان للجهود المضنية ، وأسفاره المتواصلة الى أوروبا ، دفاعا عن القضية المصرية ، كل الاثر في اضعاف صحته ، وهد كيانه وقوته ، فتحمل كل ذلك مغتبطا راضيا ، مضحيا بشبابه ، مفنيا زهرة عمره في سبيل وطنه • وظل يعمل لآخر لحظة في حياته ، ويجاهد لآخر نفس من أنفاسه • فلا غرو اذ عم الحزن لوفاته البلاد ، من اقصاها الى اقصاها ، وخيل للناس ان الامة بأسرها سارت تشيع رفاته ، حتى أودعته مثـواه الأخير ، بين زفرات الرجال ، وعويل النساء ، وبكاء الاطفال ، وترحم الأمة جميعا عليه ، لما أسدى اليها من فضل ، وما قدم اليها من تضحيات ودبج الكتاب المقالات ، ونظم الشعراء القصائد في رثائه • من ذلك قصيدة حافظ ابراهيم الذى جاء فيها :

أيا قبر هـذا الضيف آمـال أمة ... فكبر وهلل ، والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى ... شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا
ويا مصر ان لم تحفظى ذكر عهده ... الى الحشر لا زال انحلالك باقيـا
ويا أهل مصر ان جهلتم مصابكم ... ثقوا ان نجم السعد قد غار هاويا

والقى في حفل الأربعين قصيدة أخرى جاء فيها :

قد ضاق جسمك عن مداك فلم يطق ... صبرا عليـك وأنت شـعلة نار
أودى بـه ذاك الجهـاد وهـده ... عـزم يهـد جلائل الأخطار
لعبت يمينك باليراع فأعجزت ... لعب الفـوارس بالقنـا الخطار

(١٤)

المجاهد محمد فريد واستمرار المقاومة الشعبية (١)

افكاره ذاته وتضحياته :

حمل لواء المقاومة الشعبية بعد مصطفى كامل ، البطل المجاهد محمد فريد • وقد ضرب مثلا أعلى فى التضحية والوطنية الصادقة ، ولم يتحول فى جميع ادوار حياته ، قيد أنملة ، عن مبدئه الذى نادى به دائما ، وهو « مصر للمصريين » • واتسمت جميع فعاله بالاخلاص والتفانى ، فى نصرة هذا المبدأ ، مهما لقى من ظلم وعنت ، أو نزل به من كوارث ومحن !

توليه رياسة الحزب الوطنى :

تولى رياسة الحزب الوطنى عقب وفاة مصطفى كامل عام ١٩٠٨ م ، وحمل عبء مقاومة الاستعمار بجدارة وكفاية لا مثيل لهما • فكان للمستعمرين وأذنابهم بالمرصاد ، فى كل ما ينصبونه لمصر من شراك ، وما يحيكونه من مؤامرات • يبصر بها مواطنيه ، ويحذرهم الوقوع فيها ، منتهجا سبيل سلفه مصطفى كامل بالمقالات الرنانة ، والخطب الفياضة : فى الصحف المصرية والاوروبية ، وفى المحافل الدولية • وهو فى اثناء كل ذلك يعرض نفسه لانتقام المستعمرين ، وجبروت الانجليز الغاصبين : فتارة يلقى به فى غياهب السجن ، فيدخله وهو باسم الثغر ، راضى النفس ، وتارة يشرد بعيدا عن أهله ووطنه ، فيحتمل التشريد والنفى بشجاعة وصبر ، ويعمل فى منفاه بكل جد واخلاص ، متنقلا بين العواصم الأوروبية ، شارحا القضية المصرية ، فى المؤتمرات والاجتماعات الدولية ،

(١) راجع سيرة المجاهد الكبير مفصلة فى كتاب محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية للاستاذ عبد الرحمن الرافعى •

منتهزا كل فرصة لدحض مزاعم الانجليز ، مبرهنا على سوء نياتهم ، وخبث مقاصدهم ، ودنيء طويتهم ٠

وقد ضحى بمستقبل باسم ينتظره في وظائف الحكومة ، وثروة طائلة ورثها عن أبيه ، وشباب نضر ، أفناه في الجهاد والنضال ٠ وقد حاول المستعمرون الانجليز اغراءه بمنصب الوزارة عدة مرات ٠ منتهزين فرصة نضوب ثروته ، واضمحلال صحته ٠ ولكن نفسه الأبية ، وهمته العالية ووطنيته الصادقة ، لم تصغ السمع الى اغراء القراصنة المغتصبين، وأبت عليه الا أن يتابع جهاده ، ويواصل نضاله حتى ينقشع الاستعمار عن أرض الوطن ، وينجلي آخر جندي في جيش الاحتلال والاستعمار ٠

وتضيق صفحات هذا الكتاب ، مهما تضاعفت ، عن أن تتسع لاستيعاب جهود البطل الشهيد محمد فريد ، ومواقفه المشهودة من الاحتلال ٠ ولا يسعنا الا أن نذكر طرفا من تاريخه الحافل بالنضال والجهاد ، وأمثلة من يقظته وشدة وعيه ، لمؤامرات الانجليز ، ومسارعته الى احباطها ٠

مد امتياز قناة السويس :

حاول الانجليز اغراء الحكومة المصرية بالموافقة على مشروع يقضي بمد امتياز قناة السويس اربعين سنة ، نظير منح الحكومة المصرية أربعة ملايين من الجنيهات ٠ وكان المشروع من اعداد المستشار الانجليزى ، بقصد تدبير موارد جديدة لتغطية المصروفات الكثيرة التى ناءت بها الخزانة المصرية ، وفى مقدمتها الصرف على السودان ، وكانت انجلترة لا تتحمل شيئا من مصروفاته ، وتدبير رواتب الموظفين الانجليز ، الذين يزداد عددهم عاما بعد عام ٠

وكانت النية مبيتة على أن توقع الحكومة المصرية على هذا الاتفاق خلسة ، ولا يعلن أمره الا بعد الاتفاق ، والتوقيع عليه ، وبعد أن يصبح نافذ المفعول ، بالضبط كما حدث فى اتفاقية السودان المبرمة فى يناير عام ١٨٩٩ ٠ ولكن البطل « محمد فريد » ، بذكائه وفطنته ، كشف هذه المؤامرة ، واستطاع أن يحصل على نسخة من المشروع ، نشرها فى جريدة اللواء فى اكتوبر عام ١٩٠٩ ، وأخذ يشرح الغبن الذى سيلحق بمصر ، من جراء تنفيذ هذا المشروع ، فى عدة مقالات ، محذرا الحكومة من الوقوع فى هذا الشرك ، الذى نصبته انجلترا لمصر ، محرضا الشعب على الوقوف له بالمرصاد ، فأخذت الاحتجاجات تتوالى من كل صوب ، والمظاهرات

تتألف من جميع طبقات الامة ، طالبة عرض المشروع على الجمعية العمومية ، وتعليق قبوله على موافقتها .

ولأول مرة فى عهد الاحتلال ، تخضع الحكومة لطلبات الرأى العام ، وتتعهد بعرض المشروع على الجمعية العمومية ، ويترك لها الحق فى قبوله أو رفضه ، مع تقييد الحكومة بقرار الجمعية العمومية ، والأخذ به ، فعرض عليها فعلا ، وتكونت لجنة لدراسته ، وأبانت بالارقام الغبن الفاحش الذى يصيب البلاد من قبوله ، وأوضحت ســوء النية التى حدت بانجلترة الى اقتراح هذا المشروع .

وبناء على ذلك ، قررت الجمعية العمومية بجلسة ٧ من ابريل عــام ١٩١٠ رفض المشروع رفضا باتا ، بالرغم من الجهود التى بذلتها الحكومة لاقراره . وما الفضل فى ذلك الا ليقظة البطل المجــاهد محمد فريد ، وشدة وعيه ، وترصده لاعمال الانجليز ، ومتابعة مؤامراتهم .

حملاته ضد الانجليز

وقد حمل على انشاء الجمعيــة التشريعية حملة قوية ، وأوضح أن هذه الجمعية لا تختلف عن مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية فى كثير أو قليل . وأنها ليست ســـوى لعبة من تفكير اللورد كتشــنر ، والسياسة الاستعمارية ، لكى يتلهى بها المصريون عن المطالبة بالدستور ، واعادة الحياة النيابية ، التى وأدها الانجليز بعد احتلالهم لمصر .

كذلك هاجم الانجليز هجوما عنيفا ، لفرضهم الحمــاية على مصر فى ديسمبر عام ١٩١٤ ، عقب قيام الحرب العالمية الاولى ، وأبان عدم شرعية هذه الحماية ، ومجافاتها للقانون والعــدالة ، ومخالفتها لوعــود الانجليز المتكررة فى الجلاء عن مصر ، واعادة الحرية والاستقلال اليها .

ولم يأل جهدا عندما وضعت الحرب أوزارها ، فى أن يتقدم الى مؤتمر الصلح بعدة مذكرات ، موضحا أحقيــة مصر فى الحــرية والاســتقلال ، ومنافاة بقاء الاحتلال فى مصر لحقها المشروع ، فى اختيار الطريقة التى تحكم بها ، ويرتضيها شعبها .

وفاته رحمــه الله : وظل رحمه الله يناضل ويجــاهد ، برغم الحاح المرض عليه ، وتفاقم العلة ، حتى لفظ نفسه الاخير فى برلين فى ١٥ من نوفمبر عام ١٩١٩ مبعدا عن وطنه وأهله وذوى قرابته ســبعة أعوام ،

مضحيا بماله وصحته ، ضاربا أروع الامثلة فى الشهامة وعلو النفس ، والاستمساك بالمبدأ ، والصبر على المكاره وكان آخر ما نطق به اسم مصر ، وآخر ما نصح به المصريين هو اتحاد الكلمة ، وجمع الصفوف • والوقوف أمام العدو الغاصب جبهة واحدة •

ونقل رفاته الى مصر فى يونيه عام ١٩٢٠ ، وشيعت جنازته فى كل من الاسكندرية والقاهرة فى احتفال شعبى مهيب، دل على تقدير الشعب لاخلاصه ، ووفائه وصادق وطنيته •

(١٥)

ثورة مارس عام ١٩١٩ م

اسباب الثورة

سبق أن ذكرنا أن مصر لم تستكن فى يوم ما الى فاتح مغتصب ، أو غاز مستعمر ، فوقفت لهؤلاء وقفة ملؤها العزة والاباء ، ودفعت الغزاة الفاتحين خارج بلادها ، بكل قوة وشدة · ولكن الانجليز القراصنة غابت عن عقولهم تلك الحقائق التاريخية الثابتة ، واحتلوا مصر عام ١٨٨٢ م ، وفرضوا سيطرتهم على المصريين ، بقوة السيف والمدفع ، وأمعنوا فى ظلمهم وعنتهم ، وقبضوا على ناصية الامور بيد من حديد ، فوضعوا أيديهم على الجيش ، وتغلغلوا فى مصالح الحكومة ودواوينها ، وقيدوا التعليم ، وقصروه على أولاد الأغنياء والموسرين ، وكمموا الأفواه ، ونشروا رقابة محكمة على الصحف ، فلا تنقد عملا من أعمال الاحتلال ، ولا تعقب على قراراته وأحكامه، مهما تبين مبلغ الحيف والظلم ، الذى يقع من جرائها على البلاد · وهددوا الموظفين على اختلاف درجاتهم ، بما فيهم من الوزراء ورؤساء المصالح بالاقالة والرفت ، اذا هم عصوا أمرا لعميد الاستعمار ومعاونيه من الانجليز · بل انهم هددوا الخديو نفسه بالاقالة والطرد ، عندما حاول استعمال حقه فى تعيين الوزراء ، فاضطر الى الخضوع لسلطانهم ، والاستسلام لجبروتهم ·

وان المرء ليعجب كل العجب ، أن تبلغ الصفاقة والقحه بالانجليز حدا يتصرفون معه فى أملاك مصر ، كما لو كانوا أوصياء عليها ، فيقطعون الدول أجزاء من امبراطورية مصر ، المترامية الأطراف فى افريقية ، ويغتصبون هم أنفسهم السودان ، لأنفسهم · ويستولون على مالية مصر ، ويبددون فى أموالها ، ذات اليمين وذات اليسار ، لا رادع يردعهم ، ولا مهيمن على تصرفاتهم · وفى عبارة مختصرة ، سار الانجليز شوطا

كبيرا فى تحقيق هـدفهم الاسمى ، وهو تحويل مصر والسـودان الى مستعمرة انجليزية ، داخل دائرة الامبراطورية المرنة ، التى لا تغيب عنها الشمس !

مشروع برونيات :

وآخر مؤامراتهم التى أرادوا بها النزول بمستوى مصر الى مستوى المستعمرات البريطانية ، المشروع الذى أعده السير وليم برونيات المستشار المالى بالنيابة ، لتعديل القوانين والنظم القضائية والادارية ، بحيث تساير نظام الحماية الانجليزية على مصر ٠

ويتلخص المشروع فى انشاء مجلس نواب ، سلطته استشارية محضة ، وبجانبه مجلس شيوخ ، يملك السلطة التشريعية ، اعضاؤه خليط من المصريين والانجليز والاجانب ، وتكون الأغلبية فيه للانجليز والاجانب ، والأقلية للمصريين ٠ وبذلك يكون التشريع ووضع القوانين بيد غير المصريين ٠ وهو أمر لم يسبق له مثيل فى عهود مصر المختلفة ، حتى فى أوائل عصر الاحتلال ، وانما يمارسه الانجليز فى مستعمراتهم فى وسط وجنوبى افريقية ، حيث الاغلبية للبيض المستعمرين ، والاقلية للسود الوطنيين ، أصحاب البلاد الحقيقيين ٠

وقد قدم السير برونيات نسخة من المشروع الى حسين رشدى باشا رئيس الوزراء ، فى أواسط نوفمبر عام ١٩١٨ ، بقصد التوقيع عليه ، كما كان معتادا فى ذلك الوقت ، عندما تقدم المشروعات الانجليزية الى الوزارات المصرية ، لا بقصد مناقشتها ، ولكن بقصد التوقيع عليها ، دون مناقشة ٠ ولكن « رشدى باشا » رد عليه ردا شديدا ، ونقد المشروع نقدا لاذعا وبمجرد أن أذيع المشروع والرد عليه ، حملت عليه الصحف حملة شعواء ، وكان له أسوأ وقع فى نفوس المصريين قاطبة ٠ ولولا قيام ثورة مارس ١٩١٩ لنفذ المشروع بالقوة ، ولأصبح المصريون غرباء فى بلادهم ، وقد انحدرت كرامتهم وعزتهم الى درك سحيق ، وامحت شخصية مصر الدولية التى نالتها فى سنة ١٨٤٠ م ، وأقرتها الدول العظمى ٠

وقبيل نشوب الحرب الاوروبية الاولى فى أغسطس ١٩١٤ ، لم يكن احد يشك فى أن الانجليز قد اتموا مهمتهم فى صبغ مصر بصبغة الحماية٠ وأن الامر لم يكن ينقصه سوى اعلان الحماية على مصر ، اعلانا صريحا ٠ وبذلك تضع النقط فوق الحروف ، فلا يجد المصريون بعد ذلك مجالا لمناهضة الانجليز ، ومقاومتهم فى سبيل استعادة حريتهم واستقلالهم ، اذ يكون قد بلغ بهم اليأس منتهاه ، واليأس كما يقولون احدى الراحتين٠

اعلان الحماية على مصر

لهذا لم يضع الانجليز فرصة نشوب الحرب ، فنفذوا ما كانوا قد بيتوه من خطط ومكايد ، وعقدوا عليه العزم من مؤامرات ، فأعلنوا الحماية على مصر فى ديسمبر عام ١٩١٤ (١) ۰ وبذلك حلت الحماية السافرة ، محل الحماية المقنعة ، التى فرضوها عام ١٨٨٢ م ۰

وتذرعت لرفع الحماية على مصر بسبب غير معقول ۰ وما أكثر ما يتذرع به الاستعمار من أسباب واهية ، ليدرك رغبته ، ويحقق أهدافه : فذكرت فى تبرير فرضها الحماية على مصر ، انضمام تركيا لالمانيا فى حربها ضد انجلترا ۰ وقد كان هذا السبب أدعى الى أن تنجلى عن مصر ، وتعيد اليها حريتها واستقلالها !۰

ومما يزيد فى عدم شرعية هذه الحماية ، ومجافاتها للقانون الدولى ، أن مصر لم تطلب الى انجلترا حمايتها ، بل انها فرضتها عليها بدون رضاها ، ومع معارضتها لها كل المعارضة ۰ فهى والحالة هذه باطلة قانونا وعرفا ، فلا غرو أن قاومها المصريون بكل شدة ، وعدوها اعتداء على حقوقهم وحريتهم ، مما اضطر اللورد ملنر أن يقرر اخيرا انها علاقة غير مرضية ، يمقتها المصريون أشد المقت ۰

خلع الخديو عباس الثانى

واقترن بفرض الحماية على مصر ، خلع الخديو عباس الثانى ، الذى كان حينئذ بتركيا ، بدعوى انضمامه الى تركيا ، وسيره مع الحملة التركية الموجهة الى مصر عن طريق سورية ، ثم تولية الأمير حسين كامل سلطانا على مصر ، فى ظل الحماية ۰ وبعد وفاته عام ١٩١٧ تولى الأمير احمد فؤاد سلطنة مصر ۰

وقد قابل المصريون كل هذه التغييرات فى الوضع السياسى لمصر بالوجوم والامتعاض ۰ ولما كانت الأفواه مكممة ، وسيف الاحكام العرفية مصلتا على رقاب المصريين ، والجيوش الانجليزية تتدفق على البلاد من كل حدب وصوب ، لم يرتفع صوت بالاحتجاج على هذا العبث بأنظمة الحكم فيها ، والجرائم التى ترتكب فى حقها ، والمكايد والمؤامرات التى تنصب

---

(١) انظر اعلان الحماية ص ٢٩ من كتاب القضية المصرية الصادر عن الحكومة المصرية ۰ طبع المطبعة الاميرية ١٩٥٥ ۰

لها • وكبت المصريون ألمهم ، وكظموا غيظهم ، وصبروا على المحنة ، صبر الكرام ، الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا •

استيلاء الانجليز على المحصولات الزراعية

وكان فرض الحماية على مصر رخصة تخول انجلترا حق التصرف فى البلاد تصرف المالك فى ملكه : فوضعت يدها على أقوات الشعب وأرزاقه، وصادرت محصولات الفلاحين وما تنبته أراضيهم ، لتدبر الغذاء لجيوشها ، وجيوش حلفائها ، كما لو كان لمصر ضلع فى هذه الحرب • واستولت على حيواناتهم ودوابهم وماشيتهم ، قوة واقتدارا ، لقاء أبخس الاثمان وأدناها• فعانت البلاد نقصا فى غذائها وأقواتها ، طيلة سنى الحرب ، التى استمرت أربع سنوات • كذلك استولت على القطن ، وهو أساس الثروة فى مصر ، بأرخص الأثمان أيضا ، وتولت هى بيعه الى الدول التى تنسج القطن ، بأغلى الاثمان • فحل بالاقتصاد المصرى الخراب والدمار •

سوق المصريين الى الميدان الشرقى لمعاونة الانجليز

ولم تكتف بهذا ، بل ساقت قسرا ، الى الميدان الشرقى للقتال ، مليونا ونصف المليون من الفلاحين والعمال المصريين ، لمعاونة جيوش الحلفاء : بتمهيد الطرق ، وحفر الآبار فى صحراء سيناء وفيافى الشام ، مما كان له أكبر الأثر فى احراز النصر على الحملة التركية التى جاءت لغزو مصر من ناحية الشرق •

ولا ننسى الدور الذى لعبته المدفعية المصرية على ضفاف قناة السويس ، مما أشاد بذكره قواد الحلفاء ، وكبار ضباطهم ، ولكنه لم يحمد لمصر ، أو يذكر بالفضل والتقدير !

وقد كان هؤلاء العمال يساقون سوق الانعام ، ويعاملون أسوأ معاملة ، ويربطون بالحبال ، كما لو كانوا أسرى حرب ، لا يهتم بغذائهم أو راحتهم ، ولا يعنى بصحتهم • ولقد مات كثير منهم فى ميادين القتال ، فى صحراء سيناء والعريش ، أو فى العراق وفرنسا • وأصيب كثير منهم بالأمراض والعاهات ، التى اقعدتهم عن العمل فيما بعد • وقد روى العائدون منهم الى مصر قصصا من ألوان العذاب ، تقشعر منها الأبدان ، مما كان له اكبر الاثر فى حنق المصريين على الانجليز ، ومما مهد لقيام الثورة فى جميع ارجاء مصر ، وبين جميع طبقات المصريين بلا استثناء •

الاستيلاء على طرق المواصلات :

هذا بالاضافة الى استيلاء السلطات العسكرية على السكك الحديدية المصرية ، وتسخير قطرها فى نقل الجنود والذخائر والمؤن الى ميادين القتال ، طوال مدة الحرب ، فبليت ، وأدركها العطب والتلف • كذلك استولت على طرق المواصلات الأخرى ، والموانى ، والجمارك المصرية ، وسخرتها جميعا لخدمة جيوشها وجيوش حليفاتها •

تنازل مصر لانجلترا عن ديون الحرب

وأكثر من هذا : فقد تنازلت مصر لانجلترا عن مبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات ، كانت مصر أقرضتها انجلترا لصرفها على شئون الحرب ، وتدبير المؤن ، وأداء الخدمات المختلفة لجيوشها فى مصر • وليس من شك فى أن مصر أكرهت على هذا التنازل ، كما أجبرت قبل ذلك على التنازل عن نصف السودان ، وتلك هى طريقة تعامل الضعيف مع القوى المستبد• وقد قرر مجلس الوزراء التنازل عن هذا المبلغ الجسيم فى جلسته المنعقدة فى ٩ مارس ١٩١٨ •

ولعمرى انه لسخاء منقطع النظير ، قابله الانجليز الصفقاء بالنكران والعقوق ، واذاقة المصريين من الظلم والعسف ألوانا ، عند قيام ثورة مارس عام ١٩١٩ ، وفى هذا قال الشاعر :

ومن يصنع المعروف فى غير أهله   يكن حمده ذما عليه ويندم

وقول الآخر :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

فضل موقع مصر الاستراتيجى فى كسب الانجليز الحرب

ولا ننسى فضل موقع مصر الاستراتيجى فى زمن الحرب ، هذا الموقع الفريد ، الذى أفاد انجلترا وحليفاتها فائدة تجل عن كل تقدير ، فى احراز النصر على أعدائها :فالى مصر كانت ترد الجيوش من المستعمرات الانجليزية والفرنسية • ومنها كانت ترسل الى جميع الميادين شرقا وغربا • هذا بالاضافة الى أنها كانت بمثابة مخزن للمؤن ، ومستودع للمواد الحربية ، تمد بها الجيوش فى جميع الميادين •

مصائب أخرى حلت بالبلاد من جراء الحرب

وبالرغم مما أذاقه الانجليز المصريين من ألوان الخسف ، وسوء المعاملة طوال ايام الحرب ، من فرض الرقابة على الصحف ، واشهار سيف الأحكام العرفية على رقاب المصريين ، ونشر الجاسوسية بين جميع طبقات الشعب ، والقبض على الكثيرين ، والزج بهم فى غياهب السجون ، بلا محاكمة أو مقاضاة، أو نفيهم وتشريدهم خارج البلاد ، وعبث الجنود الانجليز والاستراليين وجنود الحلفاء بكرامة المواطنين ، ونشرهم الفساد فى طول البلاد وعرضها ، من سرقة ، ونشل وتعد على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ، بالرغم من كل ذلك ، فقد أخلد المصريون الى الهدوء والسكينة ، ولم تحدثهم نفوسهم بالقيام بشىء يعرقل جهود الانجليز وحلفائهم فى ادراك النصر على اعدائهم • ولقد كانوا قادرين على احداث الشغب ، والقيام بالثورة ، وقطع طرق المواصلات ، ونسف مخازن المؤن والذخائر ، وتمهيد السبيل للاتراك والألمان كى ينقضوا على الانجليز فى مصر ، وتفويت فرص النصر عليهم ، والحاق الهزيمة بهم • وبعبارة مختصرة ضربهم من الخلف ضربة قاصمة كانت تنهى الحرب فى غير مصلحتهم •

الانجليز يقلبون لمصر ظهر المجن

هذه خلاصة وجيزة لما انزله الانجليز بمصر والمصريين ، من ألوان العسف والظلم ، طوال مدة الحرب الأوروبية الأولى ، وما قبلها ، وما قدمه المصريون من تضحيات وخدمات ، لا يمكن أن تقدر بثمن ، مما جلب النصر والفوز للانجليز وحلفائهم •

وقد كان المصريون يأملون بعد أن أحرزوا النصر ، أن يحمدوا للمصريين صنيعهم ، وأن يقدروا لهم جهودهم ، وأن يردوا لهم حريتهم واستقلالهم ، ويرفعوا عن مصر الحماية التى وصفوها بانها ضرورة اقتضتها الحرب ، لا تلبث أن تزول بزوالها ، وخصوصا بعد أن أعلن ولسن ، رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، فى ٨ من يناير عام ١٩١٨ ، شروطه الأربعة عشر ، ومن بينها حق كل شعب فى تقرير مصيره ، واختيار طريق الحكم الذى يرتضيه لنفسه ، واتخذ كثير من الأمم الصغيرة ، التى هى دون مصر أهمية ومركزا عالميا ، وماضيا مشرقا ، وعلما وثقافة وحضارة ، طريقها الى مؤتمر الصلح الذى تقرر عقده فى فرسايل ، برياسة الرئيس ولسن ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها فى اكتوبر عام ١٩١٨ ، وأعلنت الهدنة فى ١١ من نوفمبر من السنة نفسها

اتخذت هذه الشعوب طريقها الى مؤتمر الصلح كي تعرض مطالبها ، وتشرح وجهات نظرها ، وفق شروط الرئيس ولسن ، وتصريحات الحلفاء في أثناء الحرب .

أما مصر ، ذات الحضارة القديمة ، والتاريخ المجيد ، فينكرون عليها هذا الحق . ويحكمون عليها بالاستعباد والاسترقاق ، طمعا في خصب أرضها ، وصفاء جوها ، وعذوبة نيلها ، ومركزها الجغرافي الممتاز .

والحق أن جميع أسباب الثورة ، كانت قد توافرت ، ولم يبق الا شرارة فتندلع نارها ، ويتأجج جمرها ، وينفجر المرجل الذى ظل يغلى حتى بلغ أقصى درجات الغليان ، ويعلن المصريون راية العصيان ، ويشهرون في وجوه الانجليز المقاومة والسخط والغضب ، الذى اعلنوه من قبل في وجه نابليون بونابارت عام ١٧٩٨ م .

تأليف الوفد المصرى :

واتباعا لسياسة الاعتدال ، واستمساكا بالتعقل والروية ، ومراعاة لسياسة المسالمة ، قام ثلاثة من رجالات مصر الأفذاذ ، هم : سعد زغلول (باشا) وعلى شعراوي (باشا) وعبد العزيز فهمى (بك) ، عندما وضعت الحرب اوزارها ، وأعلنت الهدنة ، بمقابلة المندوب السامى البريطانى ، السير ريجنالد ونجت ، يوم ١٣ من نوفمبر عام ١٩١٨ ، يطلبون السماح لهم بالسفر الى لندن ، لمقابلة وزير خارجية انجلترة ، للمباحثة في مستقبل مصر ، وطريقة الحكم التى ستكون عليها بعد الحرب .

وقد لاحظ أعضاء الوفد الثلاثة ، في أثناء الحديث الذى دار بينهم وبين المندوب السامى ، استهانة بأمانى مصر فى الحرية والاستقلال ، تلك الامانى التى عبروا عنها خير تعبير ، واستكثر عليهم (أن يتحدثوا عن أمر أمه بأسرها ، دون أن يكون لديهم ما يخولهم صفة التحدث باسمها) . مع أن سعدا كان وكيل الجمعية التشريعية المنتخب ، وكان زميلاه عضوين في هذه الجمعية ، ويحق لهم بهذه الصفة ان يتحدثوا عن الامة بأسرها .

ولكن الزعماء الثلاثة ، شرعوا بمجرد انصرافهم من دار الحماية ، وفى اليوم نفسه ، فى تأليف هيئة الوفد المصرى ، الذى سيطالب بحرية مصر واستقلالها ، من رجال الجمعية التشريعية ، وبعض الشخصيات السياسية البارزة . وبدأ بجمع توكيلات من الشعب ، تخوله هذه

الصفقة • وقد انهالت عليه التوكيلات من كل مكان ، بالرغم من العقبات التى كانت السلطة العسكرية البريطانية تضعها فى سبيل جمعها •

ولقد كان الوفد ، الى هذه اللحظة ، يحسن الظن بالانجليز • فوردت فى صيغة التوكيل الأولى ، أن الوفد يسعى الى الاستقلال التام تحت راية بريطانيا العظمى • فلم يرض الشعب عن هذه الصيغة ، وكنت حينئذ طالبا بالمدرسة الخديوية الثانوية ، فتوجهت الى دار سعد زغلول ، مع بقية مندوبى المدارس ، نطالب بتغيير هذه الصيغة ، وحذف اسم بريطانيا منها • وفعلا نزل الوفد على ارادة الشعب ، وحذف اسم بريطانيا من التوكيل • ثم أخذ يعيد الكرة فى طلب السماح له بالسفر الى لندن •

وبعد تسويف ومراوغة من جانب السلطات العسكرية الانجليزية ، رفضت السماح للوفد بالسفر ، وطلب اليه تقديم مقترحات للمندوب السامى ، بخصوص كيفية الحكم فى مصر « بما لايخرج عن الخطة التى رسمتها حكومة جلالة الملك ــ ملك الانجليز ــ وأعلنتها من قبل » • أى أن هذه المقترحات يجب ألا تتعدى دائرة الحماية التى أعلنتها انجلترا فى ديسمبر عام ١٩١٤ •

كذلك كان رشدى (باشا) رئيس الحكومة المصرية آن ذاك ، قد طالب بالسماح له ولزميله عدلى يكن (باشا) وزير المعارف ، بالسفر الى لندن ، للغرض نفسه ، الذى طالب به الوفد ، فقوبل طلبه بالتسويف ، بحجة غياب المستر بلفور ، وزير خارجية انجلترة عن لندن ، واشتغاله بمفاوضات الصلح ، فدل الرفض بالنسبة للوفد ، والتسويف بالنسبة للحكومة ، على سياسة المراوغة والخداع التي كانت تنوى انجلترا اتباعها حيال مطالب مصر والمصريين •

استقالة وزارة رشدى •

لذلك بادر حسين رشدى باشا بتقديم استقالته فى ديسمبر عام ١٩١٨ ، تضامنا مع الوفد ، وظلت هذه الاستقالة معلقة حتى الاول من مارس عام ١٩١٩ ، حين قبلها السلطان فؤاد ، بعد أن نفدت حيلة الانجليز فى اغراء رشدى باشا على سحبها ، وكان قد اشترط لسحبها أن يسمح له ، ولكل من يريد من المصريين بالسفر الى اوروبا • فظلوا يحاورون ويداورون • وأخيرا سمحوا له ولزميله عدلى باشا وحدهما بالسفر ، ورفضوا السماح للوفد • فاصر على الاستقالة • وكان هذا من جانبه عملا وطنيا رائعا ، شد به أزر الشعب ، وسانده فى مطالبه •

والآن وقد انفضح المستور ، وكشفت السياسة الانجليزية القناع عن وجهها ، وأبان الانجليز عن لؤمهم وخداعهم ، وعما بيتوه للمصريين من مؤامرات لاستعبادهم واذلالهم ، لم يبق سوى طريق واحد ، لا ثانى له ، وهو اعلان الجهاد ، واشهار المقاومة الشعبية ، وانتزاع الحرية والاستقلال بالقوة من براثن القراصنة المستعمرين • اذ لايفل الحديد الا الحديد ، ورحم الله شوقى حيث يقول :

وما نيل المطالب بالتمنى
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

نفى سعد وثلاثة من زملائه •

لهذا أخذ الوفد يعمل جادا ، لاحباط المؤامرات الانجليزية • وبدأ نشاطه بارسال الاحتجاجات الى معتمدى الدول ، ورئيس وزراء انجلترة لويد جورج • وشرع يعقد الاجتماعات العامة ، وفيها كان سعد (باشا) يلقى الخطب النارية ، محتجا على أعمال الانجليز ، منتقدا سوء تصرفهم ، وخبيث سلوكهم ، حيال مصر والمصريين • فأرادت السلطات العسكرية الانجليزية ، محتمية فى ظل الاحكام العرفية ، أن تقضى على الحركة فحرمت على الوفد عقد الاجتماعات ، وأنذرته بسوء المصير • فلما لم يذعن لأوامرها الغاشمة ، القت القبض فى ٨ من مارس على سعد وثلاثة من زملائه ، وهم : محمد محمود (باشا) ، واسماعيل صدقى (باشا) وحمد الباسل «باشا» ونفتهم الى جزيرة مالطة ، وظنت بذلك أنها اطفأت الشعلة ، التى قال برونيات فى قحة وصفاقة « انها شعلة تطفئها بصقة » ، ولكنهم لم يدروا أنهم قد اشعلوا فتيل ثورة عارمة ، لاتقوض ملكهم فى مصر فحسب ، ولكنها ستقضى على امبراطوريتهم المرنة ، وتدك أركانها فى قارتى آسيا وافريقية •

مقدمات الثورة :

وما ان انتشر خبر نفى سعد وزملائه الى جزيرة مالطة ، حتى أثار حفيظة الشعب المصرى ، وأهاج لواعج سخطه على الانجليز ، وحرك غضبه الدفين على الاستعمار والمستعمرين • فقام الشعب قومة رجل واحد ، يعلن مقته على الحماية ، ويطالب بحريته واستقلاله التام • فجن جنون الانجليز ، وانقلبوا ذئابا كاسرة وانقضوا على المتظاهرين العزل ، يحصدونهم برصاص بنادقهم ، ويزهقون أرواحهم • وما كان الاعتداء

الهمجى الا ليزيد الشعب حماسا واصرارا على المقاومة ، وامعانا فى الجهاد • وقد صدق الشاعر حيث يقول :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يراق على جوانبه الدم

الاضراب والمظاهرات تعم ارجاء القاهرة •

بدأ سخط الشعب يتجلى فى اضراب الطلبة عن تلقى الدروس يوم ٩ من مارس عام ١٩١٩ • وما جاء يوم ١٠ حتى كان الاضراب عاما •وسار الجميع فى مظاهرة ضخمة ، اخترقت شوارع القاهرة وميادينها • فكان جنود الاحتلال يتصدون لها هنا وهناك ، يقذفونها بنيران بنادقهم ، فوقع كثير من القتلى والجرحى • ولم يمنع ذلك استمرار المظاهرات أيام ١١ ، ١٢ ، ١٤ من الشهر نفسه • وقد امتد الاضراب الى بقية الطوائف : فأضرب المحامون يوم ١١ ، وعمال العنابر يوم ١٥ ، ثم عمال الترام والسيارات ، فتعطلت المواصلات بجميع أنواعها فى القاهرة •

مشاركة المرأة للرجل فى اظهار سخطها •

وشاركت المرأة الرجل فى اظهار سخطها ، فتألفت مظاهرة من فضليات السيدات المصريات ، وكرائم العائلات يوم ١٦ من مارس عام ١٩١٩ ، زاد عددهن على ثلثمائة سيدة ، وقدمن الاحتجاجات الى معتمدى الدول ، على ما أصاب الأبرياء من القتل والتنكيل ، فى المظاهرات السابقة •

المظاهرات فى الاقاليم •

وما كادت تتسرب أخبار المظاهرات من القاهرة الى الاقاليم ، حتى ثارت حماسة الاهالى فيها ، وتحركت فى نفوسهم عوامل السخط والغضب ، من عسف الانجليز وظلمهم ، وقامت المظاهرات فى كثير من مدن الوجه البحرى ، ثم فى أغلب مدن الوجه القبلى • وبذلك تكون المظاهرات والاضرابات قد عمت البلاد من اقصاها الى اقصاها ، دون سابق ترتيب أو انذار ، أو توجيه أية هيئة أو جماعة • بل ان الثورة كانت طبيعية واجماعية ، اظهر فيها الشعب تضامنا عجيبا ، وتوافقا مذهلا ، واخلاصا صادقا ، مما أذهل الانجليز وأقض مضاجعهم ، وقلب

خططهم ومؤامراتهم رأسا على عقب ، وأظهر بجلاء سوء تدبيرهم ، وفساد تفكيرهم ، وقصر نظرهم ٠

ونفس الشعب عن آلامه وغضبه ، بقطع السكك الحديدية فى ١٦ من مارس عام ١٩١٩ ، وكذا الاسلاك التلغرافية بين القاهرة والوجهين البحرى والقبلى ٠ فلم يأت يوم ١٨ الا وصارت القاهرة منعزلة عن جميع بلاد القطر ٠ وتعذر على الناس الانتقال من جهة الى أخرى ، بين القاهرة والاقاليم ، أو بين الأقاليم بعضها وبعض ، الا بطريق السفن فى النيـــل والترع ٠ وفى هذا دلالة على ما وصل اليه الســـخط العام ، والغضـــب الاجماعى ، من مظالم الانجليز ، وسوء سياســـتهم الأمر الذى لم يكن يتوقعه المحتلون ، ولم يستطيعوا تبينه والاحساس به ، لبلادة شعورهم ، وقصر نظرهم ، وضيق تفكيرهم ، وقلة خبرتهم بأحاسيس الشـــعوب ، ونفسياتها ، ودوافع تحركها وثوراتها ، وظنهم أن القوة والبطش هما كل ما يحتاجون اليه فى سياسة الشعوب وحكمها ، واخضاعها لارادتهم ٠

مظاهرة ١٧ من مارس الكبرى :

وقد تجلى بأروع مظهر اجماع الامة على مقت الحماية الانجليزية ، والاصرار على المطالبة بالاستقلال التام ، فى المظاهرة الكبرى التى قامت يوم ١٧ من مارس عام ١٩١٩ ، ولم تر السلطات العسكرية الانجليزية مندوحة من السماح لها بالسير فى جميع شوارع القاهرة وميادينها ٠ وقد سارت فى أروع نظام ٠وكانت مؤلفة من مواكب متلاحقة ،تحمل أعلامها وشارات طوائفها ٠ وانتظم فيها الألوف من طبقات الامة كافة ٠ فسار فيها العلماء والقضاة ، والمعلمون ، والمحامون ، والتجار ، وأرباب الأعمال ، وطلبة الازهر والطلاب جميعا ، وطوائف العمال والصناع ٠

تعيين اللورد اللنبى مندوبا ساميا ٠

وظلت المظاهرات تتالف كل يوم ، ولم يابه الجمهـــور لتهديدات السلطات العســكرية ، ولم ترهبه المتراليوزات ولا المدافع الرشـــاشة المنصوبة فى الميادين ، والتى كانت تفتك بالناس فتكا ذريعا ، غير مفرقة بين الاطفال والشـيوخ والنساء ، مما حدا بالحـــكومة الانجليزية أن تسحب السير ريجنـــالد ونجت ، وتعين بدله الجنرال اللنبى ، مندوبا ساميا فوق العادة ، لعله يفلح فى القضاء على الحركة الوطنية ، ويفرض على المصريين الطاعة والولاء للانجليز المستعمرين ٠

وصل اللنبى الى القاهرة فى ٢٥ من مارس عام ١٩١٩ ، وقد اقترن

حضوره الى مصر باضراب الموظفين يوم ٢ من ابريل عام ١٩١٩ ، فلم تبق طبقة من طبقات الأمة الا أعلنت رأيها فى بطلان الحمـــاية ، وطالبت بالحرية والاستقلال التام ، واستنكرت اعتداء الجنود الانجليز على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ، وحرق القرى والتنكيل بأهلها ، وسلبهم أموالهم ، كما حدث فى قريتى العزيزية والبدرشين ، مما لايصدر الا عن أحط الأمم ، واكثرها همجية ووحشية •

ولو أن استفتاء عاما أجرى فى شعب من الشعوب ، لتقرير مصيره ، ما اتخذ طريقا أروع ولا أجلى من هذا الاستفتاء ، الذى أعلن فيه الشعب المصرى عن بكرة ابية اجماعه المطلق ، على المطـــالبة بالغاء الحمـاية ، واستعادة حريته واستقلاله •

ولكن الانجليز المستعمرين ، الذين قدت قلوبهم من الصـــخر ، وعميت عيونهم وبصائرهم ، لم يكونوا ليؤمنوا بمثل هذا الاستفتاء ، أو يرضـــوا عنه ، ولم يصيخوا السمع الى الهتافات العالية ، التى شـــقت عنان السماء ، مطالبة بالاستقلال • ولقد صمموا على ألا ينجلوا عن البلاد، الا وأنفهم راغم فى التراب ، تلاحقهم اللعنات ، وتشيعهم عبارات السخط والكراهية •

الافراج عن سعد وزملائه •

أدرك الانجليز ، ولكن بعد فوات الوقت ، أن قمع المظـــــاهرات بالحديد والنار ، لايزيدها الا قوة واشتعالا • ذلك لأن الانجليز كما سبق القول ، قوم اتسموا بقصر النظر ، وتميزوا ببلادة الفكر ، فعرفوا أنهم ركبوا متن الشطط ، بتحريمهم على الزعماء المصريين السفر الى اوربا ، واعتقالهم سعدا وزملاءه •

لذلك رجعوا عن غيهم ، وقرروا فى ٧ من ابريل عام ١٩١٩ الافراج عن سعد وزملائه ، والسماح لمن أراد من المصريين بالســـفر الى أى مكان ولكنهم كعادتهم فى تدبير المؤامرات ، كانوا قد دبروا الخطة ليحصلوا من مؤتمر الصلح على موافقته على الحماية ، وليوصدوا أبوابه فى وجـــه المصريين ، فلا يسمع أحد الى دفاعهم عن أمانى الشعب المصرى وآماله •

موافقة مؤتمر الصلح على الحماية :

سافر أعضاء الوفد المصرى من القـــاهرة فى ١١ من ابريل عام ١٩١٩ • وقد قوبلوا فى جميع المحطات التى مر بهـــا القطار من القاهرة

الى بور سعيد ، بمظاهرات الفرح والابتهاج ، التى تنم عن شعور الأمة واستبشارها بقرب ساعة الخلاص من ربقة الاحتلال • وقصدوا الى جزيرة مالطة ، حيث اجتمعوا بسعد وزملائه • وقصد الجميع الى باريس ، ليعرضوا مطالب مصر على مؤتمر الصلح •

ولشد ما كانت دهشتهم وخيبة أملهم ، أن يصدموا بمجرد وصولهم الى باريس ، باعتراف الرئيس ولسن بالحماية ، الرئيس ولسن صاحب الشروط الأربعة عشر ، التى تقرر حق كل شعب فى تقرير مصيره •ومن عجب أن ينضوى تحت لواء الانجليز ، ويتنكر لمبادئه ، ويقع تحت اغرائهم ، فينتزعوا موافقته على الحماية ، ويتبع ذلك موافقة مؤتمر الصلح عليها وتسجيل ذلك ضمن شروط معاهدة الصلح ، التى أمضيت فى فرسايل فى ٢٨ من يونية عام ١٩١٩ •

والواقع أن لويد جورج ، رئيس وزراء بريطانيا اذ ذاك ، استطاع بكل ما أوتيه من مكر ودهاء أن يسيطر على الرئيس ولسن ، بعد أن أوقع بينه وبين كثير من الدول ، فانفضت من حوله ، وأوهمه ان بريطانيا هى التى تقف الى جانبه ، وتسانده ، عندئذ اغتنم لويد جورج هذه الفرصة ، وانتزع منه موافقته على الحماية على مصر •

اغراق الانجليز فى تنكيلهم بالمصريين نتيجة لموافقة مؤتمر الصلح على الحماية •

ظن الانجليز أنهم قد كسبوا الجولة الأولى ، بموافقة مؤتمر الصلح على الحماية ، وأنهم قد حسموا الخلاف بينهم وبين المصريين ، ووضعوهم أمام الامر الواقع ، الذى لاقبل لهم على تغييره أو تبديله • وضربوا حول اعناقهم قيدا لايستطيعون الفكاك منه ، واطمأنوا الى أنهم قد أصبحت لهم السيطرة التامة على البلاد وأهلها ، وصاروا لايخشون تدخلا أو معارضة من أية دولة من الدول •

لذلك واصلوا التنكيل والبطش بالمصريين ، وأمعن جنود الاحتلال فى اعمال النهب والسرقة ، وحرق القرى ، وجلد كل من يشتبهون فى أمره ، وفرض الغرامات الفادحة على المناطق التى حدث بها تخريب أو تدمير ، فى السكك الحديدية أو ممتلكات الحكومة ، وانتشار المحاكم العسكرية فى طول البلاد وعرضها ، للانتقام من المصريين ، وانزال اقسى العقوبات بهم •

الاحتفال بالتوقيع على معاهدة الصلح :

ومن الغريب أن تحدث كل هذه المظالم ، وتدبر المؤامرة لاعتراف مؤتمر الصلح بالحماية ، وتقوم الحكومة المصرية ، برئاسة محمد سعيد (باشا) بالاحتفال بالتوقيع على معاهدة الصلح ، فتعطل الوزارات والمصالح يوم ١٠٤ من يوليو عام ١٩١٩ ، وتطلق المدافع فى القاهرة والاسكندرية ، ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة !

وهكذا بلغ احتقار الانجليز للرأى العام المصرى ، والاستهانة بشعور المصريين درجة لاتحتمل . ولكن هذه الاستهانة كانت فى الواقع، حافزا للمصريين على أن يواصلوا جهادهم ، ويتابعوا كفاحهم ، الى ان يكتب لهم النصر على القوم الظالمين .

ولحافظ ابراهيم فيما تحدثه المظالم من حفز للهمم ، واذكاء للشعور الوطنى ، وحث على مواصلة الجهاد قصيدة عامرة جاء فيها : ــ

قتيل الشمس(١) أورثنا حياة	وأيقظ هاجع القوم الرقود
فليت كرومرا قد دام فينا	يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف مصر آنا بعد آن	بمجلود ومقتول شهيد
لننزع هذه الاكفان عنا	ونبعث فى العوالم من جديد

لجنة ملنر .

تبين للانجليز بجلاء أن الشعب المصرى يمقت الحماية كل المقت ، ولم تجد أعمال القسوة والشدة فى انتزاع موافقة المصريين ورضاهم عن الحماية . لذلك عولوا على انتهاج طريقة جديدة لادراك مأربهم ، خطة تنطوى على الحيل والمداهنة ، التى يلجئون اليها عندما لاتسعفهم قوة الحديد والنار ، لاحراز النصر . تلك هى خطة المفاوضة والمحاورة ، لذلك اعتزموا ايفاد لجنة برياسة اللورد ملنر ، وزير المستعمرات ، الى مصر ، وأعلنوا أن مهمتها التحقيق فى أسباب الاضطرابات ، التى حدثت أخيرا فى مصر ، وتقديم تقرير عن الحالة فى تلك البلاد ، **وعن شكل القانون النظامى الذى يعد تحت الحماية ، خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء فيها ، وتوسيع نطاق الحكم الذاتى** لها ، توسيعا مطرد التقدم والترقى ، وحماية المصالح الاجنبية .

---

(١) يقصد بقتيل الشمس الضابط الانجليزى الذى أصيب بضربة الشمس فى حادثة دنشواى، فكانت سببا فى وفاته .

وهنا يظهر اصرار انجلترة على استمرار نظام الحماية على مصر ، وعدم تحولها عن هذا النظام . وانظر وتعجب ، كيف بدأت دعوى الاحتلال ؟ والى أى حجة تطورت ؟ تعرف انها بدأت بدعوى تثبيت الخديو على عرشه ، وتطورت **الآن الى حماية المصالح الاجنبية . أليس هذا هو العبث بعقول الناس** ، والزراية بأحلامهم ، والاستهانة بالوعود وتصريحات الساسة الانجليز وحكومتهم الموقرة ؟!

مقاطعة لجنة ملنر :

لذلك قرر المصريون مقاطعة هذه اللجنة ، وعدم الاتصال بها بأى شكل – وقام الطلاب بالقاء التحذيرات من الاتصال بتلك اللجنة فى المساجد عقب صلاة الجمعة ، وكنت واحدا من هؤلاء ، حيث حذرت المصلين عقب صلاة الجمعة فى جامع الشامية المواجه لوزارة الداخلية .

ولذلك وجدت اللجنة عند حضورها الى مصر فى ٧ من ديسمبر عام ١٩١٩ ، اجماعا من المصريين بجميع طبقاتهم على مقاطعتها ، والاعراض عنها . وقامت المظاهرات فى كل مكان ، لتعلن احتجاجها عليها ، وتجاهر بمقتها للحماية ، ومطالبتها بالحرية والاستقلال .

وبعد أن قضت لجنة ملنر فى مصر ثلاثة أشهر ، تبينت خلالها اصرار المصريين على رفع اصر الحماية عن بلادهم ، وأنهم لايرضون بغير الاستقلال التام بديلا . وبعد أن يئست من اتصال أحد من المصريين بها ، عولت على العودة من حيث أتت . فغادرت البلاد فى ١٨ من مارس عام ١٩٢٠ عائدة الى انجلترة .

دعوة الوفد الى مفاوضة لجنة ملنر فى لندن .

قلنا : ان الانجليز عندما لاتسعفهم قوة الحديد والنار لادراك مآربهم ، يلجئون الى المداورة والمداهنة . وعلى هذا الأساس حاول اللورد ملنر أن يستدرج الوفد الى الدخول معه فى مفاوضات ، بوصفه وكيلا عن الشعب ، الذى قاطع لجنته مقاطعة تامة . فأرسل اليه فى باريس أحد اعضاء لجنته ، لاقناعه بالقدوم الى لندن ، والدخول فى مفاوضات ، دون أن يتقيد أحد الطرفين بأى قيد .

ولما كانت أبواب مؤتمر الصلح موصدة فى وجه الوفد ، ولم يتيسر له العمل على استرداد حق مصر المغتصب ، فانه لم يرضيرا فى اجابة لورد

ملنر الى دعوته ، بعد أن بعث بعض أعضائه الى لندن ، للاستيثاق من جدية هذه الدعوة ، وهل للانجليز رغبة حقيقية فى التفاهم مع مصر ؟ ومن ناحية أخرى رأى الوفد أن فى دعوة الانجليز للمفاوضة معه ، اعترافا ضمنيا بنيابته عن الشعب المصرى ، ووكالته فى التحدث عنه •

المفاوضات •

ذهب الوفد الى لندن فى ٥ من يونية عام ١٩٢٠ ، وانتهت المفاوضات بين الوفد ولجنة ملنر بمشروع معاهدة (١) قدمه اللورد ملنر الى الوفد فى ١٧ من يوليو عام ١٩٢٠ رفضه الوفد اذ رأى فيه تحايل الانجليز على بسط الحماية على مصر ، واكساب مركزهم فيها صبغة شرعية • وتقدم بمشروع مضاد (٢) ، ضمنه الاعتراف باستقلال مصر ، ورد الحرية اليها ، فرفضته اللجنة ، وتقدمت بمشروع ثان فى ١٨ من اغسطس ١٩٢٠ ، ذكر اللورد ملنر أنه اقصى ما تستطيع انجلترة ، أن تقدمه من عروض لمصر ، ويشترط اما أن تقبله كله ، او ترفضه كله فما كان من سعد الا أن أرسله الى مصر ، مع بعض أعضاء الوفد ، لعرضه على الشعب ، ليقول فيه كلمته الفاصلة ، وقد وصفه سعد بأنه (مشروع ظاهره الاستقلال والاعتراف به ، وباطنه الحماية وتقريرها) • هذا فضلا عن اغفاله أمر السودان ، وعدم الاشارة اليه بكلمة واحدة •

توقف المفاوضات :

وقد تمخض عرض المشروع على الشعب عن تحفظات ، رأى ضرورة ادخالها على المشروع ، وتعديله على ضوئها • فأبى لورد ملنر مناقشة هذه التحفظات قبل الموافقة على المشروع نفسه • ولذلك توقفت المفاوضات وغادر الوفد لندن عائدا الى باريس فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩٢٠ •

تقرير لجنة ملنر •

لمس لورد ملنر عن كثب ، فى أثناء زيارته لمصر ، مقت المصريين للحماية التى فرضتها عليهم انجلترة فرضا ، دون أن يسعى لها المصريون• كذلك لمس فى اثناء مفاوضته مع الوفد المصرى ، تمسكه باستقلال مصر، واصراره على استعادة البلاد لحريتها •

---

(١) انظر نص المشروع بكتاب القضية المصرية ص ٨٧ ــ ٨٨ •
(٢) انظر نص المشروع بالمصدر السابق ص ١٩ ــ ٩٢ •

لذلك ، فقد نصح اللورد ، في تقريره (١) ، الذى قدمه الى وزير خارجية انجلترة فى ٩ من ديسمبر ١٩٢٠ عن نتائج المفاوضات مع الوفد المصرى ، بالعدول عن السياسة التى تتبعها دولته مع مصر ، وأن يستبدل بالحماية معاهدة يعترف فيها باستقلال مصر ، مع المحافظة على مصالح انجلترة فيها ، وعدم المساس بالحالة الراهنة فى السودان .

ونصح أيضا أن يقوم بالمفاوضات ، لعقد هذه المعاهدة ، وفد رسمى تنتدبه حكومة مصر لهذا الغرض .

وزارة عدلى والمفاوضات :

وكخطوة أولى ، لتنفيذ توصيات لجنة ملنر ، أبلغت انجلترة مصر فى ٢٦ من فبراير عام ١٩٢١ على يد اللورد اللنبى ، عزمها على الغاء الحماية ، ودعوتها الى تأليف وفد رسمى للمفاوضة فى عقد معاهدة بين الجانبين . فاستقالت وزارة نسيم باشا فى ١٥ من مارس عام ١٩٢١ ، ودعا السلطان فؤاد «عدلى باشا» الى تأليف الوزارة ، والتمهيد للقيام بالمفاوضة المقبلة . فتألفت فى ١٧ من مارس عام ١٩٢١ . وقد وافق سعد زغلول على تأليف هذه الوزارة ، التى أطلق عليها اسم وزارة الثقة ، وعاد الى مصر من باريس فى ٤ من ابريل عام ١٩٢١ ، وقد كان المفروض أن يشترك الوفد المصرى مع الوفد الرسمى فى المفاوضات ، ولكن قام الخلاف بين عدلى وسعد على رياسة وفد المفاوضات . فكان سعد يريد أن تكون رياسة الوفد له ، على حين كان عدلى يرى أنه بحكم منصبه ، كرئيس للحكومة ، يجب أن تعقد له رياسة الوفد .

الخلاف بين عدلى وسعد :

دب اذن الخلاف بين الوفد وبين الحكومة ، وبعبارة أدق بين سعد زغلول وعدلى يكن ، واتسعت شقة الخلاف ، ووصف سعد فى خطبة له القاها فى شبرا ، فى ٢٢ من ابريل عام ١٩٢١ الوفد الرسمى فى المفاوضات ، بأن (جورجى الخامس يفاوض جورجى الخامس) أى أن الوفد الرسمى وهو مؤلف من موظفين عينتهم الحكومة بعد موافقة الحكومة الانجليزية ، فى تقديره موظفون انجليز ، سيفاوضون موظفين من الانجليز أيضا .

وامتد هذا الخلاف الى الوفد نفسه ، فاستقال كثير من أعضائه ،

---

(١) انظر هذا التقرير كاملا بالمصدر السابق ص ٣٣ — ٨٦ .

وانقسم الرأى العام نفسه ، فبعد أن كان الشعب يبدو ، عند قدوم لجنة ملنر الى مصر ، كالبنيان المرصوص ، أخذت الفرقة تدب بين صفوفه ، ويقسمه الخلاف شيعا وأحزابا ، وهذا ما كان يسعى له الانجليز جهدهم، فوجدوا السبيل الى ذلك فى شرك المفاوضات ، الذى ينصبونه للشعوب المستعبدة ، لبث الفرقة بين صفوف أبنائها ، ولاخماد جذوة حماستها ، واطفاء شعلة وطنيتها وسلبها حقوقها عندما لاتسعفها القوة لادراك مطامعها الخبيثة ، والوصول الى اهدافها الدنيئة • اذ كيف يستطيع المغلوب على أمره ، أن يجلس على مائدة المفاوضات مع مغتصب حقوقه ، ومنتهك حريته ، محاولا استرداد تلك الحقوق ، وهو لا حول له ولا قوة ، بل وسيف الارهاب مسلط فوق رأسه •

وقد ظل الانجليز طوال الثلاثين سنة التالية ، ينصبون لمصر شراك المفاوضات ، ويوقعون الزعماء فى أحابيلها ، وهم فى كل مرة ينتزعون لهم حقوقا وامتيازات جديدة ، ويثبتون أقدامهم فى مصر ، ويزيدون من عدد جنودهم بها حتى بلغ فى نهاية الثلاثين سنة نحو ثمانين ألف جندى ، الى أن قامت ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، وهبت مصر من غفوتها ، واستجمعت قوتها ، وجردت الانجليز من أعوانهم وأشياعهم • عندئذ وجدوا أنفسهم يواجهون منفردين شعبا بأسره ، عقد العزم على كسر أغلال العبودية من حول رقبته ، واسترداد حريته ، واستقلاله ، باذلا فى سبيل ذلك المهج والارواح ، فطأطأوا رءوسهم ، وحنوا هاماتهم ، وأذعنوا للأمر الواقع ، واضطروا الى قبول الجلاء عن البلاد ، وأنفهم راغم ، بعد مراوغة ومخاتلة ، ومؤامرات ومكائد ، دامت خمسة وسبعين عاما •

فشل عدلى فى مفاوضاته ، واستقالة وزارته •

ونعود الى عدلى يكن ، فقد حمل عبء المفاوضة على كاهله ، دون أن يأبه لمعارضة سعد له ، وسحب الثقة منه • وليت شعرى ، كيف يجرؤ مفاوض على النهوض بعبء المفاوضة ، والبلاد منقسمة على نفسها ، والشعب قد سحب ثقته منه ، وتأييده له ، تلك الثقة وذلك التأييد ، اللذين لابد منهما لمساندته فى أثناء مفاوضته ، وتقوية مركزه أمام مستعمر ماكر ، لايرغمه على قبول مطالب الشعب ، الا القوة القاهرة ، أو الاتحاد الشامل ، والاجماع التام •

لم يعر عدلى كل ذلك شيئا من الاهتمام ، أو أنه كان يمنى نفسه بادراك نتائج باهرة ، تعوض فى رأيه ما فقده من ثقة الشعب وتأييده •

فانفرد بالمفاوضات دون الوفد ، وظهر بمظهر المتهافت عليها ، والمتكالب على كرسى الوزارة ، علما بأن النبل ، والاحتفاظ بالكرامة ، والزهد فى كراسى الحكم ، من الصفات التى كان يتميز بها هذا السياسى ، طوال حياته ·

ومع ذلك فقد قبل أن يبقى فى واد ، والامة كلها فى واد ، متحديا الشعور العام ، وترأس وفد المفاوضات ، بالرغم من ارادة الشعب ، مما أثار كثيرا من العجب والحيرة ، فى تفسير هذا السلوك · ولكن الحيرة تتبدد اذا ما حاول الانسان بقليل من التفكير ، درس الظروف والملابسات، التى كانت تحيط بهذه الحقبة من تاريخ مصر وحوادثها :

فالمعروف أن السلطان « فؤاد » كان يحقد على سعد زغلول ، لمجاهرته بالعداء للاحتلال والمحتلين ، وتقديره أن السلطان أحد أعوانهم وصنيعة من صنائعهم · فهو لم يكن مرتاحا لقيام الوفد بمفاوضة لجنة ملنر ، وقد كان يخشى أن يكتب للوفد النجاح فى تلك المفاوضات ، فيئول الأمر للشعب ، الذى لايلبث أن ينقلب على السلطان ، مطالبا بحاكم ينتخبه بارادته ، ولا يفرض عليه فرضا ، وبعبارة أخرى المطالبة بالنظام الجمهورى الديمقراطى · وقد جاهر سعد بذلك فى عدة مناسبات ·

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان السلطان يأمل أن يبسط الانجليز أيديهم ، ويعطوا من فيض كرمهم ما يبقى على عرشه ، ويمد فى حكمه ، على أن يكون هو سندهم الذى يعولون عليه ، فى بقائهم على العرش ·

عدلى يقطع المفاوضات ، ويعود الى مصر ، ويستقيل من الوزارة :

كل ذلك دفع السلطان الى أن يغرى « عدلى » بحمل عبء المفاوضات على كتفيه ، دون الوفد · فشخص الى لندن على رأس وفد كبير من الوزراء والمستشارين والمعاونين ، فى ١١ من يوليه عام ١٩٢١ · وبعد مفاوضات بين الوفد وبين اللورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية ، استمرت اربعة شهور ، فوجىء بمشروع للمعاهدة ، تقدم به اليه اللورد كيرزون (١) فى ١٥ من نوفمبر عام ١٩٢١ ، يكاد يكون كمشروع ملنر فى أساسه ومبناه، ان لم يكن اسوأ منه ، وأكثر انتقاصا لحقوق مصر وحرياتها ، مما دعا « عدلى » الى أن يقطع المفاوضات ، والعودة الى مصر فى ١٢ من نوفمبر عام

---

(١) انظر مشروع المعاهدة فى كتاب القضية المصرية ص ١٩٣ ــ ١٩٨ ·

١٩٢١ ، وتقديمه استقالته من الوزارة فى الثامن من شهر ديسمبر عام ١٩٢١ ·

وقد استقبل عدلى عند عودته الى مصر استقبالا مهينا ، مع أنه رفض الاستمرار فى المفاوضات بكل شمم واباء ، وأثبت أن المفاوض المصرى لايمكن أن يفرط فى حقوق بلاده ، مهما بذل الانجليز فى سبيل ذلك من المغريات · ولكن الخروج على اجماع الشعب خطأ لايغتفر ، وسقطة لاتقابل بالرضا ، ويجب ألا يتورط فيها من يتكلم باسم الشعب ، ويدافع عن مصالحه ، ويترجم عن أحاسيسه وأمانيه ·

نفى سعد للمرة الثانية ·

عاودت البلاد جهادها ، بعد أن تكشفت نوايا الانجليز ، وظهر بجلاء مكرهم ودهاؤهم ، وتشبثهم بالبقاء فى مصر ، وامعانهم فى القسوة ، واضطهادهم الوطنيين ، وعودتهم الى نفى الزعماء وتشريدهم ·

فلقد نفوا سعدا للمرة الثانية ،الى جزائر سيشل فى المحيط الهندى فى ٢٩ من ديسمبر عام ١٩٢١ ، بصحبة خمسة من اعضاء الوفد · ثم نقل سعد الى جبل طارق فى ١٨ من اغسطس عام ١٩٢٢ ، نظرا لمرضه ، وضعف صحته · وتالفت طبقة ثانية من الوفد ، حلت محل الأعضاء المنفيين · ووجه الأعضاء الجدد اعلانا للامة بالمقاومة السلبية ، وتنحصر فى مقاطعة البضائع الانجليزية ، ووقف التعاون مع الانجليز بجميع صوره ، والاحجام عن تأليف الوزارة ·

لذلك ظلت كراسى الوزارة شاغرة مدة شهرين · ولقد كان لهذا الاعلان أثر فى قلق الانجليز وفزعهم ، خصوصا مقاطعة بضائعهم ، مما يودى بمركزهم التجارى فى مصر ، ويحرم مصانع لنكشير القطن المصرى ، الذى هو أساس صناعة المنسوجات القطنية فى انجلترة ·

تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ وتاليف وزارة ثروت ·

لهذا أخذت انجلترة تتحايل على ملء كراسى الوزارة بكل جهد ، مبدية رغبتها فى فتح صفحة جديدة فى علاقاتها بمصر ، بعد أن ايقنت أنه لايوجد مصرى واحد يرضى عن الحماية ، ويقدم على توقيع صك العبودية والذل لبلاده ·

وفوتح عبد الخالق ثروت (باشا) فى تاليف الوزارة · فاشترط

لذلك شروطا فى مقدمتها الغاء الحماية ، والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة • ولم يسع انجلترة الا الاذعان • وأعلنت من جانبها تصريحها المعروف بتصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ • وفيما يلى خلاصة هذا التصريح (١) •

أولا ــ انهاء الحماية على مصر والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة •

ثانيا ــ الغاء الاحكام العرفية ، بعد أن تصدر الحكومة المصرية قانون التضمينات ، وفيه تقر الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية الانجليزية •

ثالثا ــ تحتفظ انجلترة لنفسها ، لحين اجراء مفاوضات مقبلة ، بالحق فى الموضوعات الآتية : ــ

(أ) تامين المواصلات الامبراطورية فى مصر •

(ب) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أجنبى •

(ج) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات •

(د) السودان •

نقد تصريح ٢٨ فبراير •

والملاحظ على هذا التصريح : ــ

أولا ــ اعتراف انجلترة لاول مرة باستقلال مصر ، والغاء الحماية التى فرضتها على مصر قوة واقتدارا ، تمهيدا لضمها للامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس !

ثانيا ــ صدور هذا التصريح من جانب واحد ، هو جانب انجلترة ، وتقيدها ببنوده ونصوصه ، دون أن تتقيد مصر بشىء منه •

ثالثا ــ لم يخلص هذا التصريح مصر من جيش الاحتلال ، الذى يجثم على صدرها ، والذى هو أداة لتدخل انجلترة فى شئون مصر ، والذى هو فى الواقع رمز الحماية الفعلية •

ولكنه من ناحية أخرى ، كان خطوة لاباس بها فى تقريب البلاد من

---

(١) انظر نص التصريح فى كتاب القضية المصرية ص ٢١٣ وتبليغ المندوب السامى ص٢١٤ــ ٢١٥ •

هدفها الأسمى ، وهو الاستقلال الصريح ، الذى لانزاع ولا شبهة فيه ، والذى يحفز طبقة جديدة من المجاهدين والمناضلين الى الاستمرار فى بذل الجهود ، ومداومة النضال ، حتى تدرك البلاد حقوقها كاملة ٠

تاليف وزارة ثروت ٠

ونتيجة لهذا التصريح ، تالفت وزارة ثروت ، فى الأول من مارس عام ١٩٢٢ ، وأعلن فى ١٥ من مارس ١٩٢٢ استقلال مصر ٠ ونودى بالسلطان فؤاد ملكا عليها ٠ وعد هذا اليوم عيدا قوميا للبلاد ٠ وتألفت فى ٣ من أبريل عام ١٩٢٢ لجنة من ثلاثين عضوا لوضع الدستور - وقد اتمت اللجنة عملها ، ورفعت مشروع الدستور الى ثروت باشا فى ٢١ من اكتوبر عام ١٩٢٢ ، وكان المنظور أن يصدر به المرسوم الملكى ، ويبدأ فى اجراء الانتخابات ، تمهيدا لاجتماع مجلس النواب ، ومباشرة أعماله ، لولا أن استقالت وزارة ثروت فى ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٢٢ ، وخلفتها وزارة توفيق نسيم باشا ، التى كانت تعمل بوحى من الملك فؤاد ، الذى كان يعمل على عدم ظهور هذا الدستور الى الوجود ، شأنه فى ذلك شأن آبائه المستبدين ، الذين كانوا يحكمون الشعب حكما استبداديا ، لاينازعهم فيه أحد من افراد الشعب ، ولا تقاسمهم هيئة من الهيئات ٠

أعمال ثروت فى الميزان ٠

لم يشفع لدى الملك فؤاد ، ما أداه ثروت للبلاد من جليل الخدمات وفى مقدمتها الغاء الحماية ، والاعتراف باستقلال مصر ، والخروج بها من دائرة الامبراطورية البريطانية ، الى مصاف الدول المستقلة ، ذات السيادة ، والمناداة به ملكا مستقلا ، بعد أن كان موظفا بريطانيا ، يدين للانجليز بالطاعة والولاء ، ويعمل وفق اشارتهم ، ولا يتصرف الا طبق رغباتهم ٠

فما أن قدم ثروت استقالته من الوزارة ، حتى قبلها الملك فورا ، لأنه كان راغبا فى التخلص منه ، والاستغناء عن خدماته ٠

وقد سرد ثروت فى كتاب استقالته ، ما قامت به وزارته من خدمات للبلاد ، اذ أنه كان يعد كتاب الاستقالة وثيقة تاريخية ، أراد أن يسجل فيها ما أداه من أعمال ، تاركا الحكم عليها للتاريخ ، ومتحديا هوى السلطان ، واهتمامه بصالحه الخاص ، الذى يتعارض مع الصالح العام ، وأمانى البلاد ٠

كذلك لم يبق الشعب على وزارة ثروت ، ولم يهلل لتوليه الوزارة ، أو يأسف لاعتزاله الحكم • وعلى العكس من ذلك ، فانه تنفس الصعداء لاستقالته : ذلك لأنه أساء الى البلاد بقدر ما أحسن اليها • فقد اقترن تأليفه الوزارة بنفى سعد وزملائه الى سيشل ، وحكم البلاد بالقسوة والشدة ، وكان قد مارس هذه القسوة عندماكان وزيرا للداخلية فى وزارة عدلى يكن •

كذلك صادر الصحف ، وأغلق دورها ، وتعاون مع المنشقين من أعضاء الوفد على مناوأة سعد ، وتأليف حزب الاحرار الدستوريين ، الذى كان هدفه الاستيلاء على كراسى الحكم ، وتعطيل الدستور ، لاصيانته وتدعيمه ، وكان معينا للمستعمرين على ارهاب البلاد ، والقضاء على حريات الأفراد ، والتمثيل بالوطنيين •

لذلك لم يكن غريبا ألا يحمد الشعب لثروت جهوده ، ويقابلها بما تستحق من التقدير • فتألفت الجمعيات السرية ، لارهاب الانجليز والمستوزرين ، وأذناب المستعمرين • ونشطت تلك الجمعيات فى اغتيال الموظفين الانجليز ، ورجال المخابرات البريطانية ، والخونة المصريين المتعاونين مع الانجليز • وقد توالت احتجاجات اللورد اللنبى لدى الوزارة ، وطالب باقتفاء أثر المعتدين ، وتقديمهم الى المحاكمة ، وتعويض أهليهم تعويضات سخية •

والواقع أن هذه الجمعيات أتت كثيرا من أعمال البطولة والشهامة• وبالرغم من تعدد حوادث الاغتيالات ، ووقوعها فى وضح النهار ، لم يستطع رجال الامن ، ورجال المخابرات الانجليز ، القبض على المعتدين • ولم يتقدم أحد من المصريين للادلاء بمعلومات تؤدى الى القبض عليهم ، بالرغم من المكافآت المالية الكبيرة التى رصدتها السلطات العسكرية البريطانية لمن يساعدون فى الكشف عن أعضاء هذه الجمعيات • وفى هذا دليل واضح على انتشار الوعى القومى ، ومقت المصريين للمستعمرين، والمتشيعين لهم وتربص الفرص للايقاع بهم •

(١٦)

تقويم ثورة سنة ١٩١٩

أهمية هذه الثورة :

كانت ثورة سنة ١٩١٩ م انتفاضة شعبية كبيرة ، كشفت عن وعى الشعب المصرى ، وأثبتت أن جوهره لم تغيره المظالم ، وأن الحرية متأصلة فى قرارة نفسه ، ولا يستطيع الاستبداد والظلم أن يغيرا من تقديسه للحرية • بل انهما فى الواقع يشحذان همته ، ويستثيران كوامن شجاعته •

أثبتت أن هذا الشعب لم يتغير ، ولم يتبدل • فهو بعينه الذى وقف فى وجه نابليون فى ثورة عارمة فى ٢١ اكتوبر عام ١٧٩٨ وفى وجه خليفته كليبر فى ٢٠ من مارس عام ١٨٠٠ ، واقض مضاجع رجال الحملة الفرنسية فى كل مكان • وأخيرا حزموا أمرهم ، وقرروا الرحيل عن البلاد ، والعودة الى فرنسا ، يجرون أذيال الخيبة والخذلان •

وقد كانت ثورة عام ١٩١٩ أول هزة عنيفة ، تهز صنم الاستعمار ، أفاقت على صوتها أمم أخرى ، كانت ترزح تحت نيره ، وتستكين لجبروته ، مثل أمة الهند ، فتبينت أن هذا الصنم لن يلبث أن يتحطم تحت ضربات الشعب القوية ، فقاد غاندى حركة المقاومة السلبية فى الهند ، وأنشأ حزب المؤتمر ، الذى انبثت فروعه فى نواحى الهند المختلفة ، محرضة على مقاطعة البضائع الانجليزية ، ومناهضة الحكم الانجليزى ، فى صبر وايمان • وقد انتهت هذه الحركة فى النهاية باستقلال الهند ، ونيلها حريتها •

ولكن هذه الثورة ، لم تستطع القضاء على الاستعمار الانجليزى ،

وطرد الانجليز من البلاد ، واعادة الحرية للشعب المغلوب على أمره • وطبعا كانت هناك أسباب وعلل كثيرة ، نجم عنها اخفاق هذه الثورة •

« ان ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ تستحق الدراسة • فان الاسباب التى أدت الى فشلها ، هى الاسباب التى حركت حوافز الثورة سنة ١٩٥٢ » (١) •

اسباب فشل هذه الثورة •

والحقيقة أن هناك اسبابا كثيرة ، ادت الى فشل ثورة ١٩١٩ ، ذكر الميثاق منها ثلاثة أسباب هامة نلخصها فيما يلى :

أولا ـ اغفال القيادات الثورية ، اغفالا يكاد يكون تاما ، مطالب التغيير الاجتماعى •

ونتج عن ذلك أن أصبحت طبقة ملاك الأراضى ، أساسا للأحزاب السياسية التى تصدت للثورة •

ثانيا ـ انعزال ثورة ١٩١٩ عن العالم العربى ، ولما يحدث فيه من احداث • مع أن حوادث التاريخ أثبتت أنه ليس هناك صدام على الاطلاق بين الوطنية المصرية ، وبين القومية العربية ، وأن عدوها الذى تحاربه ، كان يعامل الأمة العربية كلها على اختلاف شعوبها ، طبقا لمخطط واحد •

ثالثا ـ عدم قدرة القيادات الثورية أن تلائم بين أساليب نضالها ، وبين الأساليب التى واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب ، فى ذلك الوقت •

تلك هى الاسباب العامة التى أدت الى فشل ثورة ١٩١٩ • غير أنه كانت هناك أسباب خاصة ، نورد فيما يلى أهمها :

أولا ـ تعاون السلطان (الملك فؤاد) مع الانجليز على القضاء على الثورة •

فقد كانت لهما مصلحة مشتركة فى احباطها : فالملك فؤاد يدين بعرشه للانجليز ، الذين أجلسوه عليه ، بعد وفاة السلطان حسين ، ويستظل برايتهم ، ويستمد العون والتأييد منهم ، فى حكم الشعب ، حكما

---

(١) الميثاق ص ٢٦ •

استبداديا مطلقا • ويعلم علم اليقين أن فى نجاح الثورة قضاء على عرشه، وعلى أسرة محمد على ، التى فرضت على الشعب فرضا ، وحكمته لمصلحتها ، وليس لمصلحة الشعب ورفاهيته •

ثانيا ــ والانجليز المستعمرون الذين لا سند شرعى لهم فى بقائهم بمصر ، والذين كانوا يحوكون المؤامرات لاضفاء الشرعية على احتلالهم للبلاد ، بل والعمل الدائب على ضمها الى الامبراطورية المرنة ، كان من مصلحتهم هم أيضا سحق الثورة ، والقضاء عليها ، مستعملين فى ذلك البطش والقسوة ، كما لو كانت مصر احدى مستعمراتهم •

ثالثا ــ عمل الاقطاعيون والمستغلون والمستوزرون على ضرب الثورة أيضا ، حرصا منهم على مصالحهم الشخصية • ولذلك وجد فيهم المستعمر ضالته المنشودة ، وعونا صادقا لوجوده ، كما وجد فيهم الملك من ناحية أخرى خير سند له على تمزيق قوى الشعب ، وبث الفرقة بين جموعه •

ذلك هو الثالوث الخطير ، الذى قضى على ثورة ١٩١٩ ، الانجليز ، والملك ، والاقطاعيون ، الذين عملوا كل من ناحيته على احباط الثورة ، وتحالفوا على القضاء عليها فنجحوا ، ولكن كان نجاحهم الى حين ، ولم يدروا أنهم فى الواقع وحقيقة الأمر ، وضعوا أسس نجاح ثورة مقبلة ، وبذروا بذور الخلاص من الذل والاستعباد • لان الشعب بعد أن خسر الجولة الأولى ، عكف على دراسة أسباب فشله ، وعوامل اخفاقه ، واتخذ له عبرة وعظة من كل خطوة خطاها ، لم تضمن له النجاح والفوز ، وأعد لكل أمر عدته فى نضاله المقبل ، ووضع خططه على أسس سليمة ، انتهت به الى كسب المعركة فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ •

وهذا مصداق لما جاء فى الميثاق «ان ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ ، تستحق الدراسة ، فان الاسباب التى أدت الى فشلها ، هى الاسباب التى حركت حوافز الثورة سنة ١٩٥٢ » •

رابعا ــ ذكرنا قبل الآن أن الاستعمار لايعدم وسيلة ، عندما لاتجدى مدافعه وسيوفه وحديده وناره ، أن يلجأ الى المخاتلة والمراوغة ، فهو عندما فشل فى القضاء على الثورة بمدافعه ورشاشاته ، عمد الى اعلان استقلال مصر استقلالا مشوها ، فى تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ ، الذى تبعه اصدار الدستور • هذا الدستور الذى كان نكبة على البلاد ، بما ابتكره من أحزاب سياسية ، وقيام المنافسة بينها ، وتسابقها على الوثوب

الى كراسى الحكم · ونسى فى غمار هذه المنافسة الهدف الأسمى ، وهو طرد المستعمر من البلاد ، وتخليصها من تدخله فى شئونها ، وسيطرته على مقدراتها ، وتحكمه فى حاضرها ومستقبلها ·

ولقد عبر الميثاق عن هذه الحقيقة أصدق تعبير حيث يقول :

« ان الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه ، وسلب مضمونه ، ومنح من الحرية شعارها ، واغتصب حقيقتها · وهكذا انتهت الثورة باعلان استقلال لا مضمون له ، وبحرية جريحة تحت حراب الاحتلال · وزادت المضاعفات خطورة بسبب الحكم الذاتى ، الذى منحه الاستعمار ، والذى أوقع الوطن باسم الدستور فى محنة الخلاف على الغنائم دون نصر ، وكانت النتيجة أن أصبح الصراع الحزبى فى مصر ملهاة تشغل الناس ، وتحرق الطاقة الثورية فى هباء لانتيجة له (١) » ·

خامسا ـ لم تعن الثورة ، بغير الناحية السياسية ، وتركت جانبا الأسس الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية ، التى يجب أن تتدعم بها الثورة ، والتى هى فى الواقع السياج الذى يجب أن تحاط به الثورة ومع ذلك فقد أفلح الاستعمار فى تنحية الثورة بعيدا عن هدفها الأساسى ·

ولقد فطنت ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ الى ذلك ، فوضعت منذ الساعة الاولى نصب عينيها مبادىء ستة ، كأسس للعمل ، وعلامات للطريق الثورى ، الذى نهجته ، والتزمته ، ونفذته بكل عناية ودقة ·

قال الرئيس جمال عبد الناصر فى خطابه الذى ألقاه مساء الخميس ٢٦ من مارس عام ١٩٦٤ أمام مجلس الامة : «ان ارادة الثورة الشعبية أعدت له دوره الكبير ، لما حددت بالرؤية الواضحة أبعاد الآمال المتجددة ، والمتسقة دواما ، أمام من طال حرمانهم من الحقوق المشروعة للانسان ، فى عصر تمكن فيه التقدم الفكرى والعلمى ، من بلوغ قمة رائعة مشرفة » ·

«ولقد شهدت مصر ، حتى فى هذا القرن العشرين ، أشكالا من التجارب الدستورية ، لكنها الى ما قبل الثورة (ثورة يولية) كانت كلها تعبر عن الثورة المضادة ، التى انتكست اليها ثورة سنة ١٩١٩ ، هذه

---

(١) الميثاق ص ٢٤ ·

التى شهدنا فى أعقابها سنة ١٩٢٣ واجهة دســــتورية ، بدأت بمجلس يمثل الاتجاه الى المصالحة مع القوى الرجعية والاستعمارية ، ثم انتهت سنة ١٩٥٠ بمجلس يمثل الاستسلام الكامل أمام الرجعية والاستعمار » .

«وبين الخطو ، ترددا نحو المصالحة،وبين الارتماء اليائس بالاستسلام مجالس تعاقبت تحت هذه القبة ، أبعد ما تكون عن الحقيقة الوطنيـــة الأصلية ، مع تفاوت فى الظلال بين النيات الطيبة والمخـــدوعة ، وبين التآمر الجرىء على حقوق الشعب » .

(١٧)

لعبة الدستور

ذكرنا فيما سبق أن الانجليز عمدوا الى صرف جهـود السياسيين المصريين عن المطالبة باستقلال مصر ، وجلاء الانجليز المحتلين عن البلاد ، وذلك باعلان استقلال مصر الظاهرى ، فى تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ الذى أعقبه صدور الدستور ، وتأليف الاحزاب ، وتشاحنها على كراسى الحكم ، والاستعانة فى ذلك تارة بالمستعمر نفســه ، وأخرى بالقصر ، اللذين اتفقت مصلحتهما فى أن يظل الشعب مقيدا بأغلال العبودية ·· محروما من الحرية والاستقلال الحقيقى ، ليمارسا مصلحتهما ، وينتجعا خيرات البلاد لنفسيهما ·

تاخر صدور الدستور :

وذكرنا أن الملك «فؤاد» كان يخشى على نفسه هذا الدستور الذى يجعل الشعب مصدر السلطات ، ولذلك كان يسعى جهده فى ألا يظهر الى عالم الوجود · فعمل على التخلص من عبد الخالق ثروت ، الذى كان يهمه صدوره ، ولقد نجح فى تدبير مؤامرة لابعاده · فاستقالت وزارة ثروت فى ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٢٢ ، وعهد الى صنيعة من صنائعه ، هو محمد توفيق نسيم (باشا) ـ الذى اتصف بالضعف والاستسلام ـ فى تأليف الوزارة ·

تدخل الانجليز فى الدستور ·

ولقد وجد الانجليز فى ضعف نسيم واستسلامه ، فرصة للتدخل فى شئون مصر ، ولما يمض على تصريحهم باســتقلالها ســوى بضـــعة شهور ، فطلبوا اليه حذف مادتين من مشروع الدستور ، هما المادة ٢٩

التى تنص على أن الملك (هو ملك مصر والسودان) ، والمادة ١٤٥ التى تنص على أن (تجرى أحكام هذا الدستور على المملكة المصرية جميعهـــا ، عدا السودان ، فمع أنه جزء منها ، يتقرر نظام الحكم فيه بقانون خاص) •

ولقد أذعن نسيم لارادة الانجليز ، وكان هذا من غير شك بالاتفاق مع الملك فؤاد ، ارضاء لهم ، وتفاديا من غضبهم • ثم استقال من الوزارة فى ٥ من فبراير عام ١٩٢٣ ، بعد تعديل المادتين المشار اليهما ، وقد كانت الشهامة والنخوة تقضيان عليه بعدم الرضوخ لمطلب الانجليز ، والاستقالة من الوزارة ، احتجاجا على تدخلهم غير المشروع ، كما فعل شريف باشا ، عندما طلبوا اليه اخلاء السودان • ولكن لا يفعل ذلك الا رجل شجاع ، قوى الشخصية ، غيور على مصلحة وطنه ، لايفرط فى حقوق بلاده •• وهى صفات كان يفتقر اليها نسيم •

تجدد المقاومة الشعبية :

وقد أثار استسلام نسيم لتدخل الانجليز حنق الجماهير عليـــــه ، وقيام المظاهرات ضده ، وازدياد سخط الشعب على الانجليز ، فاستؤنفت حوادث اغتيال الانجليز وجنود الاحتلال ، وقابلت سلطات الاحتلال ذلك باعتقال أعضاء الوفد الذين بمصر ، وبعض رجال الحزب الوطنى ، وغيرهم من الوطنيين البارزين •

وزارة يحيى ابراهيم

وظلت البلاد بلا وزارة أكثر من شهر ، وأخيرا تألفت وزارة برياسة يحيى ابراهيم باشا ، فى ١٥ من مارس عام ١٩٢٣ ، وقد اســـتفاضت الاشاعات أن هذه الوزارة سائرة على طريق وزارة نسيم ، وستواصـــل الانتقاص من الدستور ، وحذف بعض مواده ، التى لايوافق عليها الملك أو الانجليز •

ولكن الشعب كان لها بالمرصاد • فشدد الكتاب والسياسيون على رئيس الوزراء بضرورة اصدار الدستور ، لذلك لم ير بدا من اســـداء النصح للملك باصداره ، ازالة للقلق الذى كان يساور الشعب ، ونشرا للهدوء والطمأنينة فى ربوع البلاد •

اصدار الدستور :

وأخيرا استجاب الملك لنصيحة رئيس وزرائه ، وصدر الدستور فى

١٩ من ابريل عام ١٩٢٣ ، ولكن بعد تعديل المادتين ٢٩ ، ١٤٥ · وفى ٣٠ من ابريل صدر قانون الانتخاب ·

الافراج عن سعد :

ولقد هيأت الوزارة الأسباب للحياة الدستورية المقبلة ، بنشر جو من الهدوء والاستقرار ، فعملت على الافراج عن سعد وزملائه البعيدين عن مصر ، واطلاق سراح المعتقلين ، فأصدر الانجليز أوامرهم بالافراج عن سعد فى ٢٧ من مارس عام ١٩٢٣ ، وكان معتقلا فى جبل طارق ، وعن أعضاء الوفد المعتقلين فى مصر ·

الغاء الأحكام العرفية :

كما أصدروا فى ٥ من يوليو عام ١٩٢٣ أمرا بالغاء الأحكام العرفية بعد أن أعلنت الحكومة المصرية ، فى التاريخ نفسه قانون التضمينات الذى يقضى باجازة كل ماقامت به السلطة العسكرية البريطانية فى مصر من اجراءات ادارية وقضائية أو تشريعية ، مدة الأحكام العرفية المعلنة فى ٢ من نوفمبر عام ١٩١٤ ، حتى تاريخ اصدار هذا القانون ، أى فى ٥ من يوليو عام ١٩٢٣ ، وبذلك أصبح لا حق لأحد من الرعايا المصريين ، أو الحكومة المصرية ، فى مقاضاة الحكومة الانجليزية فيما لحقه من خسائر مادية ، فى الاموال أو الارواح أو الممتلكات أو أية خسائر معنوية ، أو المطالبة بأى تعويض ، ولكن تتحمل الخزانة المصرية تعويض الأجانب وتمنح الموظفين الاجانب عن تركهم الخدمة مكافآت وتعويضات جسيمة أكثر مما يستحقونه بمقتضى قانون المعاشات ·

وبناء على قرار الغاء الأحكام العرفية ، صدر العفو عن بعض المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية بعقوبات أقصاها ١٥ سنة ، والسماح للمصريين المبعدين عن مصر ، بالعودة اليها ·

عودة سعد الى مصر :

وقد عاد سعد الى مصر فى ١٧ من سبتمبر عام ١٩٢٣ ، وقوبل هذه المرة أيضا ، كما قوبل فى المرة الاولى ، بمظاهر الحفاوة والفرح العظيمين ، فى القاهرة والاسكندرية ، وجميع البلاد التى مر بها فى طريقه الى العاصمة وأقيمت معالم الزينة والأفراح ، وتوالت وفود الشعب على بيت سعد ، وكان يطلق عليه بيت الأمة ، لاظهار فرحها واغتباطها بعودته الى أرض

الوطن ، وكان ذلك بمثابة استفتاء سجل فيه الشعب زعامة سعد التى لاينازعه فيها منازع ٠

وقد كان يجمل بسعد ، وقد تسنم مركز الزعامة ، وصار لا يدانيه فى سمو مركزه أى سياسى آخر فى مصر ، أن يتناسى الخلافات القديمة ، والحزازات التى نشبت بينه وبين خصومه ، لتتحـــد قوى الشعب أمام المستعمر المتربص ، لتقضى عليه القضاء المبرم ٠ ولكن كيف يمكن أن يدرك هذا المطلب اليسير المنال ، وقد ألقى الانجليز فى ساحة السياســة المصرية بلعبة الدستور ، الذى خلق الاحزاب التى كان شغلها الشــاغل التناحر والتطاحن على مقاعد البرلمان ، وكراسى الوزارة ، وتجاهل الجميع المستعمر الرابض فوق أرض الوطن ، يحوك المؤامرات ويدس الدسائس ويسخر من هذه الاحزاب ، ويوقد بينها الفتيل كل يوم ، لتزداد تناحرا ويشتد تطاحنها ، وفى هذا حياته وبقاؤه ٠٠

(١٨)

مؤامرات الانجليز على استقلال مصر فى الفترة من ١٩٢٤ حتى عام ١٩٢٧

فوز الوفد فىالانتخابات وتاليف أول وزارة وفدية :

أجريت الانتخابات ، وأسفرت نتائجها عن فوز الوفد بتسعين فى المائة من مقاعد مجلس النواب ، فأصبحت الوزارة من حق حزب الوفد ، باعتباره الحزب الغالب •

وبناء على ذلك كلف الملك فؤاد سعد زغلول تأليف الوزارة ، وقد كان الأفضل له أن يظل بعيدا عنها ، ويبقى على رأس الهيئة التشريعية ، ويتولى تأليفها غيره من رجال الوفد ، تجنبا للصدام مع السراى والإنجليز الذى يضطر الوزارة حتما الى الاستقالة ، ويحمل ذلك بين طياته هزيمة للشعب ، الذى تمثله الوزارة •

ومع ذلك فلم يمض طويل وقت حتى حدث هذا الصدام ، بين الوزارة والسراى ، على من له الحق فى انتخاب خمس أعضاء الشيوخ المعينين ، هل هو الملك أو الوزارة ؟ فحكم الطرفان بينهما «فان دن بوش» النائب العام البلجيكى لدى المحاكم المختلطة فى الخلاف ، فأفتى بحق الوزارة فى هذا الأمر ، وفقا للدستور البلجيكى ، الذى منه اقتبس الدستور المصرى كثيرا من مواده •

افتتاح البرلمان وأهم أعمال الوزارة :

وافتتح البرلمان فى ١٥ من مارس عام ١٩٢٤ ، وبعد أن أقسم الملك اليمين الدستورية ، والقى سعد أول خطاب للعرش ، انصرف البرلمان الى عمله ، وثبت أركان الحياة الدستورية ، بما اتخده من قرارات فى مقدمتها ، حذف الاعتماد المخصص لنفقات جيش الاحتلال وقدره

١٤٦ر٢٥٠ جنيها ، وحذف مبلغ ١٤ر٠٠٠ جنيه ، كانت تدفع لجمارك السودان عن مهمات وذخائر الجيش المصرى ، والشروع فى وضع نظام مستقل ، لمراجعة ايرادات ومصروفات الحكومة وفتح اعتماد بمبلغ ١٠٠ر٠٠٠ جنيه زيادة فى ميزانية وزارة المعارف ، لفتح مدارس جديدة ، وتأليف لجنة من أعضاء المجلس ، لوضع مشروع قانون التعليم الاجبارى.

كذلك سارت الوزارة قدما فى ادارة شئون البلاد ، حريصة على حقوقها ، مستمدة سلطتها من الدستور ، فلا تسمح بأى تدخل من قبل السراى ، أوالمندوب السامى البريطانى ، مؤكدة حقوق مصر فى السودان من فوق منبر البرلمان كلما سنحت فرصة لذلك .

وقد سنحت هذه الفرصة فعلا ، عند قيام المظاهرات فى السودان ، ضد الحكم الانجليزى ، امتدادا لثورة مارس عام ١٩١٩ فى مصر ، وقمع الانجليز تلك المظاهرات بكل شدة ، والقبض على زعيم حركة المقاومة ، الضابط السودانى «على عبد اللطيف» والحكم عليه بالحبس ثلاث سنوات مع الاشغال الشاقة .

وقد ظهر تقدير الشعب لسعد ، ومحبته له ، باستنكاره الاعتداء الذى وقع عليه فى ١٢ من يوليو عام ١٩٢٤ على يد شاب مخبول ، يدعى « عبد الخالق عبد اللطيف » باطلاقه الرصاص عليه فى محطة مصر ، فأصابه فى ساعده الأيمن .

مفاوضات سعد ـ مكدونالد :

كان يحكم انجلترا فى هذه الاثناء حزب العمال ، ويتولى الوزارة المستر رمزى مكدونالد فدعا سعدا لاجراء مفاوضات معه فى لندن ، لتسوية الخلافات بين الحكومتين المصرية والانجليزية ، فبدأت المفاوضات فى ٢٥ من سبتمبر عام ١٩٢٤ ، وتقدم سعد بمطالب مصر ، ومن بينها سحب جميع القوات الانجليزية من الاراضى المصرية ، وزوال كل سيطرة بريطانية ، ولا سيما على العلاقات الخارجية ، وعدول الحكومة البريطانية عن دعواها فى حماية الأجانب والأقليات فى مصر ، والاشتراك فى حماية قناة السويس .

ولكن المفاوضات انتهت ، كسابقتها التى أجراها مع لورد ملنر ، بالفشل ، فالانجليز هم الانجليز ، سواء أكانوا محافظين أم عمالا لا يمكن أن يسلموا بحق الشعوب المغلوبة على أمرها ، فى الحرية والاستقلال ، طواعية بدون اكراه .

مقتل السير لى ستاك (باشا) ، سردار الجيش :

كان الهدوء يسود البلاد ، وتسير الامور فى طريق يبشر بتقدم البلاد ، وتثبيت استقلالها ، وتدعيم الحياة الدستورية فيها ، لولا وقوع حادث مقتل السردار السير لى ستاك باشا ، فى ١٩ من نوفمبر عام ١٩٢٤ فاتخذت منه انجلترا ذريعة للانتقام من مصر ، ومتابعة عدوانها على استقلالها ، وأن تملى عليها شروطا جائرة ، لاتمليها سوى دولة منتصرة على أخرى منهزمة ، فى ميدان القتال ، علما بأنه لم تكن للحكومة المصرية يد فى هذا الحادث ، كما أثبتت ذلك المحاكمات ، وأيده القضاء ، مما لم يكن معه أى سبب لتتحمل الحكومة مسئوليته ، أو يؤخذ الشعب بجريرة مرتكبيه • فهو لايعدو أن يكون حادثا شخصيا ، يحدث كثير مثله فى دول العالم المختلفة ، فلا يتخذ وسيلة لان تستذل دولة دولة أخرى •• وتنتهزها فرصة لاغتصاب مكاسب غير مشروعة ، والحصول بالقوة والجبروت على تعويضات فادحة ، أشبه ما تكون بالغرامات الحربية التعسفية •

ان مثل هذا الجبروت لا يمكن أن يوصف بغير الخسة والنذالة ، ولا يصدر الا عن المستعمرين الأنذال ، الذين يصولون ويجولون فى غير ميادين الحرب ، ويستعرضون عضلاتهم لارهاب الشعوب الوادعة واتهامها زورا وبهتانا بما هى براء منه ، رائدها فى ذلك الطمع والجشع وسوء القصد •

وانك تعجب لاشك اذا علمت أن كثيرا من الضباط والجنود قتلتهم فى فلسطين ـ فى أثناء الانتداب البريطانى عليها ـ عصابات اليهود ، وكانت ترى جثثهم مصلوبة على جذوع الاشجار ، ولم تكن انجلترة لتحرك ساكنا • كذلك قتل سكان احدى الجزر اليونانية خمسة من ضباط الاسطول الانجليزى ، ولم ترجع الحكومة الانجليزية على الحكومة اليونانية باللائمة ، أو تحملها شيئا من المسئولية ، ولكنها هنا فى مصر ، تفعل ما تشاء ، لارقيب ، ولا حسيب •

ولقد نشرت أخيرا جريدة الأخبار المصرية مذكرات سعد زغلول ، ومنها يستشف أن المخابرات الانجليزية فى مصر ، كانت تعرف أن حدثا سيقع للسير لى ستاك ، ويؤكد هذه الشبهة ، مطالبة المندوب السامى للسير لى ستاك أن يؤجل سفره من اليوم الـ (١٨) الذى كان يزمع السفر فيه الى السودان الى التاسع عشر الذى وقع فيه حادث اغتياله ، ثم

اعتراف اللورد اللنبى بأن العقوبات التى فرضتها انجلترة على مصر ، كانت معدة من قبل وقوع الحادث ، ولكنه فقط غير فى صيغة الانذار ، وجعلها أكثر شدة • ولا يبعد أن يكون الحادث قد مهدت له أيدى الانجليز فى سبيل الاعتداء على استقلال مصر ، ومحو تصريح ٢٨ فبراير ، ولانجلترا سوابق كثيرة فى التضحية ببعض رجالها فى سبيل الحصول على مكاسب غير مشروعة ، وأقرب الأمثلة على ذلك ، تضحيتها بغردون فى سبيل اغتصاب السودان •

وفى ٢٢ من نوفمبر ذهب اللورد فى مظاهرة عسكرية ، يتقدمه مائتان وخمسون جنديا ، مدججون بالسلاح الى مجلس الوزراء ، وقرأ على سعد زغلول انذارا باللغة الانجليزية امعانا فى الزراية بالحكومة المصرية ، وعند انصرافه سلمه صورة من الانذار ، ويحتوى على البنود الظالمة الآتية(١) :

١ ـ أن تمنع الحكومة المصرية وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية •

٢ ـ أن تدفع الحكومة المصرية فى الحال ، الى حكومة صاحب الجلالة غرامة قدرها ½ مليون من الجنيهات •

٣ ـ أن يسحب الجيش المصرى من السودان •

٤ ـ أن تزاد مساحة الاراضى المزروعة فى أرض الجزيرة بالسودان من ثلثمائة ألف فدان ، الى مقدار غير محدود •

٥ ـ أن تعدل الحكومة المصرية عن كل معارضة لرغبات حكومة صاحب الجلالة فى الشئون المتعلقة بحماية المصالح الاجنبية فى مصر •

استقالة سعد زغلول :

عد سعد زغلول حادث مقتل السردار ضربة موجهة له شخصيا ، وايقن أن الحكومة البريطانية لاتريد بقاءه فى الوزارة لعمله على استعادة حقوق مصر من براثن الاحتلال الانجليزى ، لذلك قدم استعفاءه من الوزارة فى ٢٣ من نوفمبر عام ١٩٢٤ • وفى ٢٤ من نوفمبر تألفت وزارة احمد زيور باشا ، التى سلمت للانجليز بكل مطالبهم ، وقبضت

---

(١) انظر نص الانذار فى كتاب القضية المصرية ص ٢١٧ ـ ٢١٨ والكتاب الملحق به ص ٢١٩ •

السلطات البريطانية على بعض أعضاء البرلمان ، بالرغم من أن الاحكام العرفية كانت قد رفعت عن البلاد ، فلم يكن من حق السلطات الانجليزية والحالة هذه أن تتدخل فى شئون أمن البلاد ، وأجلى الجيش المصرى عن السودان ، وأجلت الوزارة اجتماع البرلمان شهرا ، ثم حلت مجلس النواب بعد ذلك فى ٢٤ من ديسمبر عام ١٩٢٤ ، وحددت يوم ٦ مارس موعدا لانعقاد المجلس الجديد •

وألقت السراى بثقلها فى المعترك السياسى ، وذلك بانشائها حزبا سياسيا يؤيد سياستها ، هو حزب الاتحاد • فبلغ عدد الاحزاب السياسية حينئذ أربعة وهى : الوفد ، والاحرار الدستوريون ، والحزب الوطنى ، وحزب الاتحاد • فكانت هذه الاحزاب سببا فى انقسام الصف ، وتفرق الكلمة ، فى وقت كانت مصر فيه أشد ما تكون حاجة الى جمع الصفوف ولم الشمل ، والاتحاد أمام العدو الغاصب •

انتخابات سنة ١٩٢٥ :

أجريت الانتخابات لمجلس النواب الجديد فى ١٢ من مارس ١٩٢٥ ، وبالرغم من تعديل الوزارة الدوائر الانتخابية لمصلحتها ، والضغط على المرشحين بكل قوتها ، والتزوير فى الانتخابات ، فقد فاز مرشحو الوفد •

افتتح البرلمان الجديد أبوابه يوم ٢٣ من مارس عام ١٩٢٥ ، وتلا زيور باشا خطاب العرش ، وعقدت جلسة فى صباح ذلك اليوم لانتخاب الرئيس ، اسفرت عن انتخاب سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب ، ثم عقدت جلسة أخرى فى المساء لانتخاب الوكيلين والسكرتاريين ، فكانوا جميعا من أعضاء الوفد ، فأسقط فى يد الحكومة والانجليز ، وأيقن زيور أنه لن يحوز ثقة المجلس الجديد ، فاستصدر أمرا من الملك بحل هذا المجلس الذى لم يعمر سوى يوم واحد •

ولم يكن حل البرلمان هذه المرة قانونيا ، لانه حل للسبب الذى حل من أجله المرة الاولى ، ولا يجيز الدستور حل المجلس مرتين لسبب واحد وكان الأجدر بالوزارة أن تواجه البرلمان بشجاعة ، طلبا للثقة ، فاذا لم تحصل عليها استقالت ، وتألفت وزارة أخرى من الحزب الغالب ، أو من الأحزاب مؤتلفة • ولكن التشبث بكراسى الحكم ، والاستماتة فى منصب الوزارة ، مع اهدار كرامة البلاد ، كانت دائما السبب فى العبث بالدستور ، وخرق حرمته •

تفاقم نفوذ الانجليز وسلطة السراى فى فترة الانقلاب الدستورى :

أفادت السراى من الأزمة التى أعقبت مقتل السردار ، وبسطت حمايتها على ورارات الانقلاب ، واشتركت فى انتهاك حرمة الدستور ، وجمعت فى يديها السلطات التى تنازل عنها الاحتلال ، والتى جاهد الشعب فى استعادتها والحفاظ عليها ، وصارت السراى مرجع التعيينات والترقيات فى وزارات الحكومة ، فتفشت المحسوبية والفساد فى جميع مصالح الحكومة ، وسارعت الى اجابة سلطات الاحتلال لجميع مطالبها وأوامرها ، كما كان يحدث بالضبط فى عهدى توفيق وعباس ، من ذلك : تعيين مستشار قضائى لوزارة الحقانية فى مايو عام ١٩٢٥ خلفا للسير موريس شلدون ايموس الذى رفض سعد تجديد عقده فى نوفمبر عام ١٩٢٤ .

وقامت الحكومة بمطاردة مخالفيها ، والتنكيل بهم ، ومصادرة الاجتماعات ، ومحاصرة بيت الامة ، واعتداء رجال البوليس على المجتمعين، والعبث بالدستور وقانون العقوبات ، لتشديد قبضتها على أصحاب الصحف وكتابها .

كل هذا يحدث طلبا لرضا المحتلين ، وبناء على أوامرهم ، وايحائهم وتنفيذا للمؤامرة التى دبرت بينهم وبين السراى ، للقضاء على استقلال البلاد ، وحرية الشعب ليس فى هذا أى شك ، ولكن دوام الظلم محال .

استقالة اللورد اللنبى وتعيين جورج لويد خلفا له :

قدم اللورد اللنبى استقالته فى مايو عام ١٩٢٥ ، فخلفه اللورد جورج لويد ،وهو من غلاة المحافظين ، وكان يترسم خطى اللورد كرومر ، ويعد نفسه خليفة له ، ويفترض فى نفسه القدرة على متابعة رسالة كرومر ، التى وقفت عند اعتزاله الحكم .

حضر جورج لويد الى مصر فى اكتوبر عام ١٩٢٥ ، واستقبلته الوزارة استقبالا لا يستقبل بمثله سوى الأمراء والملوك ، فكانت هذه بادرة سيئة للضعف والاستخذاء من قبل الحكومة ، وكان أول رد عليها أن لويد لم يقدم أوراق اعتماده مندوبا ساميا لدى مصر ، كما تقضى بذلك التقاليد المرعية بين الدول المستقلة ، فأغمضت الحكومة عينيها عن هذه المخالفة المتعمدة ، وابتلعت هذه الاهانة الخطيرة ، دون أن تحرك ساكنا ، أو تبدى أى اعتراض .

التنازل عن واحة جغبوب :

وأمعنت الوزارة فى الاستبداد ، واهدار كرامة الشعب ، حتى بلغ ضجيج الشعب عنان السماء ، ومن أشد أعمال الوزارة استهانة بكرامة الشعب ، اذعانها لأوامر الانجليز بالتنازل عن واحة جغبوب لايطاليا ، فكان هذا العمل من جانبها تفريطا فى جزء من أرض الوطن ، انتهزت فرصة غياب البرلمان ، فأقدمت عليه ، ولذلك يعد هذا العمل جريمة للوزارة لا تغتفر .

وأمعنت السراى فى غيها وغلوائها ، ومعاداتها للشعب ، فبالاضافة لتعاونها مع الوزارة فى خرق الدستور ، وتعطيل أحكامه ، والتفريط فى حقوق البلاد ، قام «حسن نشأت (باشا)» رئيس الديوان الملكى بالنيابة ، بالتدخل فى دوائر الحكومة ، فكثرت الاحتجاجات من هذا التدخل ولكن السراى لم تعر الرأى العام أى اهتمام .

وأخيرا تدخل اللورد لويد فى الأمر ، وطلب الى الملك طرد حسن نشأت من السراى ، فأذعن الملك وأخرج «حسن نشأت» وعينه سفيرا فى اسبانيا ، وكانت الكرامة تقضى أن يتخلص الملك من رئيس ديوانه استجابة لطلب الشعب ، لا امتثالا لأوامر الانجليز ، ولكن الملك ، ورئيس وزرائه كانا يفهمان الكرامة على أنها الاذعان للانجليز ، والخضوع لارادتهم والاستظلال بحمايتهم ، ضد الوطن والشعب والدستور .

المقاومة الشعبية :

فلما طفح الكيل ، وغلت مراجل الغضب عند الامة ، اجتمع البرلمان من تلقاء نفسه فى ٢١ من نوفمبر عام ١٩٢٥ تنفيذا لحكم الدستور ، وكان اجتماعه ايذانا بجمع الصفوف ، واتحاد الاحزاب ، والوقوف جبهة واحدة فى وجه السراى والوزارة والانجليز .

وتكررت الاجتماعات والاحتجاجات على تعطيل البرلمان ، وانتهاك حرمة الدستور ، وأخيرا أذعنت الوزارة الى طلب الشعب فى اجراء انتخابات جديدة ، يوم ٢٢ من فبراير ، وحددت يوم ٦ من يونيه لاجتماع البرلمان .

وأخيرا استقالت وزارة زيور فى ٧ من يونيه عام ١٩٢٦ ، وتألفت وزارة ائتلافية من حزبى الوفد والاحرار الدستوريين برئاسة عدلى يكن باشا فى ٧ من يونيه ، واستمرت فى الحكم حتى ٢٦ من ابريل عام

١٩٢٧ فخلفتها وزارة ثروت وقد كان الانجليز لها بالمرصاد ، ففى عهدها حدثت أزمة الجيش ، وأجرت مفاوضات مع الحكومة الانجليزية لتسوية الخلافات بينها وبين مصر ، ولكنها انتهت بالفشل ٠

أزمة الجيش :

كان هدف انجلترا منذ احتلالها مصر اضعاف الجيش ، والهبوط به الى أحط المستويات ، فلا يكون مصدر خطر على الاحتلال والمحتلين ، لذا انقصت عدده ، وجعلت زمامه فى أيدى ضباط من الانجليز ٠

فلما أعلن استقلال مصر اقتضت الأحوال الجديدة اصلاح الجيش وادخال التعديلات اللازمة عليه ، ورفع يد الانجليز عنه ، وجعل قيادته فى أيدى المصريين ، وقد كان المعتقد أن هذا حق من حقوق مصر ، بعد اعلان استقلالها ، لاينازعها فيه منازع ٠

لذلك أحيل الموضوع على لجنة برلمانية ، فتقدمت بالمقترحات اللازمة وفى مقدمتها الغاء منصب السردار ، وتحسين أسلحة الجيش ومهماته ، وترقية التعليم فى المدرسة الحربية ، وتعديل قانون مجلس الجيش ، بحيث لايكون المفتش العام الانجليزى عضوا فيه ، وبعض مقترحات أخرى ضرورية ٠

فما أن بلغ خبر هذه المقترحات دار المندوب السامى ، حتى تقدمت للوزارة بمذكرة تطلب فيها استمرار سيطرة الانجليز على الجيش ، وعدم ادخال أية تعديلات لاستقلاله وتقويته ورفع مستواه ،بما يلائم عهد الاستقلال ، مدعية أن الدفاع عن مصر موكول لانجلترا بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، وبناء على ذلك يجب أن يكون لها الاشراف على الجيش المصرى ، فردت الحكومة المصرية ردا معتدلا ، ووعدت بالأخذ بكثير من المقترحات التى تضمنتها المذكرة ٠

ومع ذلك أبت الحكومة الانجليزية الا أن تمارس طريقتها التقليدية فى التهديد والوعيد ، كما لو كانت مصر ما تزال تحت الحماية ، ودون تقدير للاستقلال الذى أعلنته وتقيدت به ٠ فأرسلت الى المياه المصرية ثلاث بوارج حربية ، لتقوم بمظاهرة تهديد ، تؤكد أنها ما زالت صاحبة السلطان فى مصر ، وأن هذا الاستقلال مزيف ، وليس له من مفهوم الاستقلال الحقيقى أى ظل ، مادام جيش الاحتلال رابضا على أرض مصر يؤيد كل تدخل لانجلترا فى شئون البلاد ٠

مفاوضات ثروت ـ تشمبرلن :

قلنا : ان الانجليز لم يكن لهم أى سند قانونى فى احتلالهم مصر • وقد كانوا هم أنفسهم يعرفون ذلك تمام المعرفة ، ولذلك كانوا يحاولون جهدهم بأن يضفوا على مركزهم صبغة شرعية بأى ثمن ، فجروا مصر الى المفاوضات المتتالية التى كانت تنتهى دائما بالفشل ، لان هدفها الأساسى من هذه المفاوضات ـكما سبق القولـ أن تحصل على اعتراف بشرعية بقائها فى مصر ، ووثيقة رسمية تبيح لها التدخل فى شئونها ، والهيمنة على مقدراتها ، وفيما يلى بيان بالمفاوضات التى حدثت حتى الآن :

١ ـ مفاوضات سعد ـ ملنر فى يونيه ـ نوفمبر ١٩٢٠ •

٢ ـ مفاوضات عدلى ـ كيرزون فى يوليه ـ ديسمبر ١٩٢١ •

٣ ـ مفاوضات سعد ـ مكدونالد فى سبتمبر ١٩٢٤ •

لم تيأس انجلترا برغم انتهاء المفاوضات السابقة بالفشل ، وعدم قدرتها على الفوز من المفاوض المصرى بموافقة رسمية على شرعيتها لاحتلال مصر ، فانتهزت فرصة زيارة الملك فؤاد للندن عام ١٩٢٧ بصحبة عبد الخالق ثروت باشا ، ودعته الى الدخول فى مفاوضات جديدة بقصد عقد معاهدة مع مصر •

٤ ـ مفاوضات ثروت ـ تشمبرلن :

بدأ ثروت هذه المفاوضات مع السير أوستن تشمبرلن وزير الخارجية البريطانية فى شهر يوليو ١٩٢٧ وانتهت فى نوفمبر من السنة نفسها ، وأسفرت عن مشروع لمعاهدة (١) بين مصر وانجلترا ، عرضه تشمبرلن ، لايختلف فى جوهره عن مشروع كيرزون الذى رفضه عدلى يكن ، والذى يثبت قواعد الاحتلال والاستعمار فى مصر والسودان •

ولما عرض مشروع المعاهدة على مجلس الوزراء ، قبل عرضه على البرلمان ، قرر فى يوم ٤ من مارس١٩٢٨ رفضه ، وذكر فى أسباب الرفض «أنه لايتفق فى أساسه ونصوصه مع استقلال البلاد وسيادتها ، ويجعل الاحتلال العسكرى البريطانى شرعيا(٢) •

---

(١) انظر نص المشروع فى كتاب القضية المصرية ص ٢٧١ ـ ٢٧٩ •
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٣ •

وأبلغ ثروت (باشا) المندوب السامى رفض الحكومة المصرية لمشروع المعاهدة ، فأبلغه هذا بدوره الى الحكومة الانجليزية التى أبرقت وأرعدت وهددت بالتدخل فى شـــئون مصر ، لانها تأبى توقيع صك عبوديتها واسترقاقها ، وترفض التنازل عن حريتها واستقلالها ، بمحض رغبتها واختيارها •

وفعلا فى اليوم الذى أبلغت فيه الحكومة الانجليزية قرار الرفض ، تقدمت الى الحكومة المصرية بمذكرة تعترض فيها على بعض التشريعات التى وافق عليها البرلمان ، وتحتفظ لنفسها بحق التدخل « واتخاذ أى اجراء ترى فى نظرها ان الحالة تقتضيه » •

ولما رفض مشروع المعاهدة ، لم ير ثروت بدا من التخلى عن الحكم ، فتقدم بالاستقالة ، وعهد الملك الى مصطفى النحاس باشا فى ١٦ من مارس ١٩٢٨ ، بوصف كونه زعيما للاغلبيـــة ، بتأليف الوزارة ، فالفها فى ١٧ منه، وكانت وزارة ائتلافية، يتكون أعضاؤها من الوفديين والدستوريين •

وفاة سعد زغلول :

وفى ٢٣ من أغسطس عـــام ١٩٢٧ روعت البلاد بنبأ وفاة الزعيم سعد زغلول ، فكان لوفاته رنة حزن سرت فى البـلاد من أقصـــاها الى أقصاها ، وبكاه الشعب بكاء مرا ، وحزن عليه حزنا شديدا ، ظهر ذلك فى تشييع جثمـــانه الى مقره الاخير ، حيث خيل للمرء أن الامة جميعها اشتركت فى تشييع جنازته •

(١٩)

سعد زغلول

اقترنت ثورة مارس عام ١٩١٩ باسم سعد زغلول ، الزعيم المصرى الصميم ، الذى خرج من صفوف الشعب ، وضرب مثلا عاليا فى التضحية والاباء ، وعزة النفس ، ورفـع صـوت مصر عاليا بالمطـالبة بالحرية والاستقلال ، وطرح نير الذل والاستعباد عن كاهلها ، فى وقت ظن فيه الانجليز انهم قضوا قضاء مبرما على الحركة الوطنية ، وانهم كمموا الافواه ، فلم يعد أحد من المصريين يستطيع أن يرفع عقيرته مجاهرا بالعداء لهم ، أو مطالبا بجلائهم وطردهم من البلاد ، وأنهم نجحوا بمكايدهم ومؤامراتهم فى تحويل البلاد الى محمية من محمياتهم .

ولم يكن أحد أقدر من سعد على اضـطلاع بهذه المهمة الوطنيـة الخطيرة ، فقد كان له قلب شجاع ، وارادة صلبة ، يسترخص كل غال فى سبيل وطنه ، ولا ينى عن أية تضحية من أجل بلاده ، ولم يكن يطاطىء الرأس لأى انجليزى مهمـا علا شأنه ، أو يحنى هامة لأى حاكم مصرى مهما عظم قدره ، يعرف غدر الانجليز ونذالتهم ، وبشاعة انتقامهم وقوة مراسهم ، ومع ذلك فلم يكن يرهبهم ، أو يخشى بأسهم ، ولا غرو فهو القائل « دولة الظلم ساعة ، ودولة الحق الى قيام الساعة » .

وقد عرف فى جميع أدوار حياته بالاقدام والشجاعة واستقلال الرأى وقـوة الشخصية والاعتزاز بالكرامة ، والذود عن عـزة الوطن ، هذا بالاضافة الى قوة الحجة ، ونصاعة البيان ، وفصـاحة اللسان ، وسـداد الرأى .

عرفت فيه هذه الصفات عندما كان يشتغل بالمحاماة ، أو يجلس فى كرسى القضاء ، أو عندما كان وزيرا للمعارف ، ثم وزيرا للحقانية (العدل) ، فأولاه مواطنوه محبتهم وتقديرهم ، وأحلوه مكانا رفيعا من احترامهم .

وعرف فيه الانجليز أيضـــا هذه الصفات ، فانتزع منهم احترامه وتقديره ، فانتخبه اللورد كرومر وزيرا للمعارف، فكان أول مصرى ينتخب من صـــفوف الفلاحين للوزارة • وكان المحتلون يهدفون من وراء انتخابه للوزارة تعـــديل سياسة الاحتلال بعد حادثة دنشواى ، وتخفيف وطأة الاستبداد ، واشراك المصريين باية صورة فى الحكم • فكان لسعد فى وزارة المعـــارف مع مستشارها الانجليزى دنلوب ، وكان له مع اللورد كتشنر عميد الاستعمار ، عندما كان سعد وزيرا للحقانية ، جولات أثبت فيها استقلاله برأيه ، واعتداده بنفسه ، وتمسكه بكرامته ، واعلاء شأن بلاده ووطنه (١) ، مما لا يتسع هذا الكتاب لذكره باسهاب •

وصدر القـــانون النظامى بانشاء الجمعية التشريعية فى الاول من يوليو عام ١٩١٣ ، وكان أول انعقاد لها فى فبراير عام ١٩١٤ ، واستمر حتى ١٧ من يونيه من الســنة نفسها وكان هو الاول والاخير ، اذ تأجل انعقادها الى أجل غير مسمى ، بسبب قيام الحرب الاوربية الاولى فى الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٩١٤ •

وتألفت الجمعية التشريعية ، كما جاء فى المادة الثانية من قانونها النظامى : من « أعضاء قانونيين ، وأعضاء منتخبين ، وأعضـــاء معينين — والنظار أعضاء قانونيون — وعدد الاعضاء المنتخبين ستة وستون عضوا ، ينتخب أحدهم وكيلا «بمعرفة الجمعية» ويكون انتخاب الاعضاء بالكيفية وبالشروط المقررة فى قانون الانتخاب • وعدد الاعضاء المعينين سبعة عشر عضوا ، أحدهم رئيس ، والثانى وكيل ، والخمسة عشر الآخرون يعينون على نحو يكفل النيـــابة عن الاقليات والمصـــالح التى لم تنل نصيبا من الانتخاب » •

وقد كان غريبا فى هذا الوقت أن ينزل رجل مثل سعد ، سبق له أن تشرف بمنصب الوزارة ، الى ميدان الانتخاب للجمعية التشريعية ، التى لم يكن لها قدر مرموق ، أو أهمية تذكر ، بالنسبة لمركز الوزارة • ولكن سعدا ، الرجل الذى لم يكن يترك مجالا يستطيع فيه أن يخدم بلاده الا اقتحمه ، لم ير بدا من خوض معركة الانتخاب فى دائرتين من دوائر العاصمة • ومع ان الحكومة كانت لا تتوقع له النجاح فى هذه الانتخابات، فقد نجح فى الدائرتين معا ، مما أذهل الحاكمين والمستعمرين على السواء•
دخل ســعد الجمعية التشريعية ، وانتخب وكيلا عن الامة • وقد

---

(١) انظر سيرة سعد زغلول ، للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد •

كانت له فيها مواقف مشهورة • وتزعم المعارضة فى الجمعية ، وأضفى عليها بحسن سياسته ، ودبلوماسيته ، والتزامه التقاليد الدستورية ، وأصول المناقشات البرلمانية ، صبغة من الاحترام والمهابة ،وجعلت الحكومة تحسب له كل حساب بعد أن كانت تعد اجتراء العضو على مناقشة وزير من الوزراء (وقاحة) • ومع أن دور الجمعية فى تخطيطها الاول لم يكن يتعدى أن يكون استشاريا بحتا ، فقد استطاع سعد بقوة شخصيته أن يناقش الوزراء ، ويضطر رئيسهم أحيانا الى اجابة بعض مطالب الشعب • بل ان المعارضة استطاعت بزعامة سعد ، ولما يمض على افتتاح الجمعية التشريعية سوى شهرين ، أن تعجل بسقوط وزارة محمد سعيد ، بالرغم من حماية السراى والاحتلال له •

وسبق القول أن كرومر غادر البلاد في شهر مايو عام ١٩٠٧، وخلفه ألدون غورست ، الذى حضر الى مصر يحمل سياسة الوفاق ، وتهدئة غضب المصريين ، والتخفيف من سيطرة الاحتلال ، وغطرسة المحتلين •

ولكن غورست لم تطل حياته ، اذ توفى بعد ثلاث سنوات من تعيينه ، فخلفه اللورد كتشنر عام ١٩١١ ، الذى أراد العودة الى سياسة كرومر ، وتثبيت أقدام الاحتلال فى مصر • وقد كان انشاء الجمعية التشريعية من ثمرة أفكاره • وطبعا أرادها جمعية استشارية ليس لها من المجالس النيابية سوى الاسم ، فلا تملك من محاسبة الحكومة أو الاعتراض على مؤامرات المحتلين أى شىء •

ولكن مالبث سعد أن جمع حوله الاعضاء المنتخبين ، وكون منهم حزبا للمعارضة ، زلزل به أقدام الحكومة ، وأقض مضاجع المحتلين ، وعلى رأسهم اللورد كتشنر ، وصار قذى فى عيونهم ، وشجا فى حلوقهم ، مما خيب رجاء كتشنر ، ودعاه الى التهديد بالغائها •

وقد كان تزعمه للمعارضة فى الجمعية التشريعية ، ممهدا له لكى يتزعم الشعب بأسره فى نضاله ضد المحتلين فى ثورة مارس عام ١٩١٩• وقد ذكرنا الدور الذى قام به فى هذه الثورة ، والاحداث الخطيرة التى أعقبتها ، واستهانته بالاخطار التى تعرض لها ، ونفى الانجليز له مرتين: الاولى الى مالطه ، والاخرى الى جزائر سيشل ، بالرغم من شيخوخته ، وضعف صحته ، وتعرضه للموت فى تلك الجزر السحيقه ، فعلت صيحة الاحرار فى كل مكان بضرورة نقله الى مكان آخر ، تتوافر فيه العناية بصحته ، ابقاء على حياته ، مما اضطر الانجليز معه الى نقله الى صخرة

جبل طارق . وهناك عرض عليه الانجليز تولى عرش مصر ، فأبت نفسه الاستماع الى اغراء الانجليز ، أو الانقياد الى مناووراتهم الخبيثة، ومداووراتهم الماكرة ، وتحويل سعيه وجهاده عن مطلبه الاسمى ، وهو تحرير بلاده من ربقة الاستعمار ، وذل الاستعباد ، الى العرض الزائل .

ولقد حاولوا قبل الآن اغراء المجـاهد الكبير محمد فريد بمنصب الوزارة ، وانتهزوا فرصـة تشرده فى أوربا ، وفقره ، ومرضه ، لصرفه عن المطالبة بجلائهم عن مصر ، ورفع أيديهم عن شئونها ، واعادة الحرية والاستقلال اليها . فقابل اغراءهم بكل احتقـار ، ورفض الانصياع الى مكرهم وخداعهم . وهذه هى سياسة الاستعمار الدنيئة ، للفت فى عضد المجاهدين ، وشل حركة الابطال المناضلين ، وكم أفواه الزعماء الوطنيين: سياسة الرشوة ، والاغراء ، والمكر والدهاء ، واللعب بالنار .

والمعنا قبل الآن الى آخر مؤامرات الانجليز ، قبل قيام ثورة ١٩١٩، فى تحويل مصر الى نظـام المستعمرات ، تلك المؤامرة التى انطوى عليها مشروع برونيات . وقد استعملوا المكر والخديعة لفرض هذا المشروع على مصر ، فأخذوا يعدون له الاذهان ، بالقاء سلسلة من المحاضرات ، بوساطة بعض القضاة الانجليز ، فى جمعية الاحصـاء والتشريع ، على نخبة من علية المصريين والاجانب ، تزين لهم المشروع، وتغريهم على قبوله والترويج له ، مدعية أن فى تطبيق النظام الجديد تخليصا لمصر من نظام الامتيازات، وخيل اليهم أن المصريين من الحمق والغباء بحيث يستبدلون بذل ذلا أشد منه وأنكى ويبيعون حريتهم ليشتروا بها استعبادا واسترقاقا .

وسعد الذى لم يكن يرى ضررا يحيق ببلاده ، الا ويسـارع الى الاعتراض عليه ، والمجـاهرة برفضه ، لم يدع فرصة تلك المحـاضرات الخبيثة ، فى جمعية الاقتصاد والتشريع ، تمر دون أن يحضر واحدة منها فى ١٧ من فبراير عام ١٩١٩ ، وعقب عليهـا بقوله « ان أمتنا المصرية ليست من قبيل الاقوام الهمجية ، الذين ليست لهم شرائع مقررة . وأيما بلد كبلدنا ، له حياة عريقة فى القوانين والشرائع ، فمن الخطر أن يعمد الى تغيير كلى فى شرعه ، دون أن تدعـو الضرورة لذلك ، أو تهدى اليه التجربة والاختبار » الى أن قال :

« أعلنت انجلترة حمايتها من تلقاء نفسها ، دون أن تطلبها أو تقبلها الامة المصرية . فهى حماية باطلة ، لا وجود لها قانونا . بل هى ضرورة من ضرورات الحرب ، تنتهى بنهايتها . ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » .

ولقد أذهل المجتمعين هذا التعقيب من جانب سعد • كما أذهل سلطات الاحتلال • وانتشر خبره فى طول البلاد وعرضها ، وكان له أبعد الأثر فى اثارة حماس الشعب ضد الحماية ، فى الوقت الذى كان المحتلون المستعمرون يعدون أذهان الشعب لقبولها ، والتمهيد لفرض التغيير الدستورى ، الذى يعد مقدمة لها • ولا شك انهم أيقنوا من وقوع هذا الحادث ان سعدا قوة لا يستهان بها ، يقف حائلا دون أغراضهم الاستعمارية ، وودوا لو انهم استطاعوا التخلص منه ، قبل أن يستفحل أمره ، ويشتد خطره ، ولكنهم كانوا فى غفلة من أمر هذا الشعب ، لا يدرون دوافعه النفسية ، لان نظرتهم الى الامور سطحية ، فدهمتهم الثورة ، وفجأتهم الانتفاضة ، فوصف أحد ساستهم ، وهو المستر برونيات الثورة بانها (شعلة تطفئها بصقة) • فدل على قصر نظره ، وفساد تفكيره ، وسوء تدبيره • ولم تستطع دولته العتيدة ، بمدافعها وجيوشها الجرارة ، أن تطفىء الثورة ، أو أن تجبر المصريين على قبول الحماية بل ان الذى حدث هو العكس • حدث أن طرد المصريون الانجليز من بلادهم ، وأجلوهم عن أراضيهم ، بقوة حقهم ، وصادق جهادهم ، وتشجعت الامم المغلوبة على أمرها ، وحذت حذو مصر ، فكسرت قيد الاستعمار ، ونفضت عن كاهلها ذل الاستعباد ، واستعادت حريتها المسلوبة ، واستقلالها المغتصب • ولله در القائل (وتقدرون فتضحك الاقدار) •

ولقد انعقدت لسعد الزعامة بلا منازع ، بالرغم من أعدائه الذين كانوا يدورون فى فلك الاستعمار ، والذين يعملون بوحى منه ، أو الذين يحقدون عليه تبوأه مركز الزعامة ، وقدرته فى التأثير على سامعيه من جموع الشعب ، بقوة منطقه ، وسحر بيانه ، واستخفافه بحراب الانجليز وسيوفهم ، واستمساكه بحق بلاده فى الحرية والاستقلال ، ودفاعه عن هذا الحق بكل قوته ، فى شجاعة واصرار • وأقر له خصومه السابقون بالزعامة ، فولوه رياسة البرلمان الذى انعقد من تلقاء نفسه فى نوفمبر عام ١٩٢٥ ، وأسندوا له رياسة المؤتمر الوطنى ، الذى جمع الاحزاب المؤتلفة كلها فى فبراير عام ١٩٢٦ ، كما تألفت وزارة عدلى عام ١٩٢٦ ، ووزارة ثروت عام ١٩٢٧ بموافقته (١) •

وكثيرا ما تغرى الزعامة بركوب متن الشطط ، ويدفع الاعتداد بالنفس الزعيم الى الوقوع فى بعض الاخطاء ، والتنكيل بمخالفيه فى

---

(١) فى أعقاب الثورة للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ج ١ ص ٢٩٤ •

الرأى ، والضيق بناقديه ، فيرميهم بالمروق والخيانة ، مع ما يترتب على ذلك من تفرقة الصفوف ، وتشتيت الجهود ، الامر الذى يرحب به العدو المتربص أيما ترحيب • اذ أن ذلك يتيح له فرصة الصيد فى الماء العكر •

وذكرنا أن سعدا كان شديد الاعتداد بنفسه ، لا يحيد عن رأى يعتقد صوابه ، ويقابل معارضيه بالنقد اللاذع • وقد حدث ذلك مثلا عند اختلافه مع عدلى على رياسة المفاوضات ، فاتهمه بالائتمار بأمر الانجليز ، والخضوع لارادتهم •

وقال فيه عبارته المشهورة «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس» •

ويؤخذ عليه أنه لم يضع وحدة الصف ، واتحاد الكلمة فى تقديره الاول ، فى السنوات الاولى للثورة ، واخذه مخالفيه فى الرأى بالشدة وقارص النقد • ولكنه ما لبث أن تبين ما لتوحيد الكلمة ، وضم الصفوف من أهمية ، والوقوف جبهة واحدة فى وجه الانجليز والسراى ، مما اضطر الحكومة الى النزول على ارادة الشعب واعادة الدستور •

كذلك عرضه التهافت على رياسة الوزارة الى الاصطدام المباشر بالمستعمرين الانجليز ، واستبداد السراى ، وقد كان ذلك متوقعا منذ اللحظة الاولى ، وقد ادخره فريق من الزعماء المفكرين ، الى الجهاد فى الحقل السياسى ، بعيدا عن الوزارة ، ولكنه انفرد برأيه ، وتولى الوزارة ، ووقع ما كان متوقعا ، واضطر الى الاستقالة عقب مقتل السردار ، وقد اعترف هو نفسه بأنه كان المقصود بالذات من الانتقام الدنىء ، الذى أوقعته انجلترة بمصر ، عقب الحادث •

ومن الهنات التى أخذت على سعد ، أخذه بمبدأ المحسوبية ، فاصبح قاعدة معمولا بها عند جميع الاحزاب • فاذا تولى أحدها كراسى الحكم ، حشد أنصاره وأتباعه فى الوظائف الحكومية ، واغدق عليهم الدرجات والعلاوات • على حين يحرم اياها المجدون العاملون ، لانهم لا ينتمون الى الحزب الحاكم • وهذا بلا شك افساد للذمم ، واضعاف للهمم ، واغراء على التكاسل ، مادامت المحسوبية توصل الى الهدف ، وتعوض عن الجد ،

والتفـــانى فى أداء الواجب • وقد كان يعتذر عن ذلك بوثوقه فى أقاربه وأنصاره ، حتى لقد قال فى ذلك عبارته المأثورة «وددت لو تصبح الحكومة زغلولية لحما ودما » ولكن المحسوبية أثبتت فى جميـــع أدوار التاريخ ، انها داء وبيل ، يسارع فى انهيار الحكومات ، ويؤدى الى تفشى الفوضى والاضطراب فيها ، ويضعف فى المواطنين ثقتهم فى عدل الحاكمين •

ولكن بالرغم من كل هذه الهنات ، فقد كان لسعد زعامته التى لم يكن له فيها منازع • وقد ضرب مثلا أعلى فى التضحية ، والنزاهة ، والعفة ، وقوة الارادة ، والتفانى فى سبيل وطنه ، ومن أجل بلاده ، مما لايختلف فيه اثنان ، وبذلك اختتم حياته ، فكان مسك الختام •

(٢٠)

المؤامرات الانجليزية ووزارات الانقلاب

ذكرنا أن اللورد جورج لويد خلف اللورد اللبنى فى منصب المندوب السامى البريطانى فى مصر ٠ وانه كان يترسم خطى اللورد كرومر ، فى فرض سيطرته على شئون مصر ، بالرغم من تصريح ٢٨ فبراير ، الذى اعترفت فيه انجلترة باستقلال البلاد ٠ وكان أول تدخل له ، مطالبة الملك بطرد حسن نشأت ، من وكالة الديوان الملكى ٠ ثم قامت أزمة الجيش ، ثم تبعها اعتراض انجلترة على بعض التشريعات، التى وافق عليها البرلمان ، عقابا لمصر على رفضها مشروع تشمبرلن ، الذى قدمه آلى ثروت، لعقد معاهدة مع مصر ٠

وزارة الانقلاب برياسة محمد محمود :

لم يسترح الانجليز ، كما لم تسترح السراى ، لوجود وزارة دستورية فى دست الحكم ٠ لذلك تآمر الطرفان على اسقاط وزارة النحاس ، بالرغم من أنها كانت حائزة لثقة البرلمان ٠ ولكى تنجح المؤامرة أوعز الملك آلى الاعضاء الدستوريين فى الوزارة بالاستقالة ٠ وبعدئذ أقال الملك النحاس ، بحجة تصدع الائتلاف ، وكلف « محمد محمود (باشا) وكيل حزب الاحرار الدستوريين ، حزب الاقلية فى البرلمان، تاليف الوزارة ٠ ولما كان من المقطوع به أن «محمد محمود» لن يحصل على ثقة البرلمان ، استصدر أمرا ملكيا بتأجيل البرلمان شهرا ٠ كما فعل زيور من قبل ٠ ولما انقضى الشهر ، استصدر أمرا بتعطيل البرلمان ثلاث سنوات قابلة للتجديد ٠ وأعلن انه سيحكم البلاد خلالها «بيد من حديد» ٠

وقد حكمت البلاد فى الواقع حكما تعسفيا : فأهدرت الحريات ، وكممت الافواه ، وأسرفت الوزارة فى اضطهاد الصحافة ، وصادرت

حرية الاجتماع ، واعتدت على المعـــارضة بالحبس والضرب ، وأصدرت القوانين لمنع تظـاهر الطـــلاب ، أو اشـــتراك الموظفين فى الاجتماعات السياسية ، وأغرت رجال الامن على اضطهاد الشعب ، والتنكيل بالافراد، بأن أصدرت القوانين التى حمتهم من عقاب القانون العام ، والقصاص ممن يرتكبون جرائم فى حق أفراد الشعب ٠

ولـــكى تحمى الوزارة نفسهـــا من سخط الشـــعب وكراهيته ، استصدرت مرسوما فى ٢٠ من مارس عـــام ١٩٢٩ بفرض عقوبة الحبس والغرامة ، أو كليهما على كل من حرض على كراهية نظام الحكم الجديد ، الذى قضى بوقف الحياة الدســـتورية ٠ وانتحلت لنفسها الحق فى أن تعقد بعض الاتفـــاقات الدولية فى غيبة البرلمان ، كاتفاق النيـــل مع انجلترة ، وبهذه الاتفاقية حرمت مصر السيطرة ، التى كانت لها على مياه النيل وادارته ، وأصبح لانجلترة حق الاشتراك فى هذا الاشراف والتدخل فى الحياة الاقتصادية لمصر ٠

اقالة اللورد جورج لويد

استقالت وزارة المحافظين فى انجلترة عقب اجراء الانتخـــابات فى مايو عام ١٩١٩ ، التى فاز بها حزب العمال بالاغلبية ، وخلفتها وزارة من العمال برياسة المستر رامزى مكدونالد ، الذى كان من ضمن سياسته الوصول الى تسوية دائمة شريفة ، للمسائل المعلقة بين بريطانيا ومصر ٠ ورأى ان يمهد لذلك باقالة اللورد جـــورج لويد ، اعترافا منه بســـوء سياسته ، واشـــتراكه فى المؤامرات التى أدت الى الانقلاب الدستورى الاخير ، وعينت مكانه مندوبا ساميا جديدا ، هو السير برسى لورين ٠

مفاوضات محمد محمود ـ هندرسن

وبهذا بدأت المفاوضات بين المستر هندرسن وزير خارجية انجلترة ، ومحمد محمود ، وتمخضت هذه المفاوضات عن مشروع(١) معاهدة تقدم به المستر هندرسن الى محمد محمود ، فى ٣ من أغسطس عام ١٩٢٩ ، بقصد عرضه على البرلمان والشعب المصرى للموافقة عليه، ثم ابرام المعاهدة بين مصر وبريطانيا ٠

---

(١) انظر نص مشروع هذه المعاهدة والمذكرات الملحقة به فى كتاب القضية المصرية ص٢٩٧ـ ٣٤٠ ٠

ومشروع المعاهدة ـ وان كان قد اختلف عن مشروع تشمبرلين ـ ثروب ، بأن جعل مكان الحامية البريطانية منطقة قناة السويس ، وتضمن تنازل انجلترة عن مطلبها فى تخويلها المسئولية عن حماية الاجانب ، وقبولها اضطلاع مصر بهذه المسئولية ، والاعتراف لمصر بأنها مسئولة وحدها عن حماية الاقليات ـ فقد اشتمل على الركنين الرئيسيين لهدم الاستقلال وهما : بقاء جيش الاحتلال فى مصر ، واشتراك انجلترة فى حكم السودان ٠

استقالة محمد محمود وتاليف وزارة عدلى يكن الثانية :

اشترط الوفد ، لكي يستطيع النظر فى مشروع المعاهدة الجديد ، أن تستقيل وزارة محمد محمود ، وأن تتالف وزارة محايدة لاجراء الانتخابات ، وعرض مشروع المعاهدة على البرلمان ، وليد تلك الانتخابات٠

ونظرا لرغبة انجلترة الملحة فى عقد المعاهدة ، أوعزت الى الملك بقبول شروط الوفد ، فاستقالت وزارة محمد محمود، برغم تشبثها بالبقاء بكراسى الحكم ، وتالفت وزارة عدلى يكن الثانية فى اكتوبر عام ١٩٢٩ ، وأجرت الانتخابات فى ديسمبر عام ١٩٢٩ ، فى حيدة ونزاهة تامتين ، وأسفرت الانتخابات عن فوز الوفد ، فاضطر الملك الى استدعاء النحاس ، وتكليفه بتأليف الوزارة ٠

وزارة النحاس الثانية ٠٠ ومفاوضات النحاس ـ هندرسن :

الف النحاس الوزارة للمرة الثانية ، فى الاول من يناير عام ١٩٣٠، وعادت الحياة الدستورية الى البلاد ، وافتتح البرلمان فى ١١ من يناير ، وقرر مجلس الشيوخ والنواب فى ٦ من فبراير عام ١٩٣٠ تكليف الوزارة فى مفاوضة الحكومة الانجليزية للوصول الى اتفاق شريف وطيد ، يوثق عرى الصداقة بين البلدين ٠

وبناء على ذلك تالف وفد رسمى برياسة مصطفى النحاس باشا ، سافر الى لندن يوم ٢٠ من مارس ، وجرت المفاوضات بينه وبين المستر هندرسن يوم ٢١ منه ، ولكنها قطعت يوم ٨ من مايو ، لعدم الوصول الى اتفاق على المادة الخاصة بالسودان ، اذ حرص الوفد المصرى على اثبات حقوق مصر ومصالحها المادية فى السودان ، مع اعترافه بمعاهدة ١٨٩٩ ، الذى تشترك بموجبها انجلترة مع مصر فى ادارة السودان ٠ ولكن الحكومة

الانجليزية أبت الموافقة على المادة التى اقترحها الوفد الرسمى المصرى بهذا الخصوص (١) ٠

عاد الوفد الى مصر بعد قطع المفاوضـــات ، وصرح مكرم عبيد أحد أعضاء الوفد قائلا : « خسرنا المعاهدة ولكننا كسبنا صداقة الانجليز ! » فكان تصريحا عجيبا ، فأى صداقة تلك التى اكتسبها الوفد لمصر ، وقد أثبتت الاحداث ، قديمها وحديثها أن الانجليز لا يكنون لمصر الا كل حقد وشر ، ولا يحرصون الا على تثبيت أقدامهم فيها ، مهما كان الثمن ، ولو أدى ذلك الى البطش بأفراد الشعب ، والتنكيل بهم واراقة الدماء انهارا ، كما حدث فى ثورة سنة ١٩١٩ ؟

عاد النحـاس الى مصر فـوجد المؤامرات تدبرها السراى والاحرار الدستوريون والانجليز لاقصاء الوزارة عن الحكم ، والاعتداء على الحياة الدستورية : فقد رفض الملك بايعـــاز من الانجليز ، الموافقة على مرسوم محـــاكمة الوزراء ، الذين يعتدون على الدستور لحاجة الانجليز الى مثل هؤلاء الوزراء عند اللزوم ٠ ورفض أيضا مرسوم انشـاء بنك التسليف الزراعى ، لحماية الفلاحين من البنوك الاجنبية ، ارضـاء للانجليز الذين رأوا فى انشاء هذا البنك اضرارا بتلك البنوك ٠ وفى تعيينات الشيوخ ، بدل الذين سقطت عضويتهم بالقرعة ، وضعت السراى أسـماء مرشحين آخرين ، غير من رشحتهم الوزارة ٠

استقالة وزارة النحاس :

وبلغت المؤامرة غايتها بأن تقدم حزب الاحرار الدستوريين الى الملك، بعريضة يكيل فيها التهم للوزارة ، ويلتمس منه معالجة الحالة بحكمته ٠ ومعنى ذلك اسقاطها ٠ لذلك لم ير النحاس بدا من تقديم استقالته فى ١٧ من يونيه عام ١٩٣٠ ، فسارع الملك الى قبولها ، وعهـد الى اسماعيل صدقى باشا بتاليف الوزارة من جديد ٠

وزارة اسماعيل صدقى

ألف اسماعيل صدقى وزارة الانقـلاب الثالث ، فى ٢٠ من يونيه عام ١٩٣٠ ، وكان أغلب أعضائها من الاتحاديين ٠ وقد كان ممكنا «التنبؤ» بما تنتويه هذه الوزارة من أعمال ، بالرجوع الى ماضى اسماعيل صدقى

---

(١) انظر مشروع الوفد لعقد المعاهدة ص ٤٣٠ ــ ٤٣٤ من كتاب القضية المصرية ٠

القريب ، فقد كان عضوا فى وزارة الانقلاب الاول ، الذى أجراه أحمد زيور باشا ، والتى عطلت الحياة الدستورية ، وكان مؤيدا للانقلاب الثانى الذى قام به محمد محمود باشا ٠

فكان أول عمل قام به صدقى ، تأجيل انعقاد البرلمان شهرا ، ابتداء من ٢١ من يونية عام ١٩٣٠ ، كما فعل سلفاه زيور ومحمد محمود تماما ٠ فاحتج كل من عدلى يكن باشا رئيس مجلس الشيوخ ، وويصا واصف بك رئيس مجلس النـــواب ، على هذا التأجيل ، واحتلال الجنود للبرلمان ، للحيلولة بين النواب وبين عقد جلساتهم فيه ، تحديا لمرسوم التأجيل ٠

وبدأ الشعب مقاومته لأعمال الوزارة ، وتعديهـا على الدستور ٠ وأخذت الوزارة من ناحيتها تقمع المظاهرات بكل شدة ، مستعينة بقوات الجيش والبوليس ، فاريقت كثير من الدماء ، وكثر عدد القتلى والجرحى فى كل مكان ، خصوصا فى الاسكندرية مما دعا بريطانيا أن ترسل تبليغا الى الحكومة المصرية ، تحملها مسئولية حماية أرواح الاجانب ، وتتبع ذلك بارسال بارجتين حربيتين الى الاسكندرية ، متبعة فى ذلك تقليدها المعتاد فى الوعيد والارهاب ، واستعراض عضلاتها ، متخذة الاجانب ذريعة لها فى التدخل فى شئون مصر ، والافتئات على حقوقها وحريتها ٠

وقد كان اسماعيل صدقى أجرأ من سلفيه ، زيور ومحمد محمود فى الاعتداء على الحياة البرلمانية ، فقد اقتصر عملهما على تعطيل البرلمان ولكن «اسماعيل صدقى» الغى بجرة قلم دستور ١٩٢٣ ، ووضع دستورا جديدا يضيق من سلطات الامة ، ويحد من حريتها ، وسن قانون انتخاب يحصره فى أضيق الحدود ٠

وصدر الامر الملكى فى ٢٢ من اكتوبر عـــام ١٩٣٠ بالغاء دستور ١٩٢٣ ، وبحل مجلسى الشيوخ والنواب ، واعـلان الدستور الجديد ٠ ووقع الملك فؤاد ومعه الوزراء ورئيسهم على هذا الامر وعلى الدســـتور الجديد ٠ واذا علمنا ان الملك «فؤاد» قد سبق له أن اقسم يمين الولاء للدستور القديم ، فانه يعد والحالة هـــذه حانثا فى يمينه ، اذ اجترأ على الدستور بالغائه ، والموافقة على احلال دستور آخر محله ٠

ولا يغيب عن البـــال أن الملك ما كان يستطيع ان يوافق على الغاء الدستور ، لولا أنه كان يكره أن يكون الشعب مصدر السلطات ، وقد ظهر عداؤه له منذ اللحظة الاولى من قيامه٠ لانه كاسلافه الحكام المستبدين لا يطيق أن يرى السلطة تفلت من يديه وتتحول الى الشعب ٠ وأهم من

كل ذلك أن يحدث هذا الانقلاب ، وذلك الاعتداء على الدستور بموافقة الانجليز ، وتحريضهم ، بالرغم من ادعائهم الوقوف موقف الحياد من هذا الانقلاب ، وعدم تدخلهم فى أمور مصر الداخلية ، وفى أمر الدستور بصفة خاصة • ومعروف أن حكم الشعب يحول دون فرضهم السيطرة على البلاد والتدخل فى شئونها ، وحرمان الشعب من حريته واستكمال استقلاله • والمشاهد أنه فى كل مرة تعطل فيها الحياة النيابية ، ويعتدى على الدستور ، لم يحدث ذلك الا عقب رفض مصر مشروع معاهدة تسعى من ورائها انجلترة الى تثبيت الاحتلال ، وهدم الاستقلال • ولكنهم مع ذلك يدعون الحياد ، ويتبرءون من التدخل فى شئون البلاد ، والله يعلم أنهم كاذبون ومنافقون ومخادعون • ويصدق عليهم المثل السائر «اذا لم تستح، فاصنع ما شئت » •

وليس من شأن هذا الكتاب مناقشة دستور صدقى وقانون الانتخاب ، اللذين ابتدعهما ، وتبيان مدى انتقاصه لحقوق الشعب ، وتقييد حريته ، وانتهاك كرامته ، وانما يمكن القول فى ايجاز انه لم تكن هناك حاجة لوضع دستور جديد ، لو لم ير الملك والمستعمرون الانجليز فى دستور ١٩٢٣ ما يفوت عليهما فرصة السيطرة على الشعب ، والتحكم فى مقدراته ، والانتقاص من حقوقه ، والحد من حريته ، لهذا تآمرا عليه ، وبيتا له الشر ، وعملا جهدهما لمحوه ، والقضاء عليه •

لذلك ثارت ثائرة البلاد ، واشتد غضبها، وقامت الهيئات السياسية بالاحتجاج على هذه الجريمة النكراء • وعقد مؤتمر وطنى من الوفد ، والاحرار الدستوريين ، وأصدروا قرارا بتمسكهم بدستور ١٩٢٣ ، واستنكار دستور صدقى ، ومقاطعة انتخاباته ورفعت القرارات للملك ، وقدمت الى ممثلى الدول •

ومع كل ذلك فقد أجريت الانتخابات فى جو مشحون بالسخط والكراهية لها ، وحدثت مصادمات دموية بين البوليس والشعب ، قتل فيها خلق كثير ، وجرح أضعاف ذلك ، وارتكبت كثير من جرائم التنكيل بالناس وتعذيبهم ، والغش فى الانتخابات وتزويرها ، وتسترت الحكومة على هذه الجرائم ، بل انها كافأت مرتكبيها ، وأحسنت اليهم ، وأخيرا اجتمع برلمان صدقى فى ٢ من يونيه عام ١٩٣١ •

وقد اقترن هذا العهد المشئوم بضائقة مالية خانقة، أمسكت بتلابيب الناس ، وانتشر على أثرها البؤس والضنك بين الفلاحين ، بسبب انخفاض

أسعار القطن ، وهبوط أثمان بقية المحصولات تبعا لذلك • ولم يستطع صدقى مع ما كان يدعيه من حذق فى الشئون الاقتصـــادية والمالية أن يفعل شيئا ، يمكن أن يخفف من الضائقة المـــالية • وكل ما اتخذه من اجراءات كان فى صالح البنوك الاجنبية ، التى كانت تدين الفلاحين • اذ كان كل همه استرضاء الانجليز والاجانب ، على حساب الشعب ، لكى يؤيدوا حكم البطش والجبروت ، الذى كان يمارسه ضد رغبات الشعب والأهلين •

محادثات : سيمون ـ صدقى :

وكان صدقى يسعى جهده للحصول على معـــاضدة الانجليز له ، ومساندتهم اياه ، ولذلك كان يتهافت على اجراء مفاوضات معهم ، لعله يفوز منهم بما لم يفز به المفـــاوضون المصريون قبله ، فيفيد منه بتقوية مركزه فى مصر ، ويهدىء من سخط الشعب على عهده ، ويدفع عن وزارته ما تلقاه من معارضة ومقاومة فى كل مكان •

جرت المحـــادثات(١) مع السير جون سيمون ، وزير خارجيـــة انجلترة ، فى جنيف فى ٢١ ، ٢٢ من سبتمبر عام ١٩٣٢ • وقـد حدث عكس ما كان يتمناه صدقى من وراء هذه المحادثات ، فقد أظهرت انجلترة استهانة به ، وعدم اهتمام بأمره ، بالرغم من الثناء الذى أضفاه سيمون على مقدرة صدقى فى حكم البلاد ــ حكم السيطرة والجبروت والعسف ، الذى تهواه انجلترة وتؤمن به ، وتمارسه فى المستعمرات ولكنها مع ذلك كانت توقن أن أى اتفاق مع صدقى ، مصيره الفشل الذريع ، والاخفاق التام • لان حكمه قائم على البطش والجبروت ، لا يؤيده سوى أقلية من المستغلين ، ونهازى الفرص ، وأصحاب المطامع الشخصية ، ممن لا وطنية ولا أخلاق لهم • والذى كانت تسعى له جهدها ، انما هو اتفاق يرتبط به الشعب ، وتقوم على تنفيذه حكومة وطنية مسئولة ، تنوب عن الشعب فى هذه المهمة •

تعيين سير مايلزلمبسون مندوبا ساميا فى مصر :

تبين للانجليز فشل سياسة صدقى التى كان يؤيدها السير برسى لورين ، تلك السياسة التى كانت قائمة على البطش والتنكيل ، وتؤيدها

---

(١) انظر محضر هذه المحادثات ومذكرة اسماعيل صدقى لجون سيمون بكتاب القضية المصرية ص ٤٤٦ ــ ٤٥٤ •

السراى ، ويساندها الانجليز ، وعـدم جدوى هذه السياسة فى اخضاع الشعب المصرى لارادتهم • لذلك صدر قرارهم بنقل السير برسى لورين سفيرا لانجلترة فى تركيا ، واحلال السير مايلز لمبسون سفيرها فى الصين محله • وهى تأمل أن يستطيع بمكره ودهائه ، التمهيد لعقد المعـاهدة المنتظرة ، بين مصر وانجلترة ، والتى كانت تسعى بكل ما أوتيت من مكر ودهاء وحيل ومؤامرات ، لابرامها •

استقالة وزارة صدقى :

لذلك لم ير اسماعيل صدقى فائدة ترجى من البقاء فى الحكم ، بعد أن فقد عضـده الأكبر ، وهو السير برسى لورين ، ولانه تبين فشل سياسة البطش والتنكيل ، التى أغرق فيها ، فى أواخر عهده ، فى اخضاع الشعب واذلاله ، والتى بدأ القضاء يجاهر بمجافاتها للعدالة والقانون ، كلما التجأ اليه الافراد طالبين حمايتهم من بطش رجال الامن والادارة ، الذين كان صدقى يسخرهم للتنكيل بالشعب والانتقام منه •

وانه لمن المؤسف والمحزن حقا ، أن يستغل سـياسى مجرب ، مثل اسماعيل صدقى مواهبه وعبقريته فى اذلال مواطنيه ، والتنكيل بهم ، والتآمر مع المستعمرين الانجليز ، وملك مستبد ، لا يهمه الا ذاته ومصالحه الشخصية ، على الانتقاص من حقوق الشعب ، وحرمانه من حقوقه التى اكتسبها بعد جهاد مرير ، واراقة كثير من دماء الشهداء ، كل ذلك من أجل كراسى الوزارة وأبهة الملك ، والاسـتعلاء على مواطنيه ، مستهدفا لسخط الشعب ، وغضب الله ، وحكم التاريخ والاجيال القادمة عليه ، بالمروق والخيانة ، والاستهتار ، وفساد الذمة ، والضمير •

انه لا شك أمر يثير الحزن والالم ، ويدعو الى الرثاء والاشفاق ، على وطن يناله الاذى والضرر من أبناء عاقين ، لا يقرون له بفضل ، ولا يعترفون له بجميل ، ويجزونه أسوأ الجزاء ، ويقترفون فى حقه أحط الجرائم وأخسها ، ولكن الله لا يغفل عما يعمله الظالمون •

وقد استقال اسماعيل صدقى فى ٢١ من سبتمبر ١٩٣٣ ، فتنفس الناس الصعداء واستراحوا من عهده البغيض •

وزارة عبد الفتاح يحيى :

وخلف عبد الفتاح يحيى باشا اسماعيل صدقى فى الوزارة فى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، وكان أحد أعضاء وزارته المستقيلة • فـكانت

وزارته امتدادا لوزارة اسماعيل صدقى • لذلك استمرت مقاومة الشعب لها ، مع استهانة الانجليز بها ، ولذلك لم‌تبق فى الحكم طويلا، واستقالت فى ٦ من نوفمبر عام ١٩٣٤ •

وزارة نسيم الثالثة :

عهد الملك الى محمد توفيق نسيم باشا أن يؤلف وزارته الثالثة ، فى ١٥ من نوفمبر عام ١٩٣٤ • ولما تبين الملك ان مغاضبته الشعب ، استجلابا لرضا الانجليز يعود عليه بالضرر ، اذ سيكون من غير شك موضع سخطه وغضبه ، مع اصرار الشعب على القاومة والمناضلة ، من أجل حقوقه وحرياته ، لذلك بدأ فى تغيير سياسته ، واسترضاء الشعب• فاصدر مرسوما ملكيا فى ٣٠ من نوفمبر عام ١٩٣٤ بابطال العمل بدستور ١٩٣٠ (دستور صدقى) وحل مجلس الشيوخ والنواب القائمين على أساس ذلك الدستور • ولكنه تلكأ فى اعادة دستور ١٩٢٣ ، الذى يجعل الشعب مصدر السلطات ، وهو ما ينقم عليه الملك أشد النقمة • ولكنه اضطر تحت اصرار الشعب وتصميمه ، أن يصدر أمرا ملكيا فى ٢٠ من ابريل عام ١٩٣٥ باعادة العمل بدستور ١٩٢٣ •

ولكن الحكومة الانجليزية التى كانت للشعب بالمرصاد ، والتى لا يرضيها الا أن يرسف فى أغلال الذل والاستعباد ، عارضت فى عودة هذا الدستور ، وصرح وزير خارجيتها السير «صمويل هور» بعدم موافقة بريطانيا على عودة دستور ١٩٢٣ ، فقامت المظاهرات فى مصر ، واحتجت الهيئات السياسية على هذا التصريح ، الذى يفضح كذب انجلترة فى ادعائها عدم التدخل فى شئون مصر الداخلية ، وقامت المصادمات الدامية بين البوليس والشعب ، وسقط كثير من القتلى والجرحى ، واتحدت جميع الاحزاب ، وتألفت مرة أخرى جبهة وطنية للمطالبة بدستور ١٩٢٣ •

والمشاهد انه ما من مرة تتحد الهيئات السياسية ، وتكون الاحزاب جبهة واحدة أمام أعداء الشعب والمستعرين ، الا ويفرض الشعب ارادته، ويصيب هدفه ، وتتحقق رغبته •

أصرت الجبهة الوطنية على عودة دســتور ١٩٢٣ ، ولكنها أبدت استعدادها فى كتابها(١) الذى وجهته الى السير مايلزلمبسون ، المندوب الســامى البريطانى للدخول فى مفاوضــات مع انجلترة لعقــد المعاهدة المنتظرة ، التى تتلهف انجلترة على ابرامها • عندئذ فقط وافقت على عودة دستور ١٩٢٣ ، مشيرة بتأليف وفد رسمى ، يقوم بالمفاوضة ، وابرام المعاهدة • وقد تم ذلك ، وعقدت معاهدة ١٩٣٦ •

(١) انظر كتاب الجبهة الوطنية الى المندوب السامى ، بكتاب القضية المصرية ، ص ٤٥٥

(٢١)

معاهدة ١٩٣٦ (١)

حاجة انجلترة الى عقد المعاهدة :

ذكرنا فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب ، أن انجلترة كانت تتوق الى عقد معاهدة مع مصر ، تثبت بها مركزها فيها ، وتضفى عليه صبغة قانونية ، وتحتمى بها من المقاومة التى يشنها المصريون عليها ٠

ولقد حاول الانجليز مرارا وتكرارا الظفر بهذه المعاهدة ، وجروا مصر الى شرك المفاوضات التى كانت تنتهى دائما بالفشل ، لأنهم كانوا يحاولون عبثا فى كل مرة اغتصاب الاعتـراف بالاحتـلال من المفاوض المصرى ، والموافقة على الحماية المقنعة ، والحصول على حقوق وامتيـازات تهدم الاستقلال ، وتهدر كرامة مصر وحريتها ٠

الظروف الدولية التى سبقت عقد المعاهدة

ولقد كان ديدن الانجليز المطل والتسويف فى التسليم بحقـوق مصر ، فى الاستقلال التام ، والاعتراف لها بالحرية الطليقة من كل قيد ، لأنها كانت مطمئنة الى حالة الاستقرار الذى يسود العالم ، وخصوصـا أوروبا آن ذاك ، ولذلك كانت تسوم المصريين الخسف وسوء العـذاب ، لا تخشى فى ذلك تدخلا من أية ناحية ، سـواء أكان من داخل مصر أم من خارجها ٠

ولكن هذا الاستقرار أخذت تشوبه شائبات القلق والاضطراب ، اذ كانت تحلق فى سماء أوروبا نذر الحرب ، وتهب عليهـا ريح الدمار

---

(١) انظر نصوص المعاهدة فى كتاب القضية المصرية ، الصادر عن الحكومة المصرية ، والمذكرات الملحقة بها ، من ص ٤٦٠ الى ص ٤٨٩ ٠

والخراب • وشرع هتلر وموسوليني يزعزعان أركان السلم في أوروبا ، وشعرت انجلترة بالخطـــر يهددها ويهدد مستعمراتها ، ويقطع عليها الاطمئنان الذي ركنت اليه ، بعد أن هزمت المانيا في الحرب الأوروبية الأولى ، وقلمت أظافرها ، وبعثرت امبراطوزيتها ، وانتزعت مكمن قوتها في معاهدة فرسايل •

تودد انجلترة للشعب المصرى

لهذا شعرت بالضرورة الملحة في عقد معاهدة مع مصر ، تضمن بها اتصالها بمستعمراتها عبر قناة السويس ، في أثناء الحرب ، التي كان العالم يقترب من حافتها ، ويعمل هتلر على اشعالها وشنها على انجلترة ، وحليفاتها بصفة خاصة ، وقدح أول شرارة من شررها موسوليني ديكتاتور ايطاليا ، بغزوه الحبشة ، متحديا عصبة الأمم التي نصبت نفسها حامية للسلم الدولي ، ولكنها أثبتت عدم جدارتها للاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة • لهذا أخذت انجلترة تحاسن الشعب المصرى ، وتبدى له الود ، وتصانعه المعروف • ورضيت عن عودة دستور ١٩٢٣ ، الذي كانت تعارض في عودته قبل ذلك • ولله در المتنبي حيث يقول :

كل حلم أتى بغير اقتدار   حجة لاجيء اليها اللئام

تاليف هيئة المفاوضات المصرية

وبناء على ذلك ، استقالت وزارة نسيم باشا ، واستقر رأى الجبهة الوطنية على أن يؤلف الوزارة رئيس محايد لاجراء الانتخابات ، فوقع الاختيار على (على ماهر باشـــا) فالفها في ٣٠ من يناير عام ١٩٣٦ • وعقب تاليفها استصدر من الملك مرسوما بتاليف هيئة المفاوضات من مصطفى النحاس باشا ، ومحمد محمود باشا ، واسماعيل صدقي باشا وحلمى عيسى باشا ، وهؤلاء هم رؤساء أحزاب الوفد والأحرار الدستوريين والشعب والاتحاد ، ومن على الشمسي باشا ، وواصف غالى باشا ، وحافظ عفيفى باشا من المستقلين عن الأحزاب ، ومن عثمان محرم باشا والأستاذ مكرم عبيد والدكتور أحمد ماهر والأســـتاذ محمود فهمى النقراشي من الوفديين (١) •

وجرت الانتخابات يوم ٢ من مايو عام ١٩٣٦ ، وأسفرت عن فوز

(١) مذكرات في السياسة المصرية للدكتور محمد حسين هيكل ج ١ ص ٣٩٧ •

الوفد بالأغلبية ، وبناء على ذلك كلف النحاس باشا زعيم الأغلبية بتأليف الوزارة ، وفتح البرلمان أبوابه يوم ١٠ من مايو عام ١٩٣٦ .

المفاوضات التمهيدية

ولما كان المتفق عليه أن تبدأ المفاوضات فى مصر ، ويوقع على المعاهدة فى لندن ، فقد عقدت الجلسة الافتتاحية للمفاوضات فى قصر الزعفران ، فى الساعة الرابعة من مساء يوم الاثنين ٣ من مارس عام ١٩٣٦ : فى جو دولى يكتنفه الاضطراب، من كل نواحيه : فالحرب دائرة رحاها بين ايطاليا والحبشة ، وهتلر قد نقض معاهدة فرساى ، واحتل منطقة الراين ، ولوح فى خطاب ألقاه فى الريخستاغ بالأمانى التى يتوقعهـا فى المستقبل القريب لألمانيا ، ولا يخفى ما يتضمنه هذا الخطاب من تهديد بالحرب . كل ذلك كان يستحث انجلتره على بذل الجهد لانجاح المفاوضات ، وان كانت تحرص على ألا تكون مفاوضات النحاس - هندرس ، التى تمت عام ١٩٣٠ ، أساسا للمفاوضات الحالية . ولذلك أولت الناحية العسكرية اهتماما أكبر ، بحجة أن الموقف الدولى قد تغير . ولذلك كان الجانب البريطانى يريد أن تظل القوات البريطانية ولها حق التنقل فى أرجاء مصر ، وأن تعسكر حيث يشاء قوادها . وكان المفاوضون المصريون حريصين على أن تنتقل القوات الى منطقة قناة السويس من الغرب ، فذلك مما اتفق عليه مع النحاس باشا فى سنة ١٩٣٠ ، ومع محمد محمود باشا فى سنة ١٩٢٩ (١) وبذلك توقفت المفاوضات زمنا غير قليل ، مما دعا سير مايلزلمبسون أن يسافر بنفسه الى لندن ، لاجراء محادثات مع السير أنطونى ايدن ، وزير خارجية بريطانيا ، الذى خلف السير صمويل هور ، والذى قاد الاعتداء الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .

التوقيع على المعاهدة

استكملت المفاوضات فى قصر انطونيادس بالاسكندرية ، ثم سافر المفاوضون المصريون كما سافر سير مايلز لمبسون المندوب السامى البريطانى ومعاونوه فى المفاوضات الى لندن ، حيث وقعت المعاهدة بقاعة لوكارنو التاريخية ، بوزارة الخارجية البريطانية ، يوم ٢٦ من أغسطس عام ١٩٣٦ ، وعاد الوفد المصرى الى مصر ، مهللا ومكبرا ، ليوهم المصريين بأنه أحرز نصرا مؤزرا واستخلص من براثن الاسد البريطانى المعاهدة التى

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٢ .

يستكمل بها المصريون استقلالهم ، ولذا أطلق عليها النحاس عند وصوله الى أرض مصر اسم معاهدة الشرف والاستقلال ، وقرر اتخاذ يوم ٢٦ من اغسطس ، وهو يوم توقيع المعاهدة ، عيدا أسماه عيد الاستقلال ، وكان الأجدر بها أن تسمى معاهدة استعباد واذلال .

ومن سخرية الزمن أن يقوم النحاس بنفسه عام ١٩٥١ بالغاء هذه المعاهدة ، بعد ما تبين له مقدار الحيف الذى لحق البلاد من جرائها ، والأضرار البالغة التى منيت بها ، على حين جنت انجلترة من ابرامها منافع لا تعد ولا تحصى ، أقلها احراز النصر على أعدائها فى الحرب الأوروبية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) .

واذا أخذنا فى تقديرنا أن الفريقين المتفاوضين لم يكونا متكافئين . وأن المفاوض المصرى كان واقعا تحت سيطرة الانجليز ، بحيث لم تكن له الحرية فى أن يرفض ما يراه مجحفا بحق مصر ، أمكننا أن نفهم كيف جاءت هذه المعاهدة هادمة لاستقلال مصر ، وكيف أنها كبلتها بقيود رجعت بها القهقرى الى مشروع ملنر (١٨ من اغسطس عام ١٩٢٠) وثبتت قدم الاحتلال فيها ، ووضعت امكانياتها ومواردها تحت تصرف الانجليز ، يستغلونها ما شاء لهم الاستغلال ، وجعلها فى مركز أدنى من مركز شعوب الدومنيون .

وقد حذر المندوب السامى البريطانى جبهة المفاوضة من فشل المفاوضات قائلا : « ان فشل المفاوضات فى الوصول الى اتفاق ستكون له عواقب خطيرة . فقد يتعين على الحكومة البريطانية فى هذه الحالة ، أن تعيد النظر فى سياستها فى مصر » ، وأردف هذه العبارة قائلا : « ليس هذا تهديدا بل هو بسط للحقائق . فان فشل المفاوضات سيجعلنا فى مصر فى حالة جديدة تماما »(١)، فاذا لم يكن هذا تهديدا صريحا ، فماذا اذن يكون التهديد ؟ ولكن هذا هو أسلوب الاستعمار فى التهديد والوعيد ، وهذه هى طريقته التى سداها ولحمتها المكر والخداع .

وذكرنا أن النحاس سمى هذه المعاهدة بمعاهدة الشرف والاستقلال ، ولكن بعضا ممن اشتركوا معه فى المفاوضة ، ووقعوا على المعاهدة من حزب الوفد ، مثل أحمد ماهر ، ومن حزب الأحرار الدستوريين ، مثل محمد محمود باشا ، كانوا يخالفونه رأيه ويرون أن هذه المعاهدة لم تستكمل

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية للدكتور محمد حسين هيكل ج ١ ص ٣٩٤ .

مصر بها استقلالها ، وانما تعد بداية فقط لعهد جديد ، وأن الكفاح من أجل استقلال مصر لم ينته بعد ، وانما بدأ مرحلة جديدة .

بعض المآخذ على هذه المعاهدة

والمعاهدة بعد ذلك مليئة بالمآخذ وهى تعد شرا كبيرا لمصر ، بقدر ما تحوى خيرا كثيرا لبريطانيا . وقد تخيرت بدهائها ومكرها وقتا مناسبا لابرامها ، فحصلت من ورائها على المساعدات القيمة ، التى كفلت لها النصر على أعدائها فى الحرب الأوروبية الثانية ، وكانت تتصرف كما لو كانت مصر احدى مستعمراتها :

أولا : ومن أخطر ما اشتملت عليه المعاهدة من مثالب سماحها للجيش الانجليزى أن يحتل منطقة قناة السويس كلها ، وشبه جزيرة سيناء كلها ، والجزء الجنوبى والشرقى من مديرية الشرقية ، وتصل الى حدود القاهرة ، ثم الى حدود مديرية الجيزة ، على حين يحدد مشروع معاهدة النحاس ـ هندرسن مكان اقامة جيش الاحتلال بمنطقة شرقى القناة فى شبه جزيرة سيناء .

كذلك السماح لقوات الاحتلال البريطانية أن تطير حيثما تريد فى الأراضى المصرية . وارضاء للجانب المصرى ، منحت قوات الطيران المصرية هذا الحق فى الأراضى البريطانية (١) ، ولا يتصور المرء استهانة بكرامة مصر ، ولا تغريرا بعقول المفاوضين المصريين ، أكثر مما احتوته هذه الفقرة من المعاهدة .

ولقد ألقى الأستاذ مكرم عبيد ، فى جامعة القاهرة ، محاضرة يشرح فيها ما اشتملت عليه المعاهدة من مزايا ، واستمعت اليه وهو يشرح هذه الفقرة ، بحماسته المعهودة ، محاولا أن يدخل فى روع المستمعين أنها تضعنا على قدم المساواة مع انجلترة ، ولم يخف كثير من الحاضرين دهشتهم من جرأة المحاضر على الاستخفاف بعقولهم ، والاستهانة بأفهامهم . وأى جرأة أعظم من تسمية رئيسه النحاس المعاهدة بمعاهدة الشرف والاستقلال ؟!

ثانيا : وحددت المعاهدة القوات البريطانية بمصر وقت السلم ، بحيث لا تزيد على عشرة آلاف من القوات البرية ، وأربعمائة من الطيارين ، مع الموظفين اللازمين لأعمالهم الادارية والفنية . أما فى حالة

---

(١) المادة ١٣ من المعاهدة . انظر كتاب القضية المصرية ، ص ٤٦٧ .

الحرب ، أو خطر الحــرب ، أو قيام حالة دولية مفاجئة ، فلانجلترة أن تزيد قواتها الى ما تشاء (مادة ٧ وفقرة ١ من ملحق المادة ٨ وتبدأ من المحضر المتفق عليه) •

ومعنى ذلك عدم تحديد العدد للجيش البريطانى فى مصر اطلاقا ، لا فى وقت السلم ولا فى وقت الحرب ، لأن خشية وقوع حالة دوليـــة مفاجئة لا تعد من حالات الحرب (١) •

وتستطيع انجلترة أن تفترض وقوع الحالة الدولية المفاجئة فى أى وقت تشاء ، فتزيد من عدد جيش الاحتلال الى أى عدد تشــاء ، وأقرب دليل على ذلك أن وصل عدد جيش الاحتلال فى مصر قبيل ثورة يوليه عام ١٩٥٢ الى أكثر من ثمانين الف جندى مع أن الوقت لم يكن وقت حرب ، ولم تكن هناك حالة دولية مفاجئة ، وانما كان هناك شعب يطالب بحريته ، ويسعى لكسر الأغلال التى فرضت حول عنقه ، ولا بد من جيش عرمرم لقهره واستذلاله •

ثالثا : واشترطت المعاهدة ألا تنتقل القوات البريطانية ، وما يتبعها من المستخدمين المدنيين ، الذين يقدر عددهم بأربعة آلاف مستخدم ، الى المناطق التى حددت لاقامتها ، الا بعد أن تقوم مصر ببناء الثكنات والمنشآت الصالحة لايوائها ، وفقا لأحدث النظم ، مع المسلتزمات الفنية ، بما فيهـا من ايصال المياه ، وتوفير أسباب الراحة للجنود ، بغـرس الأشـجار ، وانشاء الحدائق والملاعب ، مع بناء مساكن للمتزوجين من الضــباط ، ومن دونهم من مراتب الجندية ، واقامة معسكر استشفاء على شاطىء البحر الأبيض المتوسط (بالعريش) (مادة ٨ وملحق ٣ للمادة ٨) وقد قدر لاقامة هذه المنشآت ما لا يقل عن اثنى عشر مليونا من الجنيهات (٢) •

رابعا : كذلك اشترطت المعاهدة أن تنشىء مصر على حسابها الخاص طرقا حربية ، تختط الدلتا من شرقيها الى غربيها ، ومن شماليها الى جنوبيها ، لتربط الاسكندرية ببور سعيد والسـويس والقاهرة ومرسى مطروح ، وتختط الوجه القبلى من شماليه الى جنوبيه ، وتربطــه بموانى البحر الأحمر • وبديهى ان هذه الطرق انما أنشئت لصالح انجلترة ، لنقل جنودها ومعداتها الحربية فى جميع أنحاء مصر ، وقت الحرب أو خطر الحرب ، أو قيام حالة دولية مفاجئة • فلماذا اذن تتحمل مصر نفقـات

---

(١) فى أعقاب الثورة للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ج ٣ ص ٢١ •

(٢) تعهدت بريطانيا أن تدفع ½ هذا المبلغ • وبعد مفاوضات فى عهد وزارة محمد محمود زيد الى نصفه •

انشاء هذه الطرق ، وتلك الثكنات ، ولا تتحمل بريطانيا دفعها جميعا ؟ وهل يمكن بعد ذلك أن يقال ان هذه المعاهدة استكملت استقلال مصر ، وكفلت لها حرية التصرف ، ووضعتها على قدم المساواة مع بريطانيا العظمى ؟

خامسا : ولقد نصت المعاهدة على استمرار العمل بمعاهدة ١٩ من يناير عام ١٨٩٩ فيما يختص بادارة السودان . هذه المعاهدة التى انتزعتها انجلتره من مصر انتزاعا ، وأكرهت مصر على اقرارها غصبا واكراها ، فجاءت معاهدة الشرف والاستقلال ، فثبتت هذا الاكراه ، واعترفت بقانونيته وشرعيته ، وأصبح لا حق لمصر بعد هذا اليوم أن تحتج أو أن تعترض على هذه المعاهدة فى أى محفل دولى . بل لقد أطلقت يد انجلتره فى السودان بمقتضى هذه المعاهدة ، وأصبحت مطمئنة غاية الاطمئنان ، لتحويله الى مستعمرة انجليزية .

سادسا : فأى كسب لمصر يمكن أن يدعيه أنصار تلك المعاهدة بعد ذلك ؟ هل هو اعتراف انجلترة بالسعى فى الغاء الامتيازات الأجنبية ؟ أو تأييد مصر لقبولها فى عصبة الأمم ؟ وهل من أجل ذلك يضحى باستقلال مصر ، ويؤيد الاحتلال ، ويفصل السودان عن مصر ؟ وننزل للانجليز طواعية عن حقوقنا المشروعة ، ونسلم لهم بحق السيطرة على وادى النيل : أرضه وسمائه وبحاره ومتاعه وحيوانه والآدميين الذين يعيشون فوق ظهره ؟

وقد قدر لهذه المعاهدة أن تستمر عشرين عاما ، تظل مصر خلالها مطوقة العنق باغلالها ، ومصفدة الأرجل بسلاسلها ، وبعدئذ ينظر فى أمر تجديدها .

وأخيرا فاذا كانت هذه هى بعض مساوىء هذه المعاهدة ، فلماذا أقرها المفاوضون المصريون ، وعلى رأسهم النحاس باشا ، الذى سبق له أن رفض مشروع هندرسن عام ١٩٣٠ ، وكان أفضل بكثير من المعاهدة الحالية ، ومحمد محمود باشا الذى فاوض هندرسن عام ١٩٢٩ فى هذا المشروع ؟

الجواب على ذلك أن الساسة المصريين كانوا بكل أسف قد انتهوا فى تفكيرهم الى أنه لا مفر للتسليم لانجلتره بمطالبها ، ما دامت فى كل مرة تقطع فيها المفاوضات تسلط جبروتها وسيطرتها على مصر ، وتتآمر على دستورها وحكومتها والحياة النيابية فيها ، وتعتدى على كرامتها ، بتدخلها فى شئونها الداخلية ، وهذا بلا شك عذر أقبح من ذنب .

(٢٢)

فترة ما قبل الحرب الاوربية الثانية

من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ م

تكلمنا فى الفصل السابق عن معاهدة ١٩٣٦ ، والأسباب التى دعت الى عقدها ، والظروف التى عقدت فيها ، ونتائجها ، بالنسبة لمصر والانجليز المستعمرين ٠

وفاة الملك أحمد فؤاد

وأصدر الملك مرسوما بعودة دستور ١٩٢٣ فى ١٢ من ديسمبر ١٩٣٦ وصدر مرسومان آخران لاجراء الانتخابات لمجلس النواب والشيوخ ، ثم تألف الوفد الرسمى لتولى المفاوضات ٠

وبينما البلاد تخوض معركة الانتخابات العامة ، اذا بالوزارة تعلن فى ٢٧ من ابريل عام ١٩٣٦ وفاة الملك أحمد فؤاد ؛ بالغا من العمر ثمانية وستين عاما ٠ وقد قام فى السياسة المصرية بدور خطير ٠ أتينا على خلاصته فى الفصول السابقة ٠

المناداة بفاروق ملكا على مصر

وفى البيان الذى نعت فيه الوزارة الملك فؤاد ، نادت بفاروق ملكا على مصر ٠ واذ كان لا يزال فى السابعة عشرة من عمره ــ فقد تألف مجلس للوصاية على العرش من كل من الأمير محمد على ، وعبد العزيز باشا عزت ، ومحمد شريف صبرى باشا ٠ فلما أتم فاروق فى ٢٩ من يوليه عام ١٩٣٧ ثمانية عشر عاما هجرية ، تولى منذ هذا اليوم سلطته الدستورية ٠ وانتهت بذلك مهمة مجلس الوصاية على العرش ٠

وزارة النحاس الثالثة

ولما أسفرت الانتخابات عن فوز الوفد ، وحصوله على الأغلبية . فقد عهد الأوصياء الى مصطفى النحاس بتأليف الوزارة ، فالفها فى ١٠ من مايو عام ١٩٣٦ ، وقام بالمفاوضات التمهيدية ، مع السفير البريطانى لعقد المعاهدة ، التى وقعت فى لندن فى ٢٨ من أغسطس عام ١٩٣٦ والتى سبق الكلام عنها فى الفصل السابق .

وقد اضطلعت هذه الوزارة بالمفاوضات ، التى أنهت الامتيازات الأجنبية مع الدول صاحبات الامتياز ، فى مؤتمر عقد فى مدينة (منترو) بسويسرة ، فى ١٢ من ابريل عام ١٩٣٧ . وفى ٢٦ من مايو عام ١٩٣٧ اجتمعت الجمعية العامة لعصبة الأمم فى جنيف . ووافقت باجماع الآراء على قبول مصر فى عصبة الأمم .

وزارة النحاس الرابعة

وعقب تولى الملك فاروق سلطته الدستورية ، قدم النحاس فى ٣١ من يوليو عام ١٩٣٧ استقالته من الوزارة ، كما يقضى بذلك العرف فى النظام النيابى . فكلفه الملك اعادة تأليفها ، فألفها من أعضاء وفديين ، بعد أن استبعد محمود فهمى النقراشى ، وثلاثة من زملائه ، واستبدل بهم وزراء آخرين ، لاختلافهم معه فى طريقة حكم البلاد . وقد تبع اقصاء النقراشى من الوزارة ، اخراجه أيضا من الوفد ، مع أنه كان من أبرز أعضائه ، وأصدقهم وطنية ، وأشدهم اخلاصا . وقد نتج عن ذلك تصدع فى الوفد ، اذ أخرج أيضا الدكتور أحمد ماهر ، فأنشأ الاثنان حزبا جديدا أطلقا عليه اسم ــ الهيئة السعدية ، ضمت اليها كثيرا من الوفديين الناقمين على أعمال النحاس .

والواقع أن الاستياء كان قد عم البلاد ، من أعمال الوزارة وفى مقدمتها : تفشى المحسوبية ، ومصادرة حرية الرأى ، واستعمال العنف مع معارضيها .

وانتهى الأمر بأن اصطدمت الوزارة مع السراى ، فأصدر فاروق أمره باقالتها فى ٣٠ من ديسمبر عام ١٩٣٧ ، وأصدر فى اليوم نفسه أمره الى محمد محمود بتأليف وزارته الثانية .

وزارة محمد محمود الثانية :

وكالمعتاد فى وزارات الانقلاب ، استصدر محمد محمود أمرا ملكيا بتعطيل البرلمان شهرا ، ثم حل مجلس النواب ، واجراء انتخابات جديدة،

قامت هى باجرائها ، ولم تجرها وزارة محايدة ، فتدخلت فيهـــا لصالح مرشحيها ، وبذلك حصلت على أغلب مقاعد البرلمان (١٩٣ مقعدا) ، على حين لم يحصل الوفد الا على أقل المقاعد (١٢ مقعدا فقط) ٠

والمشاهد فى هذه الوزارة ، شأنها فى ذلك شأن وزارات الانقلاب السابقة ، أن السراى قد عادت فى عهـد فاروق الى التـدخل فى شئون الحكم ، واملاء ارادتها على الوزارة . كما كانت الحال فى عهد فؤاد فهى التى أتت بمحمد محمود الى كراسى الحكم ، وهى التى أقصته عنها ٠ دون أن يكون للبرلمان يد فى كل ذلك ٠

ومع أن هذه الوزارة قامت ببعض الاصـلاحات النافعة ، من ذلك وضـــع كادر للموظفين ، وتعديل نظـــام الضرائب بحيث يوافق نظم الضريبة الحديثة ، وزيادة ميزانية الجيش ، وعدد وحداته ، فان الطابع المميز لها كان عدم الاســـتقرار ، بدليل كثرة التعديلات التى أدخلت عليها ، واغراقها فى المحسـوبية ، التى كانت تشهر بالوزارة الســـابقة من اجلها . فقد أخذت بمبدأ الاستثناءات فى ترقية أتباعها وأنصارها ، والتنكيل بالموظفين ، الذين كانت لهم صلة بالوزارة الوفدية السابقة ٠

وأخيرا طلبت السراى الى محمد محمود أن يقدم استقالته ، فصدع بالأمر ، واستقال فى ١٢ من أغسطس عام ١٩٣٩ ٠

وزارة على ماهر :

الف على ماهر رئيس الديوان الملكى الوزارة ، خلفا لمحمد محمود ، فى ١٨ من أغسطس عام ١٩٣٩ ، من المستقلين والسعديين ٠ وفى عهد هذه الوزارة قامت الحرب الأوربية الثانية ٠

(٢٣)

فترة الحرب الاوربية الثانية

(١٩٣٩ - ١٩٤٥)

شبت الحرب الاوربية الثانية فى سبتمبر عام ١٩٣٩ ، على اثر غزو الجيوش الألمانية لبولندة . فأعلنت كل من انجلترة وفرنسا الحرب على المانيا وفى ١٠ من يونية عام ١٩٤٠ أعلنت ايطاليا الحرب على انجلترة وفرنسا .

كان أول عمل قامت به الوزارة ، تنفيذا للمادة السابعة من معاهدة ١٩٣٦ ، أن أصدرت فى الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩ مرسوما باعلان الأحكام العرفية ، وعين على ماهر حاكما عسكريا . وفرضت الرقابة على الصحف والمكاتبات والرسائل والسينما والاذاعة ، تمشيا مع الاحكام العرفية ، كذلك قطعت العلاقات السياسية بين مصر والمانيا ، وبينها وبين ايطاليا ، وأقر البرلمان ذلك .

ولكن انجلتره لم يكفها من مصر التزامها بتعهداتها قبل معاهدة ١٩٣٦ ، ومسارعتها الى قطع علاقاتها مع ايطاليا ، واعتقال رعاياها ، بل انها اتهمت الوزارة بمشايعتها لايطاليا ، ووجهت الى الملك فاروق ، بوساطة سفارتها فى مصر ، تبليغا ، أشبه شىء بانذار ، بتعذر التعاون بينها وبين وزارة على ماهر . فلم يسعه الا أن يقدم استقالته فى ٢٣ من يونية عام ١٩٤٠ أمام هذا التدخل من جانب انجلتره فى شئون مصر الداخلية .

وزارة حسن صبرى :

حاول الملك توحيد الصفوف لمواجهة تدخل انجلتره ، الذى بدأ بانذارها باقصاء على ماهر عن الحكم بتأليف وزارة ائتلافية ، كما هو متبع

فى جميع أمم العالم ، عندما تواجه خطرا يلزم أن تواجهه الامة صفا واحدا ، ويدا واحدة خصوصا أن هذا التدخل لن يكون الأخير من نوعه اذ أنه سيتكرر ، مادام جيش الاحتلال رابضا على أرض مصر • ولكن النحاس أبى الاشتراك فى وزارة ائتلافية ، وانما أرادها وزارة وفدية خالصة ، تستأثر بالحكم دون غيرها ، وتتمتع بمزاياه دون سواها • ولذا اضطر الملك أن يعهد الى حسن صبرى بتأليف وزارة ، كان أغلب أعضائها من المستقلين •

الغاء صندوق الدين :

وفى عهد هذه الوزارة ، ألغى صندوق الدين (١٧ من يولية ١٩٤٠) اذ كان ذلك من مقتضيات الغاء الامتيازات الاجنبية ، ومن مستلزمات عصر الاستقلال • وقد وقع هذا الاتفاق لورد كليرن ، نيابة عن انجلتره ، ومسيو بوتزى نيابة عن فرنسا ، ولم يوقعه أحد عن ايطاليا ، لقطع العلاقات السياسية بينها وبين مصر •

مد امتياز البنك الأهلى

ولكن انجلتره التى تأخذ باليمين أضعاف ما تعطيه بالشمال ، لم تضع فرصة موافقتها على الغاء صندوق الدين ،دون أن تحصل على مكسب يساوى أضعاف نزولها عن حقها فى صندوق الدين • ذلك أنها استطاعت أن تفوز من هذه الوزارة بالموافقة على مد امتياز البنك الأهلى أربعين سنة أخرى • ومعروف ان هذا البنك الانجليزى النشأة والادارة ، له دون سواه حق اصدار أوراق النقد المصرى • وبهذه الصفة يتحكم فى اقتصاديات البلاد تحكما تاما • ومن عجب أن تسارع انجلتره الى مد امتيازه فى هذا الوقت بالذات ، مع أن مدة امتيازه كانت تنتهى عام ١٩٤٨ • ولكن الاستعمار لا يدع فرصة لتثبيت قدمه الا تشبث بها ، وانتهزها •

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فقد أراد الانجليز ضمان اصدار هذا البنك ما أرادوا من أوراق النقد ، لتمويل احتياجات الحرب ، والانفاق على شئونها،مما أربى على مئات الملايين من الجنيهات• التى راوغت فى سدادها لمصر ، وصارت تعرف بمشكلة الأرصدة الاسترلينية •

وعند افتتاح دورة البرلمان العادية فى ١٤ من نوفمبر عام ١٩٤٠ ، وبينما كان حسن صبرى يلقى خطبة العرش ، اذ سقط على الأرض مغمى عليه وصعدت روحه الى بارئها ، وكان لوفاته رنة حزن عميقة •

وزارة حسين سرى باشا :

تألفت فى ١٥ من نوفمبر ١٩٤٠ ، من الأحرار الدستوريين والمستقلين · وفى عهد هذه الوزارة اشتدت الغارات الجوية على القاهرة والاسكندرية ، فاشتد الذعر والهلع بين الأهالى ، ورحل كثير منهم الى الريف ، واضطربت أحوال التموين ، وشح الخبز فى المخابز · وصار كثير منه يخلط بمواد غريبة ضارة ، على حين أن جيش الاحتلال وجنود الحلفاء ، التى كانت متجمعة فى مصر ، تنعم بأنواع الخبز الجيد ، ومواد الطعام الوافرة · زد على ذلك ما كان يرسل منها لتموين الجيوش فى ميادين القتال القريبة من مصر ·

معركة العلمين

كانت خطة دول المحور (المانيا وايطاليا واليابان) غزو مصر من جهة الصحراء الغربيه ، والاستيلاء على قناة السويس ، ثم متابعة الزحف شرقا حتى تصل الى ايران ، للاستيلاء على منابع البترول فيها ، وقطع خط التموين الذى يصل الى روسيا ، من طريق الخليج الفارسى ، وفتح ميدان جديد لمهاجمة الروسيا من الجنوب ، ثم الاتصال باليابان ·

لذلك بدأت الجيوش الايطالية ، فى سبتمبر عام ١٩٤٠ ، بقيادة الجنرال جرزياتى ، فى الاغارة على الاراضى المصرية من ليبيا ، فاستولت على السلوم ثم على بقبق ، ووقفت عند سيدى برانى ، وشيدت فيها استحكامات قوية · غير أن الانجليز ، بقيادة الجنرال ويفل ، كر على الجيوش الايطالية ، فى ديسمبر من تلك السنة ، فأجلاها عن كل ماستولت عليه ، وظل يلاحقها حتى وصل الى السلوم ، واجتاز حدود ولاية برقة ، واستولى على طبرق ، ثم بنى غازى عاصمة برقة ، وأسر عددا كبيرا من الجنود الايطاليين · واستولى على معدات وأدوات حربية ضخمة ·

وعلى اثر هذه الهزائم التى حاقت بالجيش الايطالى ، عزل الماريشال جرزياتى ، وتولى قيادة الحملة الماريشال روميل ، بعد أن تدفقت الامدادات على الحملة من المانيا وايطاليا · فعاود الكرة فى ابريل عام ١٩٤١ ، واسترد بنى غازى ، ومعظم ولاية برقة ، وسقطت طبرق فى ٢١ من يونيه ١٩٤٢ ، واستمرت قوات المحور فى التقدم والقوات البريطانية فى التقهقر ، حتى كادت تنسحب الى الطريق بين القاهرة والاسكندرية ، الذى أخذت تقيم فيه التحصينات من بث للألغام وبناء لقواعد المدافع ، ولكنها تحصنت فى العلمين ·

وظلت الحرب سجالا بين الطرفين ، ولكن الجيش الثامن البريطاني ، بقيادة الماريشال مونتجمري ، أخذ في الاستعداد ، وكانت تتدفق عليه المعدات الحربية من كل مكان ، من الولايات المتحدة ومن انجلترا ، وتفد عليه الامدادات العسكرية من الهند واستراليا ونيوزيلندة وغيرها من المستعمرات الانجليزية • هذا بالاضافة الى قربه من قواعد تموينه ، (فى مصر طبعا) وسهولة مواصلاته ، وسلامتها • بعكس جيش المحور ، الذى كان بعيدا بعدا شاسعا عن قواعد تموينه • وصعوبة مواصلاته •

دارت المعركة الفاصلة بين الطرفين فى ٢٣ من أكتوبر عام ١٩٤٢ ، فى منطقة العلمين ، التى يحـدها البحر الابيض من جهة ، ومنخفض القطارة من جهة أخرى ، وتضيق حتى تشبه عنق الزجاجة ، ولا معدى لجيش المحور من اختراق هذا الممر ، حيث يكون هدفا جيدا للجيش المدافع واستمرت اثنى عشر يوما ، حمى خلالها وطيس القتال ، واشتد قصف المدافع ، وصمد الجيش الثامن لهجمات جيش المحور ، واخيرا استطاع أن يفتح ثغرة فى حقول الالغام التى بثها المحور امام خطوطه الامامية ، تقدمت منها القوات المدرعة البريطانية ، واخترقت خطوط المحور الرئيسية ، وأوقعت به خسائر فادحة ، اضطر على اثرها الى التقهقر غربا ، تقهقرا عاما ، وبعد أن حاقت به هزيمة ساحقة •

وهكذا كتب النصر للحلفاء ، والهزيمة للمحور • وقد كانت معركة العلمين موقعة حاسمة فى الحرب الأوروبية الثانية ، اذ توالت بعدها الهزائم ، حتى انتهى الأمر بهزيمته نهائيا فى جميع الميادين الأخرى فى أوروبا وافريقية • أما فى آسيا فقد أنهت قنبلتا هيروشيما ونجازاكى النوويتان الحرب مع اليابان ، وانتهى بها الأمر هى الأخرى الى التسليم •

ولقد كان لمصر الفضل الأكبر فى احراز الحلفاء النصر فى موقعة العلمين وهزيمة المحور فى شمال افريقية : لامدادها جيوش الحلفاء بجميع المؤن ، ومساعدتها فى نقل المؤن والجنود والذخائر ومعدات الحرب الأخرى بالسكك الحديدية المصرية : ودفاع بطاريات الجيش المصرى ضد طائرات المحور على طول السواحل المصرية ، وخصوصا على طول قناة السويس ، للحول بين الطائرات والقاء الألغام التى تعطل سير الملاحة فيها ، وتوفير الهدوء والسكينة فى داخل البلاد •

وقد شهد بهذه المساعدات قادة الجيش الانجليزى فى خطابات رسمية ، وجهت الى الحكومة المصرية ، وفى تصريحات المسئولين فى البرلمان الانجليزى ، وفى أحاديث ومقالات وكاتبى الصحف الانجليزية ورؤساء تحريرها •

ولكن انجلترا • وهى الدولة المستعمرة الباغية ، التى لاتقر لأحد بفضل ، ولا تحترم لها وعدا ، ولا ترعى فى علاقاتها بالأمم والشعوب الا ولا ذمة ، ولا تعرف للشرف معنى ، لم يفد معها تنفيذ مصر لمعاهدة ١٩٣٦ نصا وروحا • هذه الدولة الباغية قابلت الاحسان بالاساءة ، وسرعان ما قلبت لمصر ظهر المجن ، وعادت الى مؤامراتها الخسيسة ، وتابعت سياستها الاستعمارية الدنيئة ، ولم تثمر معها سوى القوة ، لكى تسلم بحق مصر فى الحرية والاستقلال ، وتنجلى بجيوشها عن أرض مصر ، وأنفها راغم فى التراب •

حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢ :

ليس فى تاريخ الاستعمار البريطانى فى مصر ما هو ادل على نذالة الانجليز وغدرهم ، واستهانتهم بحقوق الشعوب ، وعبثهم بكرامتها ، وتنكرهم لمبادىء العدل والشرف ، وتماديهم فى أعمال البغى والعدوان ، من «حادث ٤ فبراير» عام ١٩٤٢ وبطله السير مايلز لمبسون الذى أنعمت عليه دولته بعد ذلك بلقب لورد كيلرن •

لم يكف الانجليز أن أبرمت مصر معهم معاهدة ١٩٣٦ المشئومة ، ووقعها الساسة المصريون تحت الضغط والاكراه والتهديد ،لم يكفهم كل هذا ، وانما كان يهمهم ، وقد اشتعلت نيران الحرب الأوروبية الثانية أن تقوم بتنفيذ المعاهدة وزارة تحابى الانجليز ، وترعى جانبهم ، مهما أضر ذلك بحقوق البلاد ومصالح المصريين • لذلك كان الانجليز يبدون رغبتهم ، عقب سقوط كل وزارة ،فى أن يعهد بتاليف الوزارة الجديدة الى النحاس ، رئيس حزب الوفد • ولكن الجهات المسئولة فى مصر ، لم تجب تلك الرغبة ، اعتقادا منها أن تأليف الوزارات من صميم شئون مصر الداخلية ، التى لاتبيح معاهدة ١٩٣٦ التدخل فيها •

فلما استقالت وزارة حسين سرى فى٢ من فبراير ١٩٤٢ ، نشطت المؤامرات الانجليزية ، وبدأ الانجليز يتدخلون تدخلهم المعيب ، ويجترئون على حقوق الشعب المصرى فى سماجة وقحة ، وبعد عن الكياسة والعرف الدولى ، بالتطاول على ملك البلاد ، الذى يمثل كرامة الشعب وعزته ، مما لاينساه الشعب للانجليز أبدا ، وسيظل يعتمل فى قلبه حقدا وكرها، مؤكدا بصفة قاطعة أنه ما دام للانجليز جيش للاحتلال ، فاستقلال البلاد وكرامتها هدف لتدخل الانجليز واعتدائهم ووسيلتهم الى ذلك حفنة من المستغلين والمتهافتين على كراسى الحكم التى يستظلون فيها بحماية

المستعمر ، ويحكمون مستندين الى أسنته ورماحه ، ولا يراعون لوطنهم حرمة ، ولا يحفظون لمواطنيهم حقا ولا ذمة ٠

جمع الملك فى قصره بعابدين صباح ٣ من فبراير ، غداة استقالة وزارة حسين سرى ، رؤساء الاحزاب والمتكلمين باسمها لاستشارتهم فى تأليف وزارة ائتلافية ، تواجه الموقف الداخلى والخارجى ٠ ولكن النحاس ابى النزول على رغبة الملك محتجا بأنه جرب الوزارة الائتلافية قبل الآن ، ولم يجد فيها نفعا للبلاد ، وأنه لذلك يفضل وزارة وفدية ، لحما ودما ، وعزم الملك مواصلة استشاراته يوم ٤ من فبراير ٠

وكان السفير البريطانى منذ أن استقالت وزارة حسين سرى ، يلح على السراى فى أن يعرف اسم المرشح لرياسة الوزارة قبل ، تعيينه ، فلما بلغه أن النحاس رفض تأليف وزارة ائتلافية ، سلم رئيس الديوان الملكى فى صباح يوم ٤ من فبراير ١٩٤٢ الانذار التالى (١) ٠

« اذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة ، فان الملك (فاروق) يجب أن يتحمل تبعة ما يحدث » ٠ وهذا هو الاصل الانجليزى للانذار :

« Unless I hear by 6. p.m. that Nahas Pasha has been asked to form a cabinet, His Majesty King Farouk must accept consequences ».

فدعا الملك فى منتصف الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم الى اجتماع يعقد بمجلس البلاط ، فى قصر عابدين ، مؤلف من رئيسى مجلس الشيوخ والنواب ، ومن رؤساء الوزراء السابقين ، ومن ممثلى الأحزاب ، ومن أعضاء هيئة المفاوضة فى معاهدة سنة ١٩٣٦ ٠ وعهد الى المجتمعين أن يتدارسوا الموقف بحكمتهم ووطنيتهم ، على ضوء هذا الانذار ٠

كان الموقف ولا شك حرجا غاية الاحراج ، وكان يقتضى السياسيين المصريين أن يواجهوه بكل قوة وشجاعة ، باذلين كل تضحية مستطاعة لدفع العدوان عن كرامة الوطن ، ووقف تدخل انجلترا فى أمر هو من أخص أمورها الداخلية ، واقترح المجتمعون حلين للموقف ٠

أحدهما وهو أجدرهما بالكرامة ، وأحفظهما للعزة القومية أن يرفض النحاس تأليف الوزارة ما دامت قد صدرت هذه الرغبة عن المستعمرين الانجليز ٠

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية لمحمد حسين هيكل جـ ٢ ص ٢٣٤ ٠

والآخر وهو أقلهما عزة وكرامة : قبول النحاس تأليف وزارة ائتلافية ، نزولا على ارادة الملك التي كان قد رفضها قبل الآن .

غير أن النحاس أبى آباء تاما الاستجابة لداعي الوطنية ورفض جميع الاقتراحات التي اقترحها السياسيون المجتمعون ولكنه أظهر استعداده لتأليف وزارة وفدية اذا ما طلب اليه الملك ذلك .

ولما يئس المجتمعون من اقناع النحاس بضرورة الاخذ برأي الأغلبية وبذل شيء من التضحية في سبيل دفع المذلة ، التي تلحق بالوطن من جراء قبول الانذار البريطاني ، ووجوب اتباع أحد الرأيين اللذين تمخضت عنهما مناقشات السياسيين المصريين لم يجدوا مندوحة من دفع الاهانة بأضعف الايمان ، وذلك بالرد على الانذار البريطاني بوصفه تدخلا في شئون مصر ، مما لا تبيحه المعاهدة والعلاقات الطيبة التي يجب أن تسود البلدين . ووقع المجتمعون هذا الرد ، وتوجه معهم النحاس وحمله رئيس الديوان الملكي الى السفير البريطاني الذي لم ير فيه ردا شافيا لانذاره ، ووعد بالحضور الى مقابلة الملك في التاسعة من مساء ذلك اليوم .

« وقد حضر السفير في الموعد المضروب مع قائد الجيوش البريطانية في مصر ، وبعض الضباط الانجليز ، تتقدمهم الدبابات التي احاطت بقصر عابدين ، واخترقت واحدة سور القصر ، ودخلت الى ساحته ، وصعد السفير ومن حوله الضباط شاهرين مسدساتهم ، واقتحموا على الملك غرفة مكتبه ، وأبرز السفير للملك ورقة بنزوله عن العرش فأخبر الملك السفير بأنه دعا النحاس فعلا ، وتشاور معه في الأمر وسيدعوه ثانية لتكليفه تأليف الوزارة ، فأسقط في يد السفير ، وانصرف لتوه وعادت الدبابات من حيث أتت !

وفي الاجتماع الذي عقد في الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم بحضور الزعماء ، كلف الملك النحاس تأليف الوزارة ، نزولا على رغبة بريطانيا ، وننقل هنا ما انتهى اليه هذا الاجتماع ، نقلا عن رواية شاهد عيان ، هو الدكتور محمد حسين هيكل (1) قال :

عند ذلك قال الدكتور ماهر (باشا) موجها القول الى النحاس (باشا) : انك يا نحاس (باشا) تتولى الوزارة على أسنة الحراب البريطانية بعد أن رأيت الدبابات بعيني رأسك . وهنا اعترض الملك قائلا :

---

(1) مذكرات في السياسة المصرية لمحمد حسين هيكل ج 2 ص 243 .

« بل أنا الذى أكلفه تاليف الوزارة » وقال النحاس (باشا)
أنا لم أر دبابات ولا حرابا وأنا أؤلف الوزارة بأمر (جلالة) « الملك »
وبعد هنيهة كرر « نعم أنا لم أر دبابات ولا حرابا » . فقال اسماعيل
صدقى (باشا) نعم يا باشا انك جئت متأخرا بعد أن انصرفت الدبابات
حتى لا تراها ، أما نحن جميعا فقد رأيناها بساعة جئنا الى القصر » .

وقد تبادل النحاس مع السفير البريطانى قبل تأليفه الوزارة خطابين
جاء فى أولهما
أن الوزارة يؤلفها الوزارة بناء على تكليف من الملك وليس بناء على تدخل
الحكومة الانجليزية ، فرد السفير بالموافقة على ما جاء بهذا الخطاب ، ولكن
هذين الخطابين لم يغيرا من الحقيقة الواقعة ، وهى أن النحاس ألف هذه
الوزارة مستندا الى أسنة الحراب البريطانية .

هذا بالاضافة الى أن جميع الملابسات ، ومنها اصرار النحاس على
قبول تاليف الوزارة ، تدل على اتفاق وترتيب سابقين ، بينه وبين السفير
البريطانى على قبول تاليف الوزارة

فيالها من مهزلة هانت فيها كرامة الوطن وعزته ، وتغلبت الأهواء
الشخصية على المصلحة الوطنية ، وليس من سبب لهذا الانحطاط
الخلقى ، سوى وجود جيش الاحتلال فوق أرض الوطن ، يغرى بعض
ابنائه بعرض الدنيا الزائل ، ويزين لهم اذلال مواطنيهم ، والقاء بسطة سلطانه
عليهم ، واستئثارهم بالغنائم واتاحة الفرصة لهم لكى يصبوا جام
غضبهم وانتقامهم على أعدائهم ومخالفيهم

وزارة النحاس الخامسة

تألفت هذه الوزارة يوم ٤ من فبراير ، فاقترنت ولادتها « بحادث
٤ فبراير » المشئوم ، الذى ضاعف من حقد الشعب المصرى على الانجليز ،
وأكد سوء نيتهم واصرارهم على سياستهم الاستعمارية ، ومؤامراتهم
الدنيئة ، لا يغير من ذلك وضع مصر تحت الحماية ، أو اعترافهم باستقلالها
وارتباطهم بمعاهدة .

وقد أغرق النحاس هذه المرة فى السياسة الحزبية ، لاستناده الى
قوة الانجليز وجبروتهم ، ولتسلحه بالأحكام العرفية ، فكمم الأفواه ،
وصادر الحريات ، ونكل بمخالفيه فى الرأى ، وزج بهم فى غياهب السجون
كما فعل بعلى ماهر (باشا) من رؤساء الوزارات السابقين ، وبمكرم عبيد

زميله في الجهاد ، ومارس المحسوبية على أوسع مدى ، فشملت الاتباع والمحاسيب والأصهار والأقارب ، الذين اغدقت عليهم الوزارة الدرجات والعلاوات ، وأثروا من الاتجار فى أقوات الشعب وارزاقه ، وجمعوا الأموال الطائلة من ممارسة عمليات التصدير والتوريد ، وكانوا يملون ارادتهم على رجال الحكومة وموظفيها ، ففسدت الذمم ، وانحلت الاخلاق ، وعمت الفوضى فى دواوين الحكومة ومصالحها .

ولما كان الانجليز قد أحرزوا النصر فى حروبهم ضد المحور فى الصحراء الغربية ، وضمنوا سير الامور فى مجراها الطبيعى فى مصر ، ولم تعد لهم حاجة بولاء النحاس وخدماته ، تخلوا عن تأييده ، ولم يمانعوا فى اقصائه عن الوزارة ، كما هى عادتهم مع من يساندونهم ويؤيدونهم ، بعد أن تنتهى مهمتهم .

ولما اشتد سخط الشعب على هذه الوزارة ، وتفاقم الغضب من سوء تصرفاتها ، صدر أمر ملكي باقالتها فى ٨ من أكتوبر عام ١٩٤٤ .

وزارة أحمد ماهر :

تالفت فى ٩ من اكتوبر عام ١٩٤٤ ومن أهم أعمالها الافراج عن المعتقلين فى عهد وزارة النحاس ، وحل مجلس النواب ثم اجراء الانتخابات لمجلس نواب جديد ، والغاء الاستثناءات التى حدثت فى عهد الوزارة السابقة ، ولكنها لم تلغ الاحكام العرفية .

ولما كان أقطاب الحلفاء قد اشترطوا لقبول أية دولة فى مؤتمر سان فرنسسكو ، الذى أنشئت فيه هيئة الامم المتحدة أن تعلن الحرب على المحور ، قبل الاول من مارس سنة ١٩٤٥ ، فقد أعد أحمد ماهر بيانا ، وافقت عليه الوزارة ، أعلنت فيه الحرب على ألمانيا واليابان القاه فى مجلس النواب ، وكان يعتزم القاءه بعد ذلك فى مجلس الشيوخ ، وبينما هو فى طريقه الى مجلس الشيوخ ، اذ أطلق عليه شاب متهوس الرصاص فأرداه قتيلا ، وكان ذلك فى ٢٤ من فبراير عام ١٩٤٥ .

وزارةمحمود فهمي النقراشي :

تالفت فى الليلة التى قتل فيها الدكتور احمد ماهر ، ووزارةالنقراشى وكان اعضاؤها هم أعضاء الوزارة السابقة ، وفى ٢٦ من فبراير عام ١٩٤٥ استصدرت الوزارة مرسوما بأن المملكة المصرية فى حالة حرب مع ألمانيا واليابان ، وذهب وفد مصر برياسة عبد الحميد بدوى باشا وزير

الخارجية الى مؤتمر سان فرنسسكو الذى أبرم فيه ميثـــاق هيئة الامم المتحدة ٠

واجتمعت هيئة الامم المتحدة ، وبدأت فى مباشرة أعمالها ، وهرعت اليها الدول من كل حدب وصوب بشـــكاواها ، وأبدت فى أول عام من تكوينها نشاطا ملحوظا ، وقضت فى كثير من القضايا التى نظرت أمامها وفقا للميثاق ، مما عدته الامم فاتحة خير وبركة ، فقضت باجلاء القوات الاجنبية عن سورية ، ولبنان وايران ٠

وكانت مصر الى هذا الوقت ، تحسن الظن بانجلترا ، وتعتقد أنهـا ستستجيب الى طلبها فى الجلاء عن أراضيها ، ولهذا لم تتقدم الى هيئـــة الامم تعرض عليها شكواها ، ولكنها عندما أنست فيها الجشع والعناد ، ورأت استمساكها بمعـــاهدة ١٩٣٦ ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع توجهت الى مجلس الأمن تطالبه بالعون ضد انجلترا ، مما سيأتى شرحه بعد ٠٠

فترة ما بعد الحرب الأوربية الثانية
١٩٤٥ – ١٩٥١

انتهت الحرب الأوربية الثانية باستسلام ألمانيا فى ٧ من مايو عام ١٩٤٥ ، ثم استسلام اليابان فى الاول من سبتمبر من العام نفسه ، بعد أن ألقت الولايات المتحدة القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكى ، فدمرتهما تدميرا ٠

وفى ٢٥ من ابريل عام ١٩٤٥ عقد بمدينة سان فرنسيسكو بالولايات المتحدة مؤتمر لوضع ميثاق لهيئة عالمية جديدة تكفل للانسانية الاستقرار والسلام ، بعد أن تضع الحرب أوزارها ، لتخلف هيئة عصبة الأمم التى أنشئت فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، والتى أخفقت فى مهمتها ، وهى اقرار السلم فى العالم ٠

واطلق على الهيئة الجديدة اسم الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وقد كانت تتكون وقت انشائها من ٥٣ دولة ، وفتح باب العضوية لجميع الدول الاخرى المستقلة والمحبة للسلام ، بناء على توصية مجلس الأمن ، وقد بلغت هذه الدول اليوم أكثر من مائة دولة ٠

وتتكون الهيئة من جمعية عامة ، ومجلس أمن ، ومجلس اقتصادى واجتماعى ، ومجلس وصاية ، ومحكمة عدل دولية ، وأمانة عامة ، وهيئات اخرى فرعية تتفرع من تلك المجالس ؛ مثل هيئة تصفية الاستعمار ، ومنظمة الاغذية وهيئة الصحة العالمية ٠

ويعد ميثاق سان فرنسيسكو وثيقة تاريخية هامة ، قررت حقوق الانسان فى أن يحيا حياة حرة كريمة ، وحقوق الشعوب فى أن تقرر

مصيرها بنفسها ، والتمتع بحريتها واستقلالها ، لا تسيطر أمة على أمة ولا ينتقص شعب من حقوق شعب آخر ، ولا تستخدم القوة في فض المنازعات وانما تحل بالطرق السلمية ، فتحتكم الى هيئة الامم التى تقضي بين المتنازعين وتفض ما يقوم بينهما من نزاع ، وبذلك تصون السلم ، وتمنع وقوع الحرب .

وتستعين احيانا بقوات عسكرية دولية لفض النزاع بين الاطراف المتنازعة ، في دولة ما كما حدث في جمهورية الكنغو بعد حصولها على الاستقلال عام ١٩٦١ ، وفى قبرص عام ١٩٦٤ ، أو بين دولتين أو أكثر متجاورة ، كما حدث بين اسرائيل والدول العربية المجاورة عام ١٩٤٨ وعقب الاعتداء الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، وبين المملكة العربية السعودية وجمهورية اليمن عام ١٩٦٢ .

وتضيق صفحات هذا الكتاب عن ذكر بنود الميثاق ، وانما نشير هنا الى المادة الواحدة والخمسين ، التى بمقتضاها لا يجوز ايجاد قوات لدولة فى أراضي دولة أخرى ، الا اذا اعتدت قوة مسلحة على هذه الدولة الاخيرة ويكون هذا التدبير مع ذلك تدبيرا وقتيــا ينبغى تبليغه فورا الى مجلس الأمن .

موقف الانجليز من مصر بعد الحرب :

سبق أن أوضحنا طرفا من المساعدات التى أسدتها مصر الى بريطانيا وحليفاتها فى أثناء الحرب الأوروبيـة الثانية ، ممـا كان له أكبر الأثر فى احرازها النصر ، على جيوش المحور ، وشهد به القــواد البريطانيون ورجال الدولة الرسميون ورؤساء الدول المتحالفة ، فى وثائق رسمية ، والتزام مصر بتنفيذ معاهدة ١٩٣٦ بكل اخلاص نصا وروحا .

وقد كانت مصر تأمل بعد كل ذلك وفقا للتصريحات الكثيرة التى أذاعها رؤساء الدول المتحدة ، فى ميثاق الاطلنطى وميثاق سان فرنسيسكو ، أن تستشعر انجلترا شيئا من الحياء والشرف ، فتجلو عن أراضيهــا ، وتعيد اليها استقلالها وحريتها ، ولكن الاستعمار ، وانجلترا بصفة خاصة لا تعرف الحياء ولا الذمة ولا الشرف ، ولا تؤمن بغير القرصنة والاستبداد شرعة للتعامل مع الشعوب ، خصوصا الضعيفة منها ، فسرعان ما تقلب لها ظهر المجن ، وبقدر ما تبذل الشعوب من اخلاص فى التعامل معها ، والصدق فى ارتباطاتها بها ، يكون جزاؤهـا من العنت والاستبداد وانتقاص الحقوق وسوء المصير .

والاستعمار كما أثبتنا ذلك مرارا ، مخاتل مداور ، لايسلم بحقوق الشعوب ، الا وانفه راغم فى التراب ، ولا تقهره سوى القوة القاهرة . وقد أنست انجلترا من مصر صفاء النية ، والاستمساك بكلمة الشرف ، والتزام الاخلاص فى تعهداتها ، وهى ويالأسف جميعا عملة زائفة عند المستعمرين فازدادوا غلوا وعنتا ، وأغرقوا فى اللؤم والخداع ، وتفننوا فى المداورة والمراوغة ، وهم لايدرون أنهم بعملهم هذا يحفرون قبورهم بأيديهم ، ويتعجلون ساعة الخلاص من جبروتهم ، والقضاء على طغيانهم .

مطالبة النقراشي الانجليز بالجلاء :

بدأت مصر جهادها فى اجلاء الانجليز عن مصر بمذكرة(١) سلمها سفير مصر فى لندن الى وزارة الخارجية البريطانية فى ٢٠ من ديسمبر عام ١٩٤٥ ، تطلب فيها التفاوض لاعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦ .

كانت الوزارة التى تتولى الحكم فى بريطانيا آنئذ برئاسة المستر كليمنت اتلى زعيم حزب العمال ، الذى فاز على حزب المحافظين برياسة المستر ونستون تشرشل فى يوليه عام ١٩٤٥ ، وكان وزير خارجيته المستر بيفن ، وكما أظهرت التجارب السابقة ، لم يكن حزب العمال خيرا من حزب المحافظين فى رد الحقوق المغتصبة ، والتسليم بحق الشعوب فى الحرية والاستقلال . وقد ظهرت التجربة الاولى فى مفاوضات سعد - ماكدونالد عام ١٩٢٤ ، التى انتهت بالفشل وخيبة آمال مصر فى حزب العمال .

وقد كشف رد انجلترا على مذكرة مصر فى ٢٦ من يناير عام ١٩٤٦ عن سوء نيتها ، وتمسكها بمعاهدة ١٩٣٦ ، وعدم التحول عن أطماعها الاستعمارية الخبيثة . وكان كافى الدلالة على أن ما أذاعه ساستها فى أثناء الحرب وبعدها ، من الرغبة فى اطلاق الحرية للشعوب ، وتأمينها على أمنها واستقلالها ، وصيانة السلام فى العالم ، ماهو الا ضرب من الدعاية والتضليل ، واستمالة الشعوب الى جانبها ، طمعا فى كسب الحرب ، وقهر أعدائها ، فلما وقفت رحى الحرب ، واطمأنت الى زوال الخطر عن كيانها كشفت القناع عن وجهها ، وانحسر ثوب الرياء عن أطماعها ونياتها ، وبدت فى صورتها الصحيحة الكريهة ، التى تنم عن التسلط والشراهة والجبروت .

---

(١) انظر نص المذكرة فى كتاب القضية المصرية الصادر عن وزارة الخارجية المصرية، ص ٤٩-٩٠

أثار رد الانجليز على مذكرة الحكومة المصرية السخط والغضب فى جميع أرجاء البلاد خصوصا بين الشباب المثقفين ، فخرج طلاب جامعة فؤاد الاول (جامعة القاهرة حاليا) فى مظاهرة ضخمة ، يوم ٩ من فبراير سنة ١٩٤٦ ، قاصدين ساحة عابدين ، مطالبين بالجلاء ووحدة وادى النيل ، وهما المطلبان اللذان استقر عليهما رأى الهيئة السياسية التى جمعها النقراشى ، ومن قبله احمد ماهر ، للاستئناس برأيها فى الشئون السياسية العليا .

وبينما كان الطلاب قادمين نحو كوبرى عباس فى الجيزة ، اذا بهم يجدونه مفتوحا ، فتعذر وصولهم الى الضفة الشرقية من النهر ، فعمد بعض الطلاب الى اغلاقه ، وتابعوا سيرهم ، فتصدى لهم رجال البوليس ، وحدث بين الطرفين اشتباك جرح فيه من الطلاب أربعة وثمانون جروحا بالغة ، نقلوا على اثرها الى مستشفى قصر العينى (١) .

ولا شك ان لوما كثيرا يقع على عاتق الوزارة بسبب هذا الحادث الأليم ، الذى لم يكن هناك ما يبرره ، فلم يفعل الطلاب أكثر من اظهار سخطهم على تنكر الانجليز للأمانى الوطنية التى أصبحت هدف البلاد جميعها ، وهدف الوزارة نفسها . فلم يكن هناك ما يدعو الى التشبه بالانجليز فى قمع المظاهرات بالقسوة والوحشية ، خصوصا تلك المظاهرات التى قوامها الشباب المثقف ، الذى يساوره كثير من القلق على مستقبله ، ومستقبل بلاده ، ولم يكن هناك ما يهدد الأمن من سير تلك المظاهرة ، فهى دائما تسير فى نظام ، وتنتهى فى أمان وانما تأتى نذر الشر من اعتراض الشرطة لها ، والحيلولة دون اظهارها شعورها ، والتعبير عن أحاسيسها ، والانقضاض عليها بالهراوات والعصى الغليظة ، وأحيانا بطلقات الرصاص ، كما لو كانت بين الطرفين معركة حربية ، حامية الوطيس .

لقد كان هذا الحادث ، الذى عرف بحادث كوبرى عباس ، غلطة تورطت فيها وزارة النقراشى ، هاجت لها الخواطر ، وأخذها عليه أصدقاؤه وأعداؤه على السواء .

وتتابعت المظاهرات فى كثير من المدن المصرية ، فى الاسكندرية والزقازيق ، والمنصورة ، وأسيوط ، مظهرة السخط على الوزارة ، ولم تخل احداها من سقوط القتلى من المتظاهرين ، مما عم معه السخط على

---

(١) فى أعقاب الثورة للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ج ٣ ص ١٨٠ .

للوزارة وزلزل أقدامها فقدمت استقالتها في ١٥ من فبراير عام ١٩٤٦ وخلفتها وزارة صدقي الثانية .

وزارة اسماعيل صدقي الثانية :

تألفت في ١٧ من فبراير عام ١٩٤٦ ، وكان من بين وزرائه ابراهيم عبد الهادي وزيرا للخارجية ، واحمد لطفي السيد نائبا لرئيس الوزارة .

ازداد المصريون تمسكا بمبدأ الجلاء ، وأصبحت جميع طبقات الشعب تدين به ، ولا ترضى بغيره بديلا ، يدل على ذلك قيامها بمظاهرة ضخمة أطلق عليها اسم مظاهرة الجلاء يوم ٢١ من فبراير عام ١٩٤٦ اشتركت فيها جموع الطلاب والعمال ، وسارت في شوارع القاهرة هاتفة بضرورة الجلاء ، وكانت تسود الجميع روح عالية من الوطنية وحسن النظام .

تدخل الانجليز :

أغاظ الانجليز المستعمرين التفاف المصريين جميعا حول مبدأ الجلاء واعلانهم عن هذا الهدف بصورة جماعية ، على مرأى ومسمع من الرأي العام العالمي ، فقاموا بعمل خسيس يدل على حنقهم وغيظهم ويدل على دناءتهم وانحطاط تفكيرهم : فقد اقتحمت جموع المتظاهرين في ميدان الاسماعيلية (ميدان التحرير الآن) سيارات بريطانية مصفحة ازهقت أرواح ثلاثة وعشرين من المتظاهرين ، وأصابت ١٢١ بجروح خطيرة(١) .

وان المرء ليأخذه العجب من هذه الحماقة ، وذلك السخف اللذين انحطت اليهما سلطات الاحتلال بمصر ، ولا يسعه الا أن يحكم على المستعمرين الأنذال بالهوس والجنون وانحطاط التفكير وانهيار الأعصاب فاذا كان هدفهم صرف المصريين عن أمانيهم الوطنية بمثل هذه الطرق الخسيسة أو بغيرها ، فقد خاب فألهم ، وطاشت أحلامهم ، فما كانت القوة ، في أي وقت من الاوقات ، بقادرة على اخضاع شعب بأسره للذلة والعبودية ، في وقت تفتح فيه وعي الشعب الى حقه في الحرية والاستقلال ، واعترفت الدول المتحالفة في ميثاق الامم المتحدة بهذا الحق ، والوقوف في وجه الشعب في الواقع ضرب من المحال ، لا يقدم عليه سوى المستعمرين

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٨٥٨-٢٠٠

الانجليز الذين اتصفوا بالجمود والغباء، وبلادة الفكر وضيق العقل، والذين لا يحسبون حسابا لأحاسيس الشعوب ومشاعرها وتقاليدها وتفكيرها، وتطوره.

لقد كان التعدي على مظاهرة ٢١ من فبراير أسوأ الآثار في طول البلاد وعرضها، وعين يوم ٢٨ من فبراير يوم حزن عام في جميع أنحاء مصر، ويوم ٤ من مارس يوم حداد وطني على شهداء ٢١ من فبراير، أعلن فيه الاضراب العام، فأغلقت فيه المدارس، وأقفلت الحوانيت أبوابها، وتوقفت جميع طرق المواصلات، وخلت الشوارع من المارة، وبدت مدينة القاهرة كأنها مدينة مهجورة خلت من السكان.

وحدث الشيء نفسه في مدينة الإسكندرية، غير أن مظاهرة من الطلاب طافت بشوارعها، ولكن الانجليز السفاحين، الذين لا يهدأ لهم بال إلا إذا تعكر الصفو وتكهرب الجو، لم يستطيعوا ضبط أعصابهم ليمر اليوم في سلام، فأطلقوا الرصاص على المتظاهرين العزل من السلاح، فقتلوا ثمانية وعشرين، وجرحوا ثلثمائة واثنين وأربعين، ولم يقتل من الجنود الانجليز سوى اثنين، وجرح أربعة، وما زال أحد الشوارع في الاسكندرية يسمى باسم «شارع الشهداء» تخليدا لذكرى هؤلاء الشهداء الذين سقطوا صرعى حماقة الانجليز وانتقامهم الخسيس، وسوء تدبيرهم.

نقل اللورد كيلرن وتعيين السير رونالد كامبل مكانه

تعمد السياسة الاستعمارية الانجليزية كلما ضاق المصريون بها ذرعا، إلى أن تستبدل بمعتمدها في مصر معتمدا آخر، ظنا منها أن في هذا ترضية للمصريين، وتمويها عليهم بتغيير سياستها، وفتح صفحة جديدة في علاقتها بهم، فقد نحت اللورد كرومر عن مركزه، وعينت السير ألدون جورست، ثم أقالت جورج لويد وعينت مكانه السير برسي لورين، واستبدلت باللورد كيلرن السفير رونالد كامبل، ولكن الحقيقة والواقع أن سياسة انجلترا في مصر لم تكن تتغير بتغير الأشخاص، فهي سياسة ثابتة جامدة، لا تتغير في أهدافها ومراميها وإن تغيرت في أسلوبها وطريقتها.

وقد كان كيلرن كما سبق أن أوضحنا الجبار الطاغية، والمستعمر من غلاة المستعمرين، استطاع أن يكيد للمصريين بدهائه ومكره، بمعاهدة ١٩٣٦، واقترن اسمه بجريمة ٤ فبراير عام ١٩٤٢، وأتاح الفرصة من

فبراير عام ١٩٤٦ الذى فتكت فيـــه المصفحات الانجليزية بالمتظاهرين الأبرياء فى ميدان الاسماعيلية ٠

وقد ظل بعد اعتزاله الخدمة ، يقف فى مجلس اللوردات حجز عثرة فى سبيل أى اتفاق مع مصر ، وقد ألف مع فريق من غلاة المحافظين جناحا أطلق عليه اسم جناح المتمردين ، عارض أشد المعارضة فى اتفاقية الجلاء التى عقدت عام ١٩٥٤ ، وبمقتضاها انجلت القوات المحتلة عن منطقة القناة فى ٣ من يونيه عام ١٩٥٦ ، ومات غيظا وكمدا من نيـــل مصر استقلالها وحريتها ٠

ولكن هل تغيير سفير بسفير يؤذن بالاعتراف لمصر بحقها فى الحرية والاستقلال ، ويبشر بجلاء جنود الاستعمار عن أرض مصر ؟ ٠

كلا ثم كلا .. فسياسة الانجليز كمـا ســبق أن ذكرنا لا تتغير بتغير السفراء والمعتمدين البريطانيين ، كما انها لا تتغير بتغير الوزارات من محافظين الى عمال ، فهى سياسة ثابتة لا تتحول عن التسلط والجبروت ، وانتقاص حقوق الشعوب ، سياسة القرصنة ونهب أقــوات الشعوب ، وسلب أرزاقها ، وانتهاك حرماتها ، وازهاق أرواح أبنائها ٠

مفاوضات صدقى ـ بيفن :

ومع أن المفاوضات الكثيرة السابقة ، قد أثبتت عدم جدارتهـا فى امكان الظفر من الانجليز بموافقتهم على الجلاء عن أرض مصر ، وبالرغم من اعلان بيفن نفسه تمسك الانجليز بالقواعد الأساسية التى قامت عليها معاهدة ١٩٣٦ ، وبالرغم من أن شعوبا أخرى مثل ايران وسورية ولبنان قد عرفت طريقها للفوز بحريتها واستقلالها ، غير طريق المفاوضة ، أقول بالرغم من كل هذا ، فقد أظهر اسماعيل صدقى كغيره من الســاسة المصريين تهافتا على المفاوضة ممنيا النفس أن يأتى لمصر بما لم يات به الأوائل ، ويزيل عن مصر كابوس معاهدة ١٩٣٦ ، التى تورط فى توقيعها الزعماء المصريون ٠

ففى ٧ من مارس عام ١٩٤٦ ، أى بعد سبعة عشر يوما من توليـه الوزارة استصدر اسماعيل صدقى مرســوما بتأليف الوفد الرســمى للمفاوضة ، وقد بدأت المفاوضات التمهيدية فى مصر منذ النصف الاخير من ابريل عام ١٩٤٦ ، بين اسماعيل صدقى وبين اللورد ستانسجيت ، وزير الطيران البريطانى ، والسير رونالد كامبل

وقد ظهر بجلاء في أثناء المفاوضات التمهيدية ، تمســـك انجلترا باتخاذ مصر قاعدة حربية ، وتحويل معاهدة ١٩٣٦ الى محالفة مستديمة ، وعلقت الجلاء على قبول مصر التعاون بين البلدين على أساس المحـــالفة المنتظرة ٠

فاذا أخذ الانسان في التقدير أن هذه المفاوضات ، كما حدث مرارا قبل الآن ، كانت تجرى وجيش الاحتلال رابض على أرض مصر ، ليذكر المفاوض المصرى بقوة انجلترا وجبروتها ، وليكون وسيلة للضغط عليه للتسليم بمطالب الانجليز ، لأمكن اذن فهم السبب فى تشدد الانجليز فى أن تكون مصر قاعدة حربية لهم وقت السلم ووقت الحرب ، وتكبيلها يقيد جديد أسموه الدفاع المشترك ٠

ومن الغريب أن يستبيح الانجليز لأنفسهم مفاوضة فى ظل جيش الاحتلال ، وتحت أسنته ورماحه ، ويندد وزير خارجيتهم المستر بيفن بموقف روسيا من ايران فى اجراء مفاوضات بين الجانبين ، مع وجود جيش احتلال روسى فى الاراضى الايرانية ، كما يندد بطلب الروسيا الحصول على قاعدة حربية فى بوغاز الدردنيل ، ولا يرى ضيرا أن تجرى المفاوضات بين مصر وانجترا مع بقاء جيش احتلال انجليزى فوق أراضيها ، كما لايرى ضررا على استقلال مصر من اقامة قاعدة حربية انجليزية فى منطقة قناة السويس ٠ ٠

ولكن هو الاستعمار الذى لايعرف منطقا ولا حياء ، يحرم الحلال ويحلل الحرام ، ما دامت مصلحته تقتضى ذلك ، ويكيل للشعوب بكيلين ، ويقابلها بوجهين ، وكلاهما وجه ، (كالح) ، غاض فيه ماء الحياء وتقلصت آثار الخجل ٠٠

وبالرغم من ذلك استمرت المفاوضات فى طريق شـــائك ، كثير العثرات ، حتى اكتوبر عام ١٩٤٦ ، حين شد اسماعيل صدقى الرحال الى لندن فى ١٧ منه ، وبصحبته وزير خارجيته ابراهيم عبد الهادى ، ليفاوض المستر بيفن رأسا ٠ فتوصلا الى مشروع معاهدة وقعه الطرفان بالأحرف الاولى ، وعند عودته الى مصر ، عرضه على الهيئة الرسمية للمفاوضات ، فرفضه سبعة من أعضائها ، ممن عرفوا بالاتزان وأصالة الرأى ، وأعلنوا على الامة بيانا ضمنوه اسباب الرفض ٠

والحقيقة ان الانجليز فى هذا المشروع قد تحايلوا على استخدام مصر قاعدة حربية ، عند قيام حرب ضد انجلترا ، أو وقوع اعتداء مسلح على

البلاد المتاخمة لمصر ، أو حدوث أية حوادث من شأنها تهديد السلم فى الشرق الأوسط .

ومعنى ذلك عودة جيش الاحتلال الى مصر فى أية لحظة ، ما دام قد ترك له وحده تفسير الحالات المتقدمة ، بل انه يستطيع أن يتلمس أى سبب لاحتلال مصر ، وفقا للمعاهدة . وليس هناك من هو أمهر من الانجليز ، وأشد لؤما وتحايلا فى التماس المعاذير ، وانتحال الاعذار ، لادراك أهدافهم الخبيثة .

كذلك حددت المعاهدة (١) لإتمام الجلاء مدة ثلاث سنوات ، يتم خلالها على مراحل ، على حين يمكن أن يتم الجلاء فى عام أو أقل من عام ، ولكن الانجليز يضعون نصب اعينهم دائما الافادة من عامل الزمن ، لعل الظروف تسعفهم بسبب ينقضون معه العهود ، ويرجئون تنفيذ ما أبرموا ، وهم عندما يجلون عن مكان يخرجون من الباب ، ويضمرون فى قرارة أنفسهم العودة اليه ثانية من الشباك . وليس فى هذا القول اى تجن عليهم ، ألم يخرجوا من مصر عام ١٩٥٦ ليعودوا أدراجهم فى العام نفسه ، فى جمع حاشد من الفرنسيين والصهيونيين ، ليجعلوا من مصر مساحة لاحتلال أبدى ، كالحال اليوم فى برلين الغربية ، حيث يحتلونها هم والامريكان والفرنسيون منذ ان وضعت الحرب أوزارها عام ١٩٤٥ اى منذ حوالى عشرين عاما !

• والسودان .. كانت حركة فصله عن مصر تجرى على قدم وساق وجاءت المعاهدة مؤيدة لهذا الانفصال ، مثبتة لمعاهدة ١٨٩٩ ، هذا بالرغم مما صرح به صدقى (باشا) للصحفيين عند عودته من لندن عقب توقيعه المعاهدة بالحرف الاول من اسمه ، من أنه « قد تقرر بصورة قاطعة تحقيق الوحدة بين مصر والسودان تحت التاج المصرى » ، فرد المستر اتلى رئيس الوزارة الإنجليزية فى مجلس العموم على التصريح بقوله « ان الحكومة الإنجليزية طبعا لاتفكر فى ادخال أى تغيير على وضع السودان الحالى ، أو على الإدارة فيه » .

والواقع انه لم يبق لمعاهدة صدقى – بيفن من مزايا سوى أنها كانت اضاعة للوقت ، وتفويتا للفرصة السانحة لمصر لرفع شكواها ضد المحتلين الغاصبين امام مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحدة ، كما

---

(١) انظر نص مشروع صدقى – بيفن ص ٣٣ وما بعدها من كتاب القضية المصرية الصادر عن الحكومة المصرية ، طبع المطبعة الأميرية [illegible]

وسبقتنا الى ذلك ايران وسوريا ولبنان ، ففازت بقرارات يحتم جلاء القوات المحتلة عن أراضيها فانجلت فورا وبدون ابطاء .

تزعزع مركز اسماعيل صدقي بعد أن رفض مشروع المعاهدة المصرية سبعة من اعضاء الهيئة الرسمية للمفاوضة ، وبعد أن نقض رئيس الوزارة الانجليزية تصريح صدقي الخاص بالسودان ، وتجلى فشله في مفاوضاته لذلك لم يجد مفرا من الاستقالة في ٨ من ديسمبر عام ١٩٤٦ فعهد فاروق الى محمود فهمي النقراشي بتأليف الوزارة ثانية .

وزارة محمود فهمي النقراشي الثانية :

تألفت في ٩ من ديسمبر عام ١٩٤٦ ، ونصف أعضائها من السعديين، والنصف الآخر من الدستوريين .

أخذ الانجليز في عهد الوزارة السابقة ، يتحلون عن بعض المواقع في القاهرة . وفي عهد هذه الوزارة انجلوا عن بعض المواقع الاخرى ، فتم بذلك جلاؤهم عن مدينتي القاهرة والاسكندرية ، وبعض المواقع في الوجه البحري . وقد فعلوا ذلك تهدئة لخواطر المصريين ، وظنا منهم أن هذا يمكن ان يصرفهم عن المطالبة بالجلاء الشامل عن اراضي الوطن ، والسكوت عن احتلالهم منطقة قناة السويس . ولكن المصريين لم تعد تنطلي عليهم حيـــل المستعمرين ومؤامراتهم ، واصبحوا يفهمون جيدا نيات الانجليز وأهدافهم، وصاروا يوقنون أن في بقاء جندي واحد من جنود الاحتلال خطرا داهمـــا على استقلال البلاد وحريتها ، واهدارا لعزتها وكرامتهـــا ، لذلك عقدوا العزم على المطالبة بالجلاء الشامل الناجز ، مهما كلفهم ذلك من ثمن ومهما طال بهم الزمن .

عرض القضية المصرية امام مجلس الامن

وآخيرا ، وبعد ان عيل صبر مصر ، فلم يبق في قوسه أى منزع ، وبعد ان تأكد لديها سوء نيات الانجليز ، وتشبثهم بالبقاء فيها ، بالرغم من ارادة أهلها ، واظهارهم مقتهم الشديد للاحتلال البريطاني ، اضطر النقراشي لرفع الأمر الى مجلس الأمن ، استنادا الى ميثاق الامم المتحدة ، الذي ينص على الزام القوات الاجنبيـــة بالجـــلاء عن أراضي الدول ، التي لا ترغب في بقاء هذه القوات في أراضيها . وقام بتقديم شكوى مصر الى مجلس الأمن سفير مصر في الولايات المتحدة . ونظرا لما لهذه الشكوى من أهمية بوصفها أول شكوى علنية ضـــد بريطانيا ، توضع أمام أنظار

دول العالم ، وتفضح المطامع الاستعمارية الانجليزية فى مصر ، نثبتها بنصها فى هذا الكتاب : (١)

جناب السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة

تحتل القوات البريطانية الأقاليم المصرية على الرغم من ارادة الشعب الاجماعية ، وان وجود قوات أجنبية فى أراضى دولة من أعضاء الامم المتحدة ، فى زمن السلم بغير رضائها رضاء حرا ، يعد امتهانا لكرامتها ، وحائلا يحول دون تقدمها الطبيعى . كما أنه خرق للمبدأ الأساسى ـ مبدأ المساواة فى السيادة ـ وهو بذلك يناقض ميثاق الأمم المتحدة فى نصه وروحه ، وقرار الجمعية العامة الصادر بالاجماع فى ١٤ من ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

« ان احتلال القوات البريطانية غير المشروع لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، واحتلالها للجزء الجنوبى من وادى النيل ، أى السودان ، تبعا لذلك قد مكن حكومة المملكة المتحدة منذ سنة ١٨٩٩ من أن تفرض على مصر اشتراكها معها فى ادارة السودان ، وأن تنفرد بعدئذ بالسلطان فيه ، وقد استخدمت حكومة المملكة المتحدة هذا الوضع لكى تتبع سياسة ترمى الى فصل السودان عن مصر ، عاملة على تشويه سمعة مصر والمصريين ، وبذر بذور التفرقة بين المصريين والسودانيين ، وبث الانقسام بين السودانيين انفسهم ، واثارة حركات انفصالية مصطنعة ، والحض عليها . وقد سعت حكومة المملكة المتحدة بهذه السياسة ، وما زالت تسعى الى فصم وحدة وادى النيل ، على الرغم من أن هذه الوحدة تقتضيها مصالح سكان هذا الوادى ، وأمانيهم المشتركة .

ولما كان احتلال القوات البريطانية المسلحة لوادى النيل ، والمضى فى هذه السياسة العدائية ، كلاهما ، تهديدا غير مشروع لحرية أمة مستقلة ووحدتها ، فقد أثار نزاعا بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ، من شأن استمراره تعريض السلم والأمن الدولى للخطر .

ووفقا للمادة ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة ، وعلى الرغم من أن وجود القوات الاجنبية لا يتلاءم بذاته مع حرية المفاوضات ، سعت الحكومة المصرية فى حسن نية الى الوصول الى حل عادل لهذا النزاع ، واذ أخفقت هذه المفاوضات الطويلة المضنية ، حاولت حكومة المملكة المتحدة عن طريق

(١) كتاب القضية المصرية الصادر عن الحكومة المصرية ـ طبع المطبعة الاميرية ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨ .

مفاوضات مباشرة مع حكومة المملكة المصرية ، التمسك بمعاهدة ١٩٣٦ التى لا يمكن ان نلتزمها ،اذ أنها استنفدت أغراضها ، فضلا على أنها تتعارض مع أحكام الميثاق ..

لذلك ترفع الحكومة المصرية النزاع القائم بينها وبين المملكة المتحدة الى مجلس الامن ، تطبيقا للمادتين ٣٥ ، ٣٦ من الميثاق طالبة :

(أ) جلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان جلاء تاما ناجزا .

(ب) انهاء النظام الادارى الحالى للسودان .

والحكومة المصرية اذ تطلب اليكم ادراج هذا النزاع فى جدول اعمال المجلس ، تبدى استعدادها لشرح هذا النزاع ، وتقديم الوثائق اللازمة ، حين يطلب اليها ذلك وفقا للمادة ٣٢ .

وانتهز هذه الفرصة للاعراب عن فائق احترامى ..

القاهرة فى ٨ من يولية سنة ١٩٤٧ .

محمود فهمى النقراشى
رئيس مجلس الوزراء ووزير خارجية
المملكة المصرية

كانت خطوة جريئة ولا شك ، تلك التى أقدم عليها النقراشى ، بشكواه بريطانيا الى مجلس الأمن ، وخروجه بالنزاع المصرى الانجليزى ، من الحيز المحلى الضيق الى الحيز العالمى الواسع ، وتحكيم أمم العالم فى هذه القضية ، التى طال أمدها ، وظل الانجليز يحاورون ويداورون فيها ، ويتعهدونها بكل ما تفتقت عنه أذهانهم من حيل ومكايد ، وما يحيكونه من مؤامرات ودسائس . خطوة جريئة بلا ريب ، لم يكن أحد من السياسيين المصريين غير النقراشى يستطيع الاقدام عليها ، هؤلاء السياسيين الذين نشئوا وترعرعوا فى مدرسة الاستعمار ، وتربوا على يديه ، وطعموا من فتات موائده ، وائتمروا بامره ، وحرصوا على استجلاب رضاه ، مضحين بمصالح بلادهم ، ومطأطئين الرأس لرغباته ومطامعه ، الذين لا يهمهم سوى بلوغ مآربهم الشخصية ، وفى مقدمتها بقاؤهم فى كراسى الحكم وتمتعهم بمزاياه ومغانمه .

ولكن النقراشى ، نشأ أول ما نشأ فى الحقل السياسى ، عضوا فى الوفد المصرى ، تحت رياسة سعد زغلول ، مناضلا ضد الانجليز ، ذائدا عن حياض الوطن ، مدافعا عن كرامته واستقلاله . فاقض مضاجعهم ،

وزلزل أقدامهم . لم يكن يجرى وراء مغنم شخصى سواء يكن طالب مال أو جاه ، فقد عاش فقيرا ، ومات فقيرا ولكن قلبه كان عامرا بالايمان مفعما بحب بلاده ، عالى النفس ، رفيع القدر ، بغيض الهمة ، نظيف اليدين وقد تغلغلت هذه الصفات في نفسه ، لانه نشأ معلما ، يدين بالمثل العليا ، فلم يحد عنها طوال حياته .

ويذكر للرقيب الآن أن النحاس أقصاه عن وزارته ، لا لسبب سوى أنه عارض فى تكليف شركة بريطانية بعينها ، القيام بمشروع كهربة خزان أسوان ، خلافا لما تقضى به الأصول المالية والاقتصادية ، من طرح المشروع فى مناقصة عالمية . ولكن النحاس وقد احتسب بأنه كان متجنيا على النقراشى ، متنكبا جادة الحق والعدل ، بعمله هذا ، عمد الى استرضائه بأن عرض عليه وظيفة عضو بمجلس ادارة شركة قناة السويس ، التى تدر عليه راتبا أكبر من راتب الوزير . ولكن النقراشى ، وهو ما وصفنا ، رفض هذا العرض بكل اباء ، لأنه لم يكن يرى فى المال بديلا عن الكرامة ، وعزة النفس .

غادر النقراشى مصر الى نيويورك ، فى أواخر شهر يوليو عام ١٩٤٧ حيث مقر مجلس الأمن ، يصحبه نخبة من السياسيين والفقهاء القانونيين ، والخبراء والمستشارين ، وانضم اليهم وزير مصر المفوض فى الولايات المتحدة ، يمدونه بالوثائق التاريخية ، والدراسات القانونية . وبقى فى نيويورك حتى العاشر من شهر سبتمبر ، يترافع فى القضية المصرية فى جلسات عدة (١) ، ويدافع عن أمانى بلاده ، ويهاجم مطامع الانجليز ، ويفضح خططهم الاستعمارية ، ومؤامراتهم الدنيئة ، فى بيان تؤيده الحجج والأسانيد ، وعبارات قوية جريئة لم يسبقه اليها أحد من السياسيين المصريين ، مما أفزع الانجليز ، وأقض مضاجعهم ، وزلزل الأرض من تحت أقدامهم .

تمسك الانجليز فى ردهم على اتهامات مصر ، وتجريحهم لسياستها ، بأهداب معاهدتى ١٨٩٩ ، ١٩٣٦ ، وكلتاهما قد أبرمتهما مصر معهم تحت الضغط والاكراه . قال فى خطبته أمام مجلس الأمن بتاريخ ٥ من أغسطس عن معاهدة ١٩٣٦ (٢) .

« ان مصر لم تكن طرفا حرا عند ابرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ذلك

---

(١) انظر خطب النقراشى أمام مجلس الأمن فى كتاب القضية المصرية الصادر عن الحكومة المصرية ص ٢٣٨ الى ص ٥٨٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٤٨

ان القوات البريطانية كانت تحتل أراضيها ، فضلا على أن الجانب البريطاني لم يدع عند المفاوضين المصريين مجالا للشك فيما يترتب من نتائج ، على رفضهم التسليم بمطالب بريطانيا . فقبل بدء المفاوضات مباشرة ، وجه المندوب السامي البريطاني الى ملك مصر وإلى رئيس وزرائها ، مذكرة شفهية أوضح فيها « أن الاخفاق في عقد اتفاق قد تترتب عليه نتائج جدية ، وأن بريطانيا تحتفظ في هذه الحالة بحق اعادة النظر في سياستها نحو مصر » .

والتهديد الذي تنم عليه المذكرة ، باعادة فرض الحماية ، أو بما هو شر منها ، كان تهديدا سافرا ، لم يحجبه التصريح الذي اضاف اليه :

« انه لم يقصد به تهديد أو ارهاب ، وانما قصد به تقرير الواقع »

. وقد احتج رئيس وزراء مصر على ذلك فورا ، فكتب في رده « ان محادثات أو مفاوضات تعالج في ظل مثل هذه التصريحات ، لا يمكن أن تكون خالصة أو حرة » ..

فأجاب المندوب السامي بأن :

« حكومته تحتفظ لنفسها بحرية العمل ، بالنسبة للمستقبل المجهول المدى » .

وبالرغم من الحجج القوية ، التي أدلى بها النقراشي امام مجلس الأمن والتي أثبت بها بطلان معاهدة ١٩٣٦ ، وعزز بها طلبه الخاص بجلاء الانجليز عن وادى النيل أسوة بما اقره عام ١٩٤٦ من جلاء القوات الاجنبية عن أراضي سورية ولبنان ، بالرغم من ارتباطهما بمعاهدتين أبرمتاهما عام ١٩٣٦ ايضا ، فان هذا المجلس ، متأثرا بتحريض الدول الاستعمارية ومنصاعا الى اغرائها ، أصدر في ١٠ من سبتمبر عام ١٩٤٧ قرارا بتأجيل نظر المشكلة الى اجل غير مسمى ، مع الاحتفاظ بها في جدول أعماله ، وللطرفين المتنازعين ، ولمن شاء ، أن يثيرها من بعد ، على النحو الذي يراه (١) .

واذا كانت مصر قد اخفقت في مسعاها لدى مجلس الأمن واذا كانت شكواها لم تجد صدى من جانب الدول الكبرى ، التي نصبها الميثاق لتحرير الدول الصغرى من السيطرة والاستعمار ، ولكن سرعان ما استيقظت فيها نزعات الاستعمار ومطامعه ، فان مصر قد افادت كثيرا من هذه المحاولة ، وتكشفت لها الأمور جلية واضحة ، وانجلى لها الواقع

---

(١) مذكرات في السياسة المصرية ج ٢ ص ٣٢٣ .

المحزن ، الذى يجب أن ينير لها السبيل ، ويوضح لها معالم الطريق ، وأنه لا سبيل للخلاص من ربقة الاستعمار الا بالجهاد .

بعد قرار مجلس الامن

عـاد النقراشي الى مصر يوم ٢٠ من سبتمبر عام ١٩٤٧ ، فقـوبل بمظاهر التقدير والتكريم ، وأرسل اليه الملك فاروق مركبة ملكية تقله من المطـار الى القصر ، وصرح لـه بأن أحـدا لم يخـدم مصر مثـل ما خدمها هو (١) .

وقد صرح النقراشي بعد عودته الى مصر بتصريح جاء فيه :

« وخطتى الآن ، والى أن يجد الجديد المنتظر ، فى الموقف ، تتلخص سياستى فى تجاهل انجلترا تجاهلا تاما ، فنحن فى خصومة سافرة معها ، وهى ليس لها وجود عندنا » .

وجاء فيه أيضا :

« سنولى وجهنا شطر الجيش المصرى ، سياج الوطن ، فنقويه بزيادة عدده ، والاستعانة بالدول الاخرى ، لجلب عدده ، والخبراء والمستشارين اللازمين له ، وسندعم الاصلاح الداخلى بكل ما فى وسعنا » ..

ويذكرنا هذا التصريح بتصريح مكرم عبيد ، عند عودته من لندن عقب فشل مفاوضات (النحاس ــ بيفن) حيث قال :

« خسرنا المعاهدة ، ولكننا كسبنا صداقة الانجليز »

فما أعظم الفارق بين التصريحين !

هذا يتمسح بالانجليز ، برغم ما يكيلونه لنا من ضربات ، وذلك يجاهر بخصومتهم ، ويعلنها عليهم حربا شعواء ، فى الداخل وفى الخارج .

ولا بد لنا فى هذه المناسبة ، أن نسجل هنـا موقفا مخزيا آخـر لرئيس الوفد المصرى مصطفى النحاس ، يدل على مبلغ مـا وصلت اليه الحزازات بين الأحزاب المصرية ، والاستهانة بمصالح البـلاد الوطنيـة ، وتضحية تلك المصالح على مذبح المصالح الشخصـية ، وهذا من نتـائج وجود الاحتلال الانجليزى على أرض مصر ، وسياسة المؤامرات والدسائس

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية ، الجزء الثانى ص ٣٢٣ .

الاستعمارية ، التى يمارسها الانجليز فى مصر ، وفى كل مكان ، ما فى هذا شك أو ريب :

فبينما كانت قضية مصر منظورة أمام مجلس الأمن ، يدافع عنها النقراشى بكل ما أوتى من قوة وجهد ، اذا بمصطفى النحاس الزعيم الوطنى الكبير ، يبرق الى السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة ، يقول :

« ان النقراشى لا يمثل الا نفسه ، وحفنة من الاقطاعيين ، الذين يلتفون حوله ، وأنه هو ، والوفد من ورائه ، هم ممثلو الشعب ! » .

كانت هذه البرقية ولا شك سقطة كبيرة تردى فيها الوفد ، وجريمة لا تقل نكرا عن حادث ٤ فبراير ، وطعنة للنقراشى فى ظهره ، بل طعنة للقضية المصرية نفسها ، ما كان يقدم عليها زعيم مصرى ، يدعى التكلم باسم الشعب . اذ كان الواجب الوطنى يحتم عليه أن يساند النقراشى فى موقفه من انجلترا ، فى مجلس الأمن ، أو أى زعيم آخر ، بصرف النظر عن الأشخاص ، يعمل جاهدا للقضية الوطنية ، واستخلاص حقوق الوطن من براثن المحتل الغاصب ، متناسيا الخلافات الشخصية فى هذا الموقف الخطير ، مستجيبا للدعوة التى وجهها النقراشى من فوق منبر الشيوخ فى ٢٧ من يناير عام ١٩٤٧ ، قبل رحيله الى نيويورك ، داعيا الى ضم الصفوف ، ونكران الذات ، والابتعاد عن التفرق والانقسام ..

لذلك كان لا بد « لثورة ٢٣ يوليو » ، لكى تؤمن ظهرها ، وتجنب البلاد المؤامرات والعبث بمقدراتها ، والعودة بها الى الفوضى والاستغلال ، والاستهانة بمصالح الوطن ، أن تقضى على الاحزاب قضاء مبرما ، وتريح البلاد من عبثها واستهتارها ، واستغلالها مصالح الشعب لفائدتها ومصالحها الشخصية . فكانت بخطوة سديدة ، واجراء حالفه التوفيق ، مهد للمكاسب الكبرى التى احرزتها البلاد بعد الثورة .

تقسيم فلسطين :

وقد أردفت هيئة الامم المتحدة قرار مجلس الامن ، بتعليق شكوى مصر ضد انجلترة ، وعدم الزامها بالجلاء عن اراضيها ، بعمل آخر يعد وصمة فى جبينها ، وتنكرا لنصوص ميثاق سان فرنسيسكو ، ذلك هو اصدارها فى ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧ قرارا بتقسيم فلسطين ، واجازتها الاعتداء الصهيونى على شعب فلسطين ، واغتصاب أراضيه . وقد كان لبريطانيا اليد الطولى فى صدور هذا القرار ، كما مهدت لانشاء دولة

إسرائيل ، وفاء لوعد بلفور بتخليها عن فلسطين لليهود فى ١٥ من مايو عام ١٩٤٨ . وقد قررت الدول العربية فيما بينها أن تدخل بجيوشها فلسطين فى هذا التاريخ ، وتحول دون استيلاء اليهود عليها ...

وكانت الحرب بين الجيوش العربية وعصابات إسرائيل مأساة مؤلمة ووصمة عار فى جبين بعض العرب ، لا يمكن أن تنسى . ذلك أن الجيش المصرى حمل وحده عبء الحرب ، على حين تضافرت عليه المؤامرات من كل جانب .

فالجيش العراقى وقف وقفة المتفرج فى هذه الحرب ، لا يبدى حراكا ، معتذرا بأنه ليست لديه أوامر (ماكو اوامر !) وإذن لماذا حضر إلى ميدان القتال ؟ حضر لمجرد التظاهر بالاشتراك فى حرب فلسطين لأن رؤساءه وعلى رأسهم نورى السعيد ، والأمير عبد الإله كانوا يمـــالئون الانجليز ، ويدورون فى فلك السياسة الانجليزية ، ويخشـــون أن يقدموا على أمر يغضب من أجله سادتهم الانجليز .

كذلك كانت الأسلحة التى قدمت للجيش المصرى أسلحة فاسدة ، من مخلفات الحرب العالمية الثانية ، باعها للحكومة المصرية تجار الخيانة والغش وعلى رأسهم فاروق الملك السابق ، الذين لا يتورعون عن الكسب الحرام ، غير عابئين بما يؤدى إليه هذا العمـــل الدنىء من هزيمة الجيش المصرى ، وقتل جنوده الأبرياء بأيديهم ، لا بأيدى أعداء الوطن .

وأمر ثالث ، أشد خطورة عما سبق ، ذلك أن القيادة العليا للجيوش العربية ، كانت موكولة إلى الملك عبد الله بن الحسين ، ملك الأردن ، بناء على طلبه ، وإصراره ، وبينما كانت الجيوش المصرية ملتحمة فى القتال مع جيوش إسرائيل ، كان الملك عبد الله يطعن الجيوش العربية فى ظهرها بالتفاوض سرا مع قادة إسرائيل ، وكان الملك على صلة باليهود ، يقابلهم فى قصر الشونه كل ليلة ، وينسق معهم الخطط والخطوات ، ومعه رئيس أركان حربه الجنرال جون ماجيت جلوب . وجلوب وهو إنجليزى كان يعمل من غير شـــك بوحى من دولته انجلترا . وقد تمخضـــت خيانة الملك عبد الله عن انسحاب جيوشه من اللد والرملة ، وتسليمهما إلى اليهود ، لقاء تغاضيهم عن احتلاله الأراضى الممتدة على الضفة الغربية لنهر الأردن ، (٢)

(٢) من مقال للاستاذ محمد حسنين هيكل بجريدة الأهرام الجمعة ١٥ من مايو عام ١٩٦٤ وقد [illegible]

على أن المؤامرة ضد الأمة العربية وصلت الى حد أن جيوشها التى دخلت فلسطين للمحافظ على الحق العربى فيها ، كانت تحت القيادة العليا لأحد العملاء الذين اشتراهم الاستعمار بالثمن البخس . . . بل ان العمليات العسكرية تحت هذه القيادة العليا ، كانت فى يد ضابط انجليزى ، يتلقى أوامره من الساسة الذين اعطوا الحركة الصهيونية وعد بلفور ، الذى قامت على أساسه الدولة اليهودية فى فلسطين » (١)

والجيش السورى دخل معركة واحدة فى (صمخ) وكان زعماء لبنان منذ الدقيقة الأولى يقولون :

« ليس لدى لبنان جيش . . . دبروا أنفسكم كما تشاءون ولا تعتمدوا علينا » (٢)

وهكذا كانت الخيانة ، والأنانية ، والمطامع الشخصية والكسب الحرام أسبابا فى ضياع فلسطين ، وخذلان الجيش المصرى ، وتركه وحده فى الميدان .

يضاف الى ذلك مؤامرات انجلترا وامريكا ، ومعاونتهما عصابات اسرائيل ، وامدادها بالأسلحة والذخائر فى أثناء الهدنتين اللتين فرضتهما الأمم المتحدة على العرب ، واعتراف امريكا بدولة اسرائيل فور اعلان قيامها فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ ، ومساندتها بعد ذلك فى اعتداءاتها الأثيمة على العرب ، كل ذلك كان ليتخذ منها الاستعمار ركيزة فى تنفيذ مطامعه الاستعمارية ، فى المنطقة ، بعد ان تقلص ظله منها ، وقضى على نفوذه فيها .

اغراق الانجليز فى استبدادهم بمصر ، وعملهم على فصل السودان عنها

أغرى قرار مجلس الأمن انجلترة على الاغراق فى استبدادها بمصر ، بعد أن أمنت التدخل فى أعمالها ، خصوصا من جانب المنظمة العالمية ، التى كانت تأمل مصر أن تقف بجانبها ، عملا بميثاق سان فرنسيسكو ، وبالوعود الخلابة التى أذيعت فى أثناء الحرب وفى أعقابها .

فجمدت انجلترا الأرصدة الاسترلينية ، وامتنعت عن دفع ديونها التى لمصر فى ذمتها ، تلك الديون التى بلغت ٣٦٥ مليونا من الجنيهات الاسترلينية ، والتى اقترضتها من مصر فى أثناء الحرب العالمية الثانية

(١) الميثاق ص ٢٨

(٢) المقال السابق .

للصرف منها على مطالب جيوشها ، وبذلك تم لها النصر على أعدائها ، ولم تفرج الا عن النزر اليسير منها ، وزادت من استبدادها بأن حرمت تحويل الاسترليني الى عملات أخرى ، لكى تسد فى وجه مصر المنافذ ، فى معاملاتها التجارية ، مع الدول الاخرى ، وكان تجميد الأرصدة بمثابة حصار اقتصادى ، فرضته على مصر ، عقابا لها على شكواها التى تقدمت بها الى مجلس الامن ٠

ان المرء ليأخذه العجب من تصرف انجلترا ، بتجميدها دين مصر قبلها ، قوة واقتدارا ، وان هذا التصرف ليعيد الى الذاكرة مأساة الديون المصرية فى عهد اسماعيل ، فمصر تدين انجلترا بمبلغ ٣٦٥ مليونا من الجنيهات الاسترلينية ، واذا ما طالبت بتسديد هذا الدين ، رفضت تسديده بكل صفاقة وسماجة ، وعمدت الى المراوغة والمخاتلة ، وتملكتها (البلطجة) الدولية ، مضمرة الحاق الضرر باقتصاد مصر وتجارتها ، ونسيت أو تناست فضل هذا الدين فى كسبها الحرب ، ومد مصر يد المساعدة لها ، فى وقت خوت خزائنها من المال ، وابتليت بالعوز والفاقة٠

واذا رجعنا قليلا الى عهد اسماعيل ، وجدنا أن ديون مصر لم تبلغ ربع الديون ، التى لها فى ذمة انجلترا ٠ ومع ذلك فقد اتخذت الدول الاوربية ، بتحريض انجلترا ومؤامراتها الدنيئة ، هذا الدين ذريعة للتدخل فى شئون مصر ، واذلالها ، تدخلا انتهى بعزل اسماعيل ثم باحتلال انجلترة لاراضيها ، احتلالا عسكرياً فى عهد توفيق عام ١٨٨٢ ٠

فانجلترا كما سبق أن ذكرنا تكيل للناس بكيلين ، وتلقاهم بوجهين فاذا كانت دائنة استعملت الغلظة والجبروت مع المدينين ، واذا كانت مدينة تجهم وجهها الصفيق للدائن ، واستعملت (البلطجة) والنذالة ، وامتنعت عن الوفاء بل والحقت الأضرار البليغة بدائنيها ، الذين أحسنوا اليها وقت الحاجة ، وكانوا عونا لها وقت الشدة والخطر ٠

وفى السودان اتخذت انجلترا خطوات حثيثة لفصله عن مصر متظاهرة بسودنته ، وهى فى الواقع انما تعمل على تحويله الى مستعمرة انجليزية وضمه الى دائرة الامبراطورية المرنة التى أخذت تغيب عنها الشمس الى الابد ٠

(٢٥)

الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦

(ا) الاحداث التى سبقت الالغاء

أوضحنا فيما سبق الظروف التى أبرمت فيها معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وانجلترا ، والغبن الذى لحق بمصر من جرائها ، والجهود المتوالية التى بذلها الساسة المصريون بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، للتخلص من قيودها ، ورفع نيرها عن رقاب المصريين ، واجلاء الاحتلال عن أرض الوطن ، واعادة الحرية والاستقلال الى وادى النيل ، والحياة العزيزة الكريمة لابنائه • ولكن هذه الجهود لم تصادف أى نصيب من النجاح ، لان الانجليز لم يكونوا ليحيدوا عن سياستهم التقليدية ، سياسة المراوغة والخداع ، ومجانبة الحق ، والاستمساك بالباطل •

واخيرا دخل النحاس مع انجلترا فى مفاوضات جديدة ، استمرت تسعة شهور ، من مارس عام ١٩٥٠ الى سبتمبر عام ١٩٥١ ، أسفرت عن تمسك الانجليز بمعاهدة ١٩٣٦ ، وعدم التسليم بالجلاء ، أو وحدة وادى النيل ، بل وتراجعهم فيما سلموا به فى معاهدة صدقى ـ بيفن • ووصل الامر بالمستر بيفن وزير خارجية انجلتره اذ ذاك ، أن صرح فى أثناء هذه المفاوضات ، بانه يكره ترديد عبارة الجلاء ، ويود أن يرى هذه العبارة غير الموفقة (هكذا !) يستبدل بها شيء مثل عبارة (نقل السلطة (١))

وقال أيضا :

« أن العبارة المصرية المعادة عن الجـــلاء ووحدة مصر والسودان ، لا تنهض أساسا عمليا يمكن البناء عليه » (٢)

---

(١) انظر كتاب القضية المصرية الصادر عن وزارة الخارجية المصرية ص ٦٦٢ •

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٦١ •

مع انه هو نفسه الذى وافق على الجلاء فى مشروع معاهدة صدقى — بيفن ، ولكن ما قرره عام ١٩٤٦ نقضه بكل بساطة عام ١٩٥١ ..

واخترعت انجلترا ذريعة جديدة ، لبقائها فى مصر الى الابد ، وعدم جلائها عن أراضيها ، ومعروف ان جعبتها لا تنفد من الذرائع . فجاء أخيرا على لسان المستر موريسون ، خليفة بيفن فى وزارة الخارجية البريطانية ، فى خطبة القاها فى مجلس العموم فى ٣٠ من يوليو ١٩٥١ قوله :

« ان وجود القوات البريطانية فى مصر لم يعد اليوم مسألة مصرية بريطانية خالصة ، فنحن دولة عليهـــا مسئوليات فى الشرق الاوسط ، بالنيابة عن باقى دول الكومنولث وحلفاء الغرب أجمعين» (١) .

ولم يبق بعد ذلك الا أن تقوم مصر بعمل ايجابى من ناحيتها ، بعد أن ثبت بشكل قاطع عدم جدوى المفاوضـــات فى استرداد مصر حقها المغتصب ، مادام جيش الاحتلال مرابطا فوق اراضيها ، يهدد أمنها ويصادر حرياتها ، ويعبث بمقدراتها ، وان مصر لقد أضاعت الوقت سدى فى نهج طريق المفاوضـــات العقيم ، وان انجلترا أفادت من ذلك باطالة أمد الاحتلال ، ومضاعفة قواتها ، وتدبير المؤامرات ، لتثبيت نفوذها فى المنطقة .

ولم يكن هناك سوى حل واحد لرفع نير الاستعمار عن كاهل مصر ، ولكنه كان يحتاج الى شىء من العزم والتصميم ، ذلك هو أن تعلن مصر من جانبها الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وما كان يترتب عليها من امتيازات لانجلترا ولجيش الاحتلال ، وكذلك الغـــاء معاهدة عام ١٨٩٩ التى فصلت بين القطرين الشقيقين مصر والسودان . وقد تم ذلك فعلا فى ٨ من اكتوبر عام ١٩٥١ ، حيث ألقى مصطفى النحاس بيانا أمام البرلمـــان ، متضمنا الغاء المعاهدتين ، وقدم اليه المراسيم الخاصة بذلك ، وما يستتبعها من تشريعات . وقد صدر فعلا بذلك ، القانون رقم ١٧٥ لسنة ١٩٥١ ، فى ١٥ من اكتوبر سنة ١٩٥١ (٢) .

---

(١) انظر نص خطاب المستر موريسون فى كتاب القضية المصرية ص ٦٧٤ — ٦٧٦

(٢) انظر هذا القانون بكتاب القضية المصرية ص ٦٩٠ ..

(ب) معارك الجلاء والجرائم التي ارتكبها الانجليز بعد الالغاء

لم يكن الانجليز يتصورون أن مصر يمكن أن تقدم على الغاء معاهدة ١٩٣٦ بجرة قلم ، لجنوحها الى المسالمة ، واستمساكها بمبادىء الاخلاص، والشرف ، ومن هنا جاء جبروتهم وتجبرهم فى مفاوضاتهم الأخيرة ، وتمسكهم بأهداب تلك المعاهدة ، واصرارهم على احتلال مصر الى الأبد ، ورجوعهم عما ارتضوه فى مفاوضاتهم السابقة ، غير عابئين بما يحرم الظلم والجبروت فى نفوس المصريين من ثورة وانفجار ، غير مقدرين أن الشىء اذا زاد على حده ، انقلب الى ضده !

فلما فوجئوا بنبأ الغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى عام ١٨٩٩ ، جن جنونهم ، وفقدوا صوابهم ولجئوا مرة أخرى الى أعمال العسف والتنكيل بالشعب المصرى كما فعلوا به فى ثورة ١٩١٩ .

ولكن الشعب المصرى الذى لا يعرف التقاعس أو التخاذل عندما يدق ناقوس الخطر ، والذى اثبت فى كثير من مناسبات التاريخ تفانيه فى مقاومة الغزاة المعتدين ، شمر عن ساعد الجهاد ، وصمم على المقاومة والمناضلة ضد عدو غادر جبار ، مهما كلفه ذلك من تضحية وفداء ، موقنا بأن العاقبة للصابرين ، وأن المكر السىء لا يحيق الا بأهله .

والحقيقة أن الشعب هو الذى تحمل وحده عبء الكفاح ضد الانجليز، كما كافح قبل الآن الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر ، وحملة فريزر فى رشيد ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، اذ اكتفت الحكومة باصدار المراسيم بالغاء المعاهدة ، ولم تتخذ من جانبها أى ترتيب أو تنظيم لخطوات الجهاد ، وتركت الشعب يواجه بمفرده جيش الاحتلال ، دون أن يتسلح بأى نوع من السلاح . فاضرب العمال فى معسكرات الاحتلال عن العمل ، مضحين بأرزاقهم وأرزاق أسرهم فى سبيل تحرير بلادهم . كذلك قاطع المتعاقدون والموردون جيش الاحتلال ، فامتنعوا عن امدادهم بأى شىء من المواد الغذائية ، مفوتين على أنفسهم أرباحا ضخمة ، كانوا يجنونها من وراء هذه العمليات ، كما امتنع سائقو القطر الحديدية من تسييرها عبر منطقة القناة ، لحمل الجنود الانجليز . وتوقف أيضا عمال الشحن والتفريغ عن تقديم مساعداتهم للسفن الانجليزية فى الموانى المصرية .

وبالاختصار قاطع الشعب بمختلف طبقاته جنود الاحتلال ، مقاطعة تامة ، فلحقت بمصالح جيش الاحتلال خسـائر فادحة ، ووجد الانجليز أنفسهم فجأة في عزلة تامة ، وفي حيرة واضطراب لم يكن لهم بها عهد !

ملأ الحقد والغيظ قلوب الانجليز ، وأخذوا يتحرشون بالشعب في كل مكان ، يمطرونه بنيران بنـادقهم ومدافعهم ، ظنـا منهم أنهم بذلك يجبرون المصريين على الرضـا بالاقامة بين ظهرانيهم ، ولم يدروا أنهم يعجلون بموعد طردهم وجلائهم ، وأنهم لم يكونوا أعظم قوة من نابليون ، وكليبر ، ومينو الذين أذاقهم الشعب المصرى من العذاب ألوانا ، حتى اضطر الجيش الفرنسى الى الجلاء وأنفه راغم فى التراب !

تعددت معـارك الجلاء ، وانتشرت على طول مدن القناة ، والقرى المجـاورة : فنشبت فى بورسعيد ، والاسماعيلية ، والسويس ، وأبى كبير ، وأبى حماد ، والتل الكبير . ولم يفت فى عضد المجاهدين ما كانوا يلقونه فى كل مكان من قتل وتنكيل ، وافتراء وتعذيب ، بل كان الجميع يقدمون على الموت بصدور رحبة ، ونفوس مؤمنة ، مما أذهل الانجليز ، وأثار دهشتهم ، وأكد لهم أن الاحتلال زائل لا محالة ، وأن أيامه أصبحت معدودة !

والواقع ان معارك الجلاء كانت مملوءة بأعمال التضحية والبطولة ، أبلى فيها المجاهدون المصريون بلاء منقطع النظير ، استرعى اعجاب الاحرار فى جميع بقاع العـالم ، وشهد به الاعداء قبل الاصدقاء وأقض مضاجع المحتلين المستعمرين ، مما جعلهم يوقنـون بأن الامر جد ليس بالهزل ، وأن بقاءهم بين شعب متـحفز يضمر لهم الكراهية والبغض ، محفوف بالاخطار والمكاره ، ولا تؤمن عاقبته ، ولا يؤدى الى الاهداف الاستعمارية المرموقة .

لهذا أخذت فكرة الاحتفاظ بقاعدة السويس تتزعزع ، وتجد لها من القادة العسكريين من يعارضها، بعد أن كان السياسيون الانجليز لايطيقون سماع كلمة الجلاء ، ويبررون بقاء جيش الاحتلال بمختلف الذرائع والحيل، ويرون ذلك أمرا مفروغا منه ، ولا يحتمل أى جدال أو مناقشة ..

واذا كان التاريخ قد سجل للابطال المجاهدين صفحة مشرقة من صفحات البطولة والجهاد ، فى سبيل الحرية والاستقلال ، فقد سجل فى الوقت نفسه صفحات شـائنة من الوحشية والبربرية لجيش الاحتلال ، فى مصر ، يضاف الى صفحاته المجللة بالسـواد ، والملطخة بدماء الشهداء والابرياء ، والتى يندى لها جبين الانســانية ، وستظل أبد الدهر عارا يلاحق الاستعمار ، وشنارا يشيعه فى كل زمان ومكان !

اهم معارك الجلاء

لا بد من الاشارة هنا الى أن القرتين في هذه المعـارك : قوة جيش الاحتلال ، وقوة المجاهدين ، كانتا غير متكافئتين : فجيش الاحتلال نيف عدده على الثمـــانين الفا ، ويملك من أسلحة الفتك والدمار ، من بنادق ومدافع ورشاشات ودبابات ومصفحات ، مالا حصر له ، على حين لا يملك المجاهدون والفدائيون من الاسلحة الا أقلها وأبسطها !

يضاف الى ذلك الوحشية التى اتصف بهـــا الانجليز ، وتجاهلهم قوانين الحرب الشريفة ، وتقاليدها ، فهم يحصدون بنيران مدافعهم الرجال والنساء والاطفال ، بلا تمييز ، ويهاجمون بدباباتهم ومصفحاتهم ومدافعهم القرى الآهلة بالسكان ، يهدمونها من أساسها ، ويشردون سكانها ، دون أدنى اهتمام أو اكتراث ولا يعاملون أسراهم كما يعامل الاسرى فى الحروب، بل يصلبونهم الى جذوع الاشجار ، ويسلطون عليهم الكلاب المتوحشة ، لتنهش أجسامهم ، وغير ذلك من وسائل التعذيب ، التى يندى لها جبين الانسانية ٠

ونسوق الآن ثلاث معارك ، تجلت فيها وحشية الانجليز وبربريتهم وافتقارهم الى الانسانية والشهامة ، وبعدهم عن المدنية والحضارة ، بعد السماء عن الارض ، بالرغم من زجهم أنفسهم ضمن دول العالم المتمدين الحر !

معركة كفر احمد عبده :

كفر أحمد عبده ، هو أحد أحياء مدينة السويس ، بين وابور تكرير المياه التابع للقوات البريطانية، ومعسكرات القوات ، التى بشمال المدينة٠

ففى ٥ من ديسمبر ١٩٥١ طلب الجنرال أرسكين ، القـــائد العام للقوات البريطانية فى القناة ، من محـــافظ السويس ، اخلاء الحى من سكانه ، وكانوا يؤلفون نحو ثلثمـــائة أسرة ، يبلغ تعداد أفرادها ألفى نسمة ، بحجة شق طريق بين الوابور والمعسكرات ، يصل بينهما مباشرة .

اتصل محافظ السويس بوزارة الداخلية ، التى رفضت رفضا باتا طلب القائد البريطانى ، وأمرت المحافظ بمقاومة الانجليز ، ومنعهم من تنفيذ هذا الطلب بالقوة . فابلغ المحـــافظ بدوره سلطات الاحتلال هذا القرار ، والتى أصرت على تنفيذ رغبتها ، مستهينة بالحكومة الشرعية ، منتحلة لنفسها سلطة فوق سلطة الحكومة .

وفى مساء يوم ٧ من ديسمبر عام ١٩٥١ ، حشدت سلطات الاحتلال قوات ضخمة من ستة آلاف جندى تعززهم نحو ٢٥ دبابة و ٥٠٠ مصفحة وحوالى ... سيارة وعدد من الطائرات الحربية طوقت الحى بهن (١) . وحاصرت القوات البريطانية مدينة السويس ليلا ، ووقفت البوارج الانجليزية فى الميناء فى حالة تأهب مصوبة مدافعها نحو المدينة لقذفها بالقنابل عند أول اشارة .

استعد الانجليز هذا الاستعداد الحربى الضخم كما لو كانوا مقدمين على معركة حربية حاسمة ، يقاتلون فيها عدوا لا يقل عنهم عددا وعدة ، مع أن جنود البوليس الذين كانوا فى الخدمة بالسويس حين ذاك لم يكونوا يزيدون على اربعمائة جندى وأسلحتهم هى البنادق وليس من شىء سوى هذه البنادق !

وقد كان من غير المعقول أن تتصدى هذه القوة الضئيلة لذلك الجيش العرمرم ، والا تعرضوا للابادة ، وتعرضت مدينة السويس أيضا الى الابادة والتدمير ، لذلك نصح عقلاء مدينة السويس محافظ المدينة بالاستسلام ، ومخالفة أوامر وزارة الداخلية حقنا للدماء والابقاء على أرواح السكان . واضطر سكان الحى الى اخلاء منازلهم ، ليلا ، حاملين ما استطاعوا حمله من متاعهم وأموالهم .

وفى فجر يوم ٨ من ديسمبر ١٩٥١ هاجمت الدبابات الحى ، ولم تمض بضع ساعات حتى أضحى أطلالا من الخرائب ، وزال نهائيا من عالم الوجود !

(١) [illegible]

وهكذا أحرز الجنرال المغـوار ! نصرا مؤزرا على القرية الوادعة ، وعلى أهلهـا العزل من السلاح ، سيبقى على الدوام وصمة عار فى جبين انجلترة وبقعة سوداء فى تاريخ الاحتلال والاستعمار » •

معركة محافظة الاسماعيلية :

كانت مدينة الاسماعيلية أوفر مدن القنال حظا فى خوض أكبر عدد من معارك الجلاء ، وحمل العبء الاكبر فى النضال ضد الانجليز ، بحكم موقعها فى قلب قيادة جيش الاحتلال ، ووسط منطقة القناة • لذلك لم يفتأ جيش الاحتلال منذ اعلان الحكومة المصرية الغاء معاهدة ١٩٣٦ فى ٨ من اكتوبر عام ١٩٥١ يتحرش بشعب الاسماعيلية ، ويتحدى سلطات الامن فيها ، ويعتدى على ثكناتها بغير ما ســـبب ، اللهم الا استعراض عضلاته وبث الرعب والخوف فى نفوس المصريين ، حتى كان يوم ٢٥ من يناير عام ١٩٥٢ حيث نشبت أفظع معركة بين جيش الاحتلال وبين الشعب المصرى، سجلت رقما قياسيا فى سلسلة جرائم الانجليز ، وأضافت صفحة قاتمة فى سجل الاستعمار الاسود فى مصر •

وتفصيل أسباب المعركة : انه فى مساء يوم ٢٤ من يناير عام ١٩٥٢، وفى جنح الظلام ، احتشدت قوات ضـــخمة من جنود الاحتلال ، تؤيدها الدبابات والمصفحات ومدافع الميدان ، وطوقت مبنى محافظة الاسماعيلية وثكنات بلوكات النظام ، فدلت هذه الحركة المفـــاجئة على أن الانجليز يبيتون أمرا ، ويدبرون مؤامراتهم الغادرة ••

فلما تنفس الصباح بعث البريجادير أكسهام قائد القوات البريطانية بالاسماعيلية ، انذارا الى قائد بلوكات النظام ، يطلب فيه تسليم أسلحة جميع قوات البوليس فى الاسماعيلية ، وجلاءهم عن ثكناتهم ، مجردين من السلاح ، فى الساعة السادسة والربع من صباح ذلك اليوم ، ورحيلهم عن منطقة القناة ! فلم يسع القائد المصرى وضباطه وجنوده الا رفض هذا الانذار الوقح بكل ازدراء فعاود القائد الانجليزى انذاره ، مهددا بنسف الثكنات ودار المحافظة ، ان لم تسلم الاسلحة فورا • فأصر القائد المصرى على الرفض بكل شمم واباء •

عندئذ أخذت المدافع الثقيلة والدبابات تمطر الثكنات بوابل من قنابلها المهلكة ، فما كان من الجنود المصريين الا أن قابلوا الضرب بمثله ، وظلوا يدافعون دفاعا مجيدا ، تحدث به الاحرار فى جميع أنحـاء العالم

المتمدين ، استمر مدة ساعتين ، حتى نفدت آخر طلقة لديهم • كذلك استمات الجنود بمبنى المحافظة فى الدفاع والمقاومة • فلما رأى الانجليز شدة مقاومتهم ، أنذروهم بالاستسلام ، والا هدموا مبنى المحافظة على من فيها• فأبوا أن يستسلموا، وصرح القائد المصرى بأن الانجليز لن يتسلموا منهم الا جثثا هامدة • وقد ظلوا يدافعون بشجاعة وحماسة منقطعتى النظير ، حتى نفدت آخر طلقة لديهم .

كان التفاوت بين القوتين كبيرا ، فقد بلغ عدد الجنود الانجليز فى هذه المعركة سبعة آلاف جندى ، على حين لم يزد عدد جنود بلوكات النظام على ثمانمائة ، وجنود المحافظة على ثمانين جنديا • وكان الجنود الانجليز مزودين بالدبابات والمدافع الثقيلة ، والرشاشات والمصفحات ، فى حين لم تتعد أسلحة الجنود المصريين البنادق العادية • ومع هذا التفاوت الخطير بين القوتين فقد أبى المصريون تسليم أسلحتهم ، ودافعوا عن شرفهم العسكرى دفاع الشجعان الابطال ، حتى استشهد منهم فى ساحة الشرف والمجد كثيرون ، مما جعل القائد البريطانى يحنى رأسه احتراما لهم ، وتقديرا لبطولتهم •

وقد استشهد فى هذه المعركة من الجنود المصريين خمسون جنديا ، وجرح ثمانون ، وأسر الباقون(١) ولم يفرج عنهم الا فى شهر فبراير عام ١٩٥٢ •

وأما الانجليز فقد قدروا خسائرهم بثلاثة عشر قتيلا ، واثنى عشر جريحا • ولكن الحقيقة كانت أكثر من ذلك •

معركة التل الكبير

وهذه احدى المعارك المكشوفة ، التى حارب فيها الفدائيون المصريون الانجليز وجها لوجه ، وأثبتوا فيها بطولة وشجاعة نادرة ، وكشفوا عن قدرة ومهارة فائقة ، وبرهنوا على انهم مع قلة عددهم وعددهم ، يستطيعون أن يكونوا مصدر اقلاق وفزع لجيش الاحتلال الضخم ، مهما عظمت قوته ، وتكاملت أسلحته وعتاده .

بدات هذه المعركة عندما نمى الى الفدائيين أن قطارا محملا بالجنود والذخيرة ، قادم لضرب مدينة التل الكبير ، فى صباح ١٢ من يناير عام

---

(١) المصدر السابق ص ٩٤ •

١٩٥٢ • فكمن الفدائيون لهذا القطار على مقربة من معسكر التل الكبير لنسفه ، وبثوا له الالغــام حتى اذا ما اقترب من هذا المكان ، انفجرت الالغام ، واقتلعت القضبان ، وتوقف القطار عن المسير •

فلما دوى صوت الانفجــار ، هرعت قوات ضخمة من المعسكر ، وأرادت عبور الكوبرى المقام على ترعة الاسماعيلية ، فأسرع أحد الفدائيين، وسبح فى الترعة تحت وابل الرصاص ، وتمكن من فتح الكوبرى • فتعذر على الانجليز عبوره ، وعسكروا على الشاطىء الغربى للترعة ، فى مواجهة الفدائيين ، الذين وقفوا على شاطىء الترعة الشرقى ، وقد خفت لمؤازرتهم قــوة من بلوكات النظام بمديرية الشرقية • وقد ظل الفريقان يتبادلان اطلاق النيران ، حتى الخامسة من مساء ذلك اليوم ، حين أصدر الجنرال أرسكين أمرا بوقف اطلاق النار ، بعد اتصالات بينه وبين مدير الشرقية• وكانوا قد تمكنوا فى أثناء هذه المعركة من عبور ترعة الاسماعيلية ، فى قوارب من المطاط ، وأطلقوا نيران مدافعهم وقنــابلهم الحارقة على المدينة والقرى المجاورة ، فأحرقوا كثيرا من المنازل، وقتلوا خلقا كثيرا، واستشهد فى هذا اليوم سبعة من الفدائيين •.

وفى اليوم التالى عاود الانجليز هجومهم على التل الكبير ، مستخدمين الكبارى المتحركة ، لعبور ترعة الاسماعيلية • وحاصروا التل الكبير ، وأبا حماد ، والقرى المجاورة ، وأعملوا فيهــا الهدم والتخريب ، وقتلوا من عثروا عليهم من الرجال والنساء والاطفال ، وارتكبوا من الفظائع والاعمال الوحشية مالا يمكن أن يتناساه المصريون ، أو تغفره الانسانية للانجليز المستعمرين •

ومن أفظع ما ارتكبه الانجليز فى هذه الموقعة ، أسرهم سبعة من الفدائيين(١) ، وصلبهم على جذوع الاشجار، ودفع الكلاب المتوحشة لنهش أجسامهم ، كل ذلك لكى يعترفوا على زملائهم • فلما أبوا أن يفعلوا ذلك ، أعدموهم رميا بالرصاص ، منتهكين قوانين الحرب وتقاليدها ، غير مراعين أصول الشرف أو الذمة •

ولقد تحدثت الصحف الانجليزيــة عن هذه الموقعة ، واضطرت الى التنويه بمقدرة الفدائيين وحماستهم ، وشـــجاعتهم وأحكامهم الرماية ،

---

(١) المصدر السابق ص ٨٦ •

ومهارتهم فى القتال ، وصمودهم لثلاث فرق ممتـــازة من فرق الجيش البريطانى ..

وفى الواقع قد تحددت فى هذه الموقعة النهـــاية المحتومة للاحتلال الانجليزى فى مصر ، اذ أن حقد المصريين على فظـــائع الانجليز قد بلغ ذروته ، وجذوة الحماســـة لاجلائهم وطردهم قد اشتعلت ، ولن يمكن اخمادها ، وأن الشباب المتعلمين قد شمروا عن ساعد الجهاد ، وعقدوا العزم على التضحية وبذل الارواح ، والدماء رخيصة فى سبيل انقاذ الوطن من ربقة الاستعمار والاستغلال ..

(٢٦)

ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢
ونهاية الاحتلال

امتازت ثورة ٢٣ يوليو عن سابقاتها ، وخصوصا ثورة ١٩١٩، بانها جاءت نتيجة تجارب مريرة ، ودروس اليمة ، ووعى ودراسة ، وتشخيص دقيق للعلل التى كانت تنتاب جسم الامة ، وادراك سليم لطرق علاجها وابرائها من تلك العلل ٠

المبادىء الستة :

وبمجرد أن قامت الثورة أعلنت أهدافها فى المبادىء الستة المعروفة ، وهى :

أولا : القضاء على الاستعمار وأعوانه ٠
ثانيا : القضاء على الاقطاع
ثالثا : القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم ٠
رابعا : اقامة جيش وطنى قوى ٠
خامسا : اقامة عدالة اجتماعية ٠
سادسا : اقامة حياة ديموقراطية سليمة ٠٠

فانت ترى أن القضـــاء على الاستعمار واعوانه ، قد توج الاهداف الستة ، واحتل الصدارة والمكان الاول منها ٠ ولم يكن فى ذلك أية غرابة، فقد أثبتت التجارب الماضية الا تقدم أو ازدهار ، أو تنمية فى أية ناحية من نواحى الحياة المصرية ، مادام الاستعمار رابضا فوق أرض الوطن ، يحجب عنه بيديه الاثيمتين الضياء والنور ، ويقف حائلا دون تقدمه وازدهاره ، ويضرب عليه ســـياجا كثيفـا من الفقر والجهل والمرض ٠٠

والثورة كما هو معلوم «تغيير أساسى وعميق فى حياة الشعب فى اتجاه آماله الانسانية الواسعة » (١) • فكيف يمكن تحقيق هذه الآمال الواسعة ، ما لم يحطم هذا الصنم العتيد الابد ولذا وضعت الثورة القضاء على الاستعمار فى راس أهدافها ، كما ذكرنا ، حتى تتضح الرؤيا الى أبعاد المستقبل المرتجى ، والاصلاح المنشود •

ورأينا فيما تقدم من أبواب هذا الكتاب كيف كان فؤاد السلطان يكيد لثورة ١٩ ، مستندا الى حراب الانجليز ، خوفا على ملكه ، وحرصا على رضاهم ، اعترافا بفضلهم عليه • وكيف أن فؤادا الملك « أراد أن يستأثر لنفسه بكل المزايا التى نالتها الامة من جهادها ، وتحركت فى نفسه نزعة الحكم المطلق ، التى عرف بها أسلافه ، ومن هنا جاءت مناوأته لحقوق الامة الدستورية ، وظل متجهما لها طوال حياته » (٢) •

ورأينا كيف ان المستغلين والاقطاعيين قد حولوا ثورة ١٩ عن طريقها الاصلى الى مصلحتهم ، خوفا على أموالهم وأراضيهم ، ولذلك لم يتورعوا أن يمالئوا الجالس على عرش مصر أحيانا ، ويمالئوا الانجليز المحتلين احيانا كثيرة أخرى ، تحقيقا لمصالحهم غير المشروعة •

ورأينا أيضا ماذا فعله المحتلون بالجيش ، حتى أحالوه الى شبح لا يقوى على الوقوف على قدميه ، ولا يستطيع دفع الضرر والمهانة عن الوطن المفدى •

وهنا كان لا بد من أن يسبق طرد الانجليز واجلاءهم عن البلاد خطوات جدية ، تحتاج الى جهد وعمل متواصلين •

فاروق :

لذلك بدأت الثورة فى « ٢٦ من يوليو عام ١٩٥٢ » بعزل فاروق وطرده من البلاد نهائيا ، بعد أن أذله الانجليز فاذل هو الشعب بدوره ، واضحى قلعة من قلاع الفساد والطغيان فى البلاد ، وسندا للانجليز يستخدمونه عند اللزوم ، كما كانت الحال مع اسلافه • هذا بالاضافة الى اساءته الى سمعة الوطن فى الخارج ، بحيث صارت مصر فى أواخر عهده مضغة فى أفواه العالم !

---

(١) الميثاق ص ٣ •

(٢) ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ٨٦ •

الاصلاح الزراعى :

ثم ثنت بضرب الاقطاع فى الصميم ، فأصدرت فى ٩ من سبتمبر عام ١٩٥٢ أول قوانين الاصـــلاح الزراعى ، التى قلمت اظافر الاقطاعيين ، وخفضت من غلوائهم ، وسلبتهم كل سيطرة ونفوذ ٠

الاحزاب :

واتبعت هذه الضربة بضربة أخرى محكمة ، خلصت البلاد من الحزبية المقوتة ، وانقسام الشعب الى نحل وشيع ، والتسابق على كراسى الحكم ، واقتناص المصـــالح الخاصة ، وايثـــارها على مصلحة الوطن ، والتلاعب بحريته وأقداره ، والخضوع لارادة المستعمر ، ثم مجاراة فاروق فى أطماعه وطغيانه ، استمساكا بكراسى الوزارة ، وتحقيقا للمنـــافع الذاتية ، فأصدرت فى ١٦ من يناير عام ١٩٥٣ قرارا بحـل الاحزاب ، ومصادرة جميع أموالها لصالح الشعب ٠

اعلان الجمهورية :

وأثبتت الظروف أن طرد فاروق لم يحسم الامر بالنسبة لمظـــالم أسرته ، وتلاعب الملكية باقدار هذا الشعب، وحرمانه ثمرة جهوده، وفرض الذلة والمسكنة عليه ٠ لذلك كان لا بد من اقتلاع هذه الشجرة الخبيثة من جذورها واعادة الحقوق الى الشـــعب كاملة ليكون هو وحده مصدر السلطات ٠ لذلك أنهت الثورة حكم أسرة محمد على فى ١٧ من يونية عام ١٩٥٣ ، وأعلنت الجمهورية ٠ وفى ٨ من نوفمبر أصدرت قرارا بمصادرة أموال تلك الأسرة ، وردها الى الشعب ، بعد تقرير معاشات لأفرادها ، والغاء ألقاب الامارة ٠

« ان الشعب المصرى فى نضاله ضد الاستعمار ، استطاع أن يشمل فاعليـــات طبقات من المجتمع القديم ، كانت قادرة على خداعه بالتظاهر باشتراكها معه فى حرب الاستعمار ، على حين أنها فى الواقع متصلة فى مصالحها به » ٠

« ان حرب التحرير التى كان يمكن بالمفهوم التقليدى أن تحتاج الى وحدة جميع الطبقات فى الوطن ، حققت انتصارها فى الواقع ، حين حمت نفسها من أى ضربة خائنة فى الظهر » ٠٠

«ان الشعب المصرى خاض معركة التحرير ضد الاستعمار ، ولم تخدعه

المظاهر ، وحرص طوال المعركة على أن يعزل عن صفوفه كل الذين ترتبط مع الاستعمار مصالحهم ، فى مواصلة الاستغلال • » (١)

الجيش الوطنى :

ولم تغفل الثورة فى أثناء كل ذلك ، أن تعد العدة لليوم الحاسم ، الذى يقف فيه الشعب وجها لوجه مع قوى الاحتلال الغاشم ، وأن تضع الخطط التى تحيل منطقة القناة وما يحيط بهــا من أراض ، الى جحيم لاتطيق جيوش الاحتلال البقاء فيه ، وسعير تتلظى بنيرانه ، لا يهنأ لهــا فيه بال ، ولا يطيب لها فيه مقام •

ففى ٢٥ من اكتوبر عــام ١٩٥٣ ، صدر قانــون بانشاء الحرس الوطنى ، قصد بث الروح العسكرية بين جميع أفراد الشعب ، وتدريبه على فنون الحرب والدفاع المدنى ، ومعاونة الجيش الاساسى فى الذود عن البلاد ، وقت الخطر • فهو والحــالة هذه يعد بمثــابة احتياطى للقوة الضاربة ••

الجلاء اهم الاهداف :

وقد حرصت الثورة على أن تعلن على الملأ ، وفى كل مناسبة ، بعد أن رسخت قدمها ، وتأصلت جذورها ، ان أهم أهدافها هو الجلاء الناجز، الذى لا يقيده أى شرط ، ولا يربط مصر بأية أحلاف ، ولا يجرها الى أى دفاع مشترك • فمن تصريحات الرئيس جمال عبد الناصر الكثيرة ، فى هذا الصدد ، ما يلى :

« فى ١٧ من مارس عام ١٩٥٣ ، صرح ســيادته لمدير وكالة الانباء المصرية بقوله :

« اننا نريد جلاء ناجزا كاملا غير مشروط » ••

وفى ٢٣ من فبراير عام ١٩٥٣ القى فى حفل افتتــاح مركز هيئة التحرير بشبين الكوم خطابا قال فيه :

« الشعوب التى تساوم على حريتها توقع وثيقة عبوديتها » ••

وفى ٢٣ من مايو عام ١٩٥٣ صرح بقوله :

---

(١) الميثاق ص ٨ •

« ان الذين لا نريدهم فى بلادنا هم جنود الاحتلال الانجليزى وحدهم، دون غيرهم ، أما الأجانب جميعا حتى الرعايا البريطانيين المدنيين ، من أفراد الجالية البريطانية ، فهم فى حماية مصر » ..

وفى الأول من يناير عام ١٩٥٤ القى الرئيس جمال عبد الناصر خطابا وطنيا فى طنطا قال فيه :

« ان الاستعمار لن يخرج بالكلام ، ولكن بالقوة » .

معارك الجلاء :

لقد كانت معارك الجلاء التى خاضها الفدائيون ، عامى ٥١ ، ٥٢ لا تؤيدها الحكومة ، ولا تجد منها أى تشجيع ، بل وجدت على العكس من ذلك كل عنت ومضايقة ، ومع ذلك فكما سبق أن ذكرنا استطاع هؤلاء الأبطال أن يقضوا مضاجع المحتلين ، ويقلقوا بالهم ، وينشروا الاضطراب والخوف بين صفوف الجنود .

ولكن اليوم وقد انضم الشعب الى الجيش ، وأصبح الجميع صفا واحدا ضد الاستعمار ، فان الموقف قد تغير تغيرا كاملا ، وأصبح على الانجليز أن يفكروا مرة وألف مرة فى مستقبل قواتهم فى مصر ، وأنه لم يعد مجال بعد الآن للتباهى بالقوة والجبروت ، بل ان الأمر يتطلب كثيرا من العقل والتروى . وماذا يجدى ثمانون ألف جندى ، يواجهون شعبا بأسره وطد العزم على الثأر لشرفه المثلوم ، وحريته المهدرة ، وكرامته التى وطئها المحتلون بالأقدام ؟

وقد كان بوسع الاستعمار أن يتدخل للحيلولة دون عزل فاروق أو طرده ، كما تذرع الانجليز لاحتلال مصر بحماية عرش الخديو توفيق ، ولكنهم لم يفعلوا لأن مصر أعلنت بادىء ذى بدء أن عزل فاروق مسألة من صميم شئونها ، ولا يحق لأية دولة أن تتدخل فيها ، فأمنت الدول وفى مقدمتها انجلترة على هذا التصريح ، لا لشىء سوى أنها أيقنت ان الثورة تعنى ما تقول وأن الشعب من ورائها فى كل ماتفعل أو تقول .

ولكن الاستعمار كما سبق أن ذكرنا جبان ورعديد ، أسد على الضعفاء ، ونعامة أمام الاقوياء ، يطاطىء الرأس أمام القوة ، ويحنى هامته للشجاع الجسور . لذلك أخذ المستعمرون الانجليز يستعيدون عقولهم ، ويحسبون للغد القريب كل حساب ، وأيقنوا أن لا مناص من الجلاء ، الجلاء الذى لم يكن المستر بيفن ليطيق سماع اسمه ، ولكنهم يسمعونها الآن

مدوية ، وليست مقرونة بشروط • وفى عهد أى وزارة ؟ فى عهد وزارة المحافظين ، التى تضم غلاة المستعمرين ، وعلى رأسهم ونستون تشرشل ، وأنطونى ايدن • فيالسخرية القدر ، وما أعظم قدرة الله العلى القهار !

أعدت اذن الثورة لكل شيء عدته ، ونظمت الجهاد ، وأحكمت خططه • فتوالت الهجمات على جيش الاحتلال فى القناة طوال عام ١٩٥٣ ، وأغلب عام ١٩٥٤ : فجنـــود يختفون ، وآخرون يقتلون ، وضـــباط يقتلون ، وتخريب واسع النطاق يحدث فى المعسكرات ، مما دعا السفير البريطانى أن يتقدم بالاحتجـــاج الى الحكومة المصرية عام ١٩٥٤ ، ووكيل وزارة الخارجية البريطانية أن يعلن فى مجلس العموم البريطانى ، فى مايو عام ١٩٥٤ أنباء وقوع ٥٢ اعتداء على الرعايا البريطانيين ، فى منطقة القناة ، فى غضون الأسابيع الستة الماضية •

وكانت انجلترة من جانبها لا تكف عن التهديد والوعيد ، وتحاول جهدها للايقاع بالثـورة ، وتتصل فى الخفاء ببعض العنـــاصر المناوئة ، والاحزاب المنحلة ، لعلهـا تستطيع احداث تفكك فى الجبهة الداخلية ، واسقاط حكومة الثورة ، لتجد منفذا للتدخل ، واستعادة نفوذها ، وفرض سيطرتها • ولكن ذهبت مساعيها أدراج الرياح ، وتمكنت الثورة من الضرب على أيدى العابثين ، وتقديمهم للمحاكمة ، والقضاء على الفتنة • فخرجت الثورة من كل هذه المحن قوية سليمة ، متماسكة ، وأفلتت من أيدى الانجليز الفرصة المنشودة •

مباحثات الجلاء (١) :

فى هذا الجـــو الرهيب ، بدأت المباحثات للجـــلاء بين الجانبين ، الانجليزى والمصرى ، وعقد أول اجتماع لهـــذا الغرض ، فى دار مجلس الوزراء ، يوم ٢٧ من ابريل عام ١٩٥٣ ، وتابعـــوا طريقتهم فى اللف والدروان ، مما أدى بالجانب المصرى الى الكف عن الاستمرار فى المحادثات فى شهر مايو عـــام ١٩٥٣ • فتابعت انجلترة تهديداتها ، وأوعزت الى رعاياها بالرحيل عن البلاد ، لكى توهم الحكومة المصرية بأن حربا طاحنة ستدور رحاها عما قريب ، فى مصر • ولكن هذه التهديدات ذهبت صرخة فى واد ،وتابعت مصر استعداداتها لكل احتمال • وفى ٢٢ من مارس عام

---

(١) انظر محاضر مفاوضات الجلاء ، بكتاب القضية المصرية ص ٧٠٤ ـ ٧٧٤ •

١٩٥٤ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تصريحا من تصريحاته السديدة جاء فيه :

« ان الشعب المصرى مستعد الآن لمواجهة الانجليز فى القناة ، ولكن الحكومة لا تعارض اجراء مفاوضات للجلاء فى مصر » وكان ايدن قد أعلن فى ٢ من مارس عام ١٩٥٤ عن رغبة الحكومة البريطانية فى استئناف المباحثات مع مصر ٠

ولكن مصر ردت فى ٢٤ من مارس بأن المفاوضات لن تستأنف الا على أساس التسليم بحقوق مصر ٠

لم يكن أمام انجلترة سوى طريقين اثنين لحل الأزمة القائمة بينها وبين الشعب المصرى ، لا ثالث لهما :

اما أن تخوض حربا طاحنة بينها وبين الشعب المصرى بجميع طبقاته وكل مقدراته ، واما أن تستسلم وتغادر البلاد ، راضية من الغنيمة بالاياب، مؤثرة الستر والسلامة ٠ وعلى أساس الاحتمال الأخير طلبت استئناف المفاوضات ٠

اتفاقية الجلاء الأولى :

وبناء على ذلك استؤنفت المباحثات فى يولية عام ١٩٥٤ ، وانتهى الطرفان الى عقد الاتفاقية الأولى ، التى تضمنت المبادىء الرئيسية للاتفاق النهائى (١) ، المقترح اعداده لتنظيم الجلاء ٠ ووقعها الطرفان فى ٢٧ من يولية عام ١٩٥٤ ، بقاعة الاجتماعات بدار مجلس الوزراء ٠

اتفاقية الجلاء النهائية :

وفى ١٩ من أكتوبر عام ١٩٥٤ ، عقد الاتفاق النهائى التفصيلى بتنظيم عملية الجـــلاء (٢) ٠ وقد تم التوقيع عليه فى البهو الفرعونى ، بمبنى البرلمان ، ووقعه عن مصر : جمال عبد الناصر رئيس الوزراء ، وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادى وصلاح سالم ومحمود فوزى ٠

ووقعه عن الحكومة البريطانية أنطونى ناتنج وزير الدولة بوزارة

---

(١) انظر هذه المبادىء بكتاب القضية المصرية ص ٧٧٥ ـ ٧٧٧ ٠

(٢) انظر الاتفاق النهائى التفصيلى ، والملاحق المتصلة به بالمصدر السابق ص ٧٨٢ ـ ٨٥٤٠

الخارجية البريطانية ، ورالف ستيفنسون السفير البريطانى وميجر جنرال بنسون كبير المفاوضين العسكريين البريطانيين •

وبهذا الاتفاق تحققت « نبوءة » الرئيس جمال عبد الناصر ، التى جاءت فى خطابه الذى القاه فى المنوفية فى ٢٢ من فبراير عام ١٩٥٢ حيث قال :

« ان الشعوب التى تساوم المستعمر على حريتها ، توقع فى الوقت نفسه وثيقة عبوديتها ، لذلك فان أول أهدافنا هو الجلاء بدون قيد ولا شرط • اننا نعلنها عالية مدوية • يجب أن يحمل الاحتلال عصاه على كاهله ويرحل • أو يقاتل حتى الموت دفاعا عن وجوده » •

وجدير بالخير أن ترجح كفته فى النهاية على الشر ، وان يحرز شعب مظلوم مسالم الغلبة والنصر على جحافل الاستعمار الغاشم • ذلك الاستعمار الذى كان يختلق التعللات والمعاذير لاعتداءاته المتكررة ، أصبح اليوم ينتحل الأعذار لفشله وهزيمته ، فينزل أنطونى ايدن عن كبريائه وصلفه فيقول :

« ان الجلاء عن قاعدة قناة السويس أفضل بكثير من الابقاء على ثمانين الف جندى ، محاصرين من شعب معاد لهم » ياسبحان الله •

« ومكروا ، ومكر الله ، والله خير الماكرين » صدق الله العظيم •

بشرى الجلاء :

وزف بطل الجلاء ، جمال عبد الناصر ، بشرى الجلاء الى مواطنيه فى ٢٧ من يوليه عام ١٩٥٤ فى بيان يفيض حمدا لله ، وثقة به ، واعتزازا بالوطن والمواطنين قال فيه :

أيها المواطنون :

« اننا نعيش الآن لحظة مجيدة فى تاريخ وطننا ، اننا نقف الآن على عتبة مرحلة حاسمة ، من مراحل كفاح شعبنا • لقد وضع الهدف الأكبر من أهداف الثورة ، منذ هذه اللحظة ، موضع التنفيذ الفعلى ، فقد وقعنا الآن بالأحرف الاولى ، اتفاقا ينهى الاحتلال ، وينظم عملية جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر الخالدة وبذلك تخلص أرض الوطن لأبنائه ، شريفة عزيزة منيعة ، بعد أن قاست اثنين وسبعين عاما مريرة حزينة » •

« أيها المواطنون :

« اننى أسرح بخواطرى فى هذه اللحظة المجيدة ، عبر أسوار الحياة

الى الذين جاهدوا من أجل هذا اليوم ، ولم يمتد بهم العمر ليعيشوه ، أسرح بخواطرى الى الرحبات المقدسة التى تعيش فيها أرواحهم الخالدة ، ونشعر أنهم يتابعون كل ما فعلنا ، كما تابعنا نحن كل ما فعلوا ، وحملنا الأمانة بعدهم ، ورفعنا المشاعل على الطريق ، اننى أتجه اليهم بقلب شعب وأتجه اليهم بوفاء جيل ، اليهم جميعا : الزعماء الذين كافحوا ، احمد عرابى ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، والشباب الذين باعوا أرواحهم للفداء ، على كل بقعـــة من ثرى الوطن أتجه اليهم بقلب شعب ، وبوفاء جيل ، وأقول لهم : «سوف نمضى على الطريق . لن نضعف ، ولن نتخاذل ، ولن ننسى الأمانة التى حملناهـــا ، ولا الواجب الوطنى الذى عاهدنا الله على أن نقوم به » .

ايها المواطنـــون :

« كان القدر أعد هذا اليوم للمجد . انه فى نهاية هذا الشهر – يوليو – يوافق الأيام التى بدأ فيها الاحتلال منذ اثنتين وسبعين سنة ، انه فى نهاية هذا الشهر – يوليو – بل وفى اليوم نفسه منه بالذات ، يوافق اليوم الذى خرج فيه فاروق مخلوعا عن عرش مصر ، يحمل معه حطام الذل والاقطاع والفساد » ...

ايها المواطنـــون :

« ان اليوم أيضا يحمل بشائر المجد للمستقبل ، فبعد مدة العشرين شهرا المحدودة لاتمام الجلاء عن مصر ، ستكون فترة الانتقال فى جنوبى الوادى قد انتهت ، ويكون الجلاء قد تم أيضا عن السودان الحبيب ، وبذلك يصبح وادى النيل كله ، وليس على ضفافه الا ابناء النيل الاحرار »

ايها المواطنـــون :

« فلنصل شكرا لله ، ولنتوجه اليه فى جلاله القدسى ، نسأله أن يسدد خطانا ، وأن يرعى ثورتنا ، وأن يبارك لنا فى يومنا وفى غدنا ، والله ولى التوفيق »

أهم نصوص اتفاقية الجلاء :

وهاك أهم نصوص اتفاقية الجلاء : (١)

---

(١) انظر نص اتفاقية الجلاء بكتاب القضية المصرية ص ٧٧٨ – ٧٨١ والملاحق الملحقة بها فى المصدر نفسه ص ٧٨٢ – ٨٥٤ .

أولا : جلاء القوات البريطانية جلاء تاما ، خلال فترةعشرين شهرا من تاريخ التوقيع على هذه الاتفاقية ٠

ثانيا : انتهاء معاهدة التحالف الموقع عليها فى لندن فى ٢٦ من اغسطس عام ١٩٣٦ ، والاتفاق الخاص بالاعفاءات والميزات التى كانت تتمتع بها القوات البريطانية فى مصر ، وجميع ما تفرع عنها من اتفاقات أخرى ٠

ثالثا : تبقى أجزاء من القاعدة التى كانت للانجليز فى قناة السويس ، فى حالة صالحة للاستعمال ، وفى حالة وقوع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أى بلد يكون طرفا فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية ، أو على تركيا ، تقدم مصر لبريطانيا من التسهيلات ما قد يكون لازما ، لتهيئة القاعدة للحرب وادارتها ٠ ويجرى التشاور فورا بين مصر وبريطانيا ٠

رابعا : تعرب الحكومتان عن تصميمهما على احترام الاتفاقية التى تكفل حرية الملاحة فى قناة السويس ، الموقع عليها فى الاستانة فى ٢٩ من اكتوبر عام ١٨٨٨ ٠

خامسا : لايمس هذا الاتفاق ، ولا يجوز تفسيره على أنه يمس بأية حال، حقوق الطرفين والتزاماتهما ، بمقتضى ميثاق الامم المتحدة ٠

سادسا : مدة هذا الاتفاق سبع سنوات من تاريخ توقيعه ، وعلى بريطانيا أن تتصرف فيما قد يتبقى لها وقتئذ من ممتلكات فى القاعدة مالم تتفق الحكومتان على مد هذا الاتفاق ٠

اتمام الجلاء :

وقد تم الجلاء فى المواعيد المتفق عليها ، وأحيانا قبل موعدها ، وجلاء الانجليز عن آخر معقل كانوا يحتلونه فى بورسعيد ، وهو مبنى البحرية ، وتسلمه الجيش المصرى فى صباح يوم ١٣ من يونية عام ١٩٥٦ ، وبذلك تحررت البلاد من آخر قوة للاحتلال الأجنبى البغيض ٠

وفى ١٨ من يونية عام ١٩٥٦ رفع جمال عبد الناصر العلم المصرى على مبنى البحرية فى بور سعيد ، ولذلك فقد اتخذ هذا اليوم ، يوم ١٨ من يونية ، عيدا للجلاء ، وهو أيضا عيد الجمهورية ، اذ أنها أعلنت فى ١٨ من يونية عام ١٩٥٣ ٠

اتفاقية الجلاء تصبح أبدية وبلا قيد ولا شرط :

وقد سقط النص على حق العودة ، واستخدام قاعدة القنـــاة ، نهائيا ، باعلان انهاء الاتفاقية بالنسبة لهذين الأمرين عام ١٩٥٧ ، بعد الاعتداء الثلاثي على مصر • كما استولت مصر على القاعدة نفسها ، وعلى كل ماتحتوى من عدد وأدوات ومعدات وأسلحة ، تعويضا لها عما لحقها من أضرار من جراء هذا الاعتداء ، الذى دبرته انجلتره بليل ، وكانت شريكا أصليا فيه ، ومنفذا لخططه وتدبيراته ، وكما يقول المثل السائر : (رب ضارة نافعة) ، (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله) ، (وما ربك بظلام للعبيد) ، صدق الله العظيم •

(٢٧)

الاعتداء الثلاثى الغاشم على مصر

فى يوم ٢٩ من اكتوبر عام ١٩٥٦ وهو اليوم الذى حدده « داج همرشلد » السكرتير العام للأمم المتحدة ، لاجراء مفاوضات مباشرة فى مدينة جنيف بسويسرة ، بين مصر وفرنسا وانجلترة ، للوصول الى حل سلمى لمشكلة تاميم شركة قناة السويس ، بناء على قرار الأمم المتحدة ، أقول فى هذا اليوم ، بدل أن يلتقى المندوبون الانجليز والفرنسيون ، مع المندوبين المصريين فى جنيف للتفاوض ، هجمت الجيوش الانجليزية والفرنسية والاسرائيلية على مصر لغزوها، واستباحة أراضيها، والاستيلاء على قناة السويس بالغدر والخديعة وقوة السلاح .

ومعنى هذا أن تظاهر كل من انجلترة وفرنسا بقبول دعوة همرشلد للمفاوضات السلمية ، انما كان من قبيل التمويه والتضليل ، اذ الواقع أن الاستعدادات الحربية لغزو مصر ، كانت قائمة على قدم وساق ، طوال شهرى أغسطس وسبتمبر ، والاجتماعات السرية بين ممثلى اسرائيل وانجلترة وفرنسا لوضع خطط الغزو ، كانت تجرى فى منتهى الكتمان فى تل أبيب ولندن وباريس ، مما يقطع بأن النية كانت مبيتة بين انجلترة وفرنسا وذيلهما اسرائيل على القيام بهذا الاعتداء الغادر . وقد تحدد لتنفيذه يوم ٢٩ من أكتوبر ، وهو اليوم المحدد للمفاوضات كما أسلفنا ، امعانا فى المراوغة والخداع .

وان المرء ليعجب كيف تسلك دولتان من كبريات دول العالم هذا المسلك الشائن ، الذى يتسم بالخسة والدناءة ، والذى كان يتمشى مع شريعة الغاب ، التى سادت عهود القرصنة الخالية ، ولا يتلاءم مع عصر جمعية الأمم المتحدة ، وعهد ميثاق سان فرنسسكو ، الذى نادت به

الدولتان المعتديتان وعملتا له ، وادعتا الالتزام به فى علاقتهما بغيرهما من دول العالم ·

ولكن هو الاستعمار الذى يسد على الدول المستعمرة منافذ التفكير السليم ، ويسرى فى أجسامها سريان الدم فى العروق ، ويحيلهـا الى حيوانات كاسرة ، وذئاب مسعورة ، وقراصنة سفاحين ، لا يسـتطيعون التخلص من قبضته أو التحرر من أسره ·

وسبق لنا ان ذكرنا أن الاستعمار عندما يرغم على الخروج من بلد ، انما يفعل ذلك أملا فى العودة اليه ، وهو كما قلنا يخرج من الباب ، لكى يعود ثانية من الشباك ! وها هو ذا اليوم ، ولما ينقض على خروجه من مصر سوى أربعة شهور ــ فقد غادرها فى ١٣ من يونيـة عام ١٩٥٦ ــ يعود الى غزوها فى ٢٩ من أكتوبر من العام نفسه ، مستعينا بزميلته الاستعمارية فرنسا ، مستخدما مطية ذلولا ، ومخلب قط ، هى اسرائيل· ويجمع بين الثلاث حقد أسود نحو مصر ، وسخائم دفينة ، وغيرة وحسد لتصرفها فى شئونها تصرف الدول المستقلة ، ذات السيادة ، وممارستها حقوقها الشرعية ، وكسرها احتكار السلاح ، وانشائها جيشا قويا يحمى الذمار ، ويرد كيد المعتدين ، وافلاتها من الحصار الاقتصادى ، وتدبيرها شئونها الاقتصادية فى حكمة وسداد ، وانتهاجها سياسة مستقلة محايدة، نابعة من صميم وجودها ، ورفضها السير فى ركاب الغرب ، أو الارتماء فى أحضان الشرق ·

هال الدولتين الباغيتين أن تستعيد مصر ملكية القناة ، التى تجرى فى أرضها ، والتى حفرها المصريون بدمائهم وعرقهم وأموالهم ، ولم يجنوا من وراء حفرها مغنما ، بل كانت مصدر شر وبلاء عليها ، ومنبع ثراء وغنى لغيرها · هالهما أن تؤمم مصر قناتها ، كأنما ارتكبت اثما لا يغتفر على حين أنهما تؤممان ما تشاءان فى بلادهما من مصادر الثروة ، دون أن تلقيا أى اعتراض من الدول الأخرى · فهما تحرمان على غيرهما ما تحللانه لأنفسهما !

هال الدولتين الباغيتين أن تؤمم مصر القناة ، لتفيد من دخلها فى تنفيذ مشروعاتها الحيوية ، التى يقتضيها تقدم البلاد ، وازدهارها ، وفى مقدمتها مشروع السد العالى ، بعد أن وقفت كل من انجلترة والولايات المتحدة حجر عثرة فى سبيل تنفيذه ، وحرضتا البنك الدولى للانشـاء والتعمير على قبض يده عن المساعدة فى انشائه ، والتشهير بمالية مصر ، قصد الاضرار بمركزها الاقتصادى ·

وهالهما أيضا أن تتغلب مصر على مشكلة السلاح ، بعد أن سدت في وجهها الأبواب ، ولكنها نجحت في حصولها على حاجتها منه من بعض دول المعسكر الشرقى ، فى الوقت الذى تغدقان فيه على اسرائيل طوفانا من الأسلحة والعتاد ، لتعتدى على مصر والدول العربية ، على حين تقف مصر أمامها مكتوفة اليدين ٠

وهال فرنسا بصفة خاصة ، أن تؤازر مصر ثوار الجزائر فى نضالهم من أجل حرية بلادهم واستقلالها ، فرأت أن القضاء على ثورة الجزائر لا يكون الا بسحق مصر ، والقضاء على حكم عبد الناصر ٠

لكل ذلك ، ولغير ذلك ، بيتت الدولتان الكبيرتان، انجلترة وفرنسا، النية على الانتقام من مصر ، وغزو أراضيها ، واستباحة كرامة شعبها ، عودة الى القرصنة وشريعة الغاب ، التى انقضى زمانها ، وعفت آثارها ، واصبحت أسلوبا قديما لا يلائم العصر الحاضر ، تستنكرها الشعوب بكل قوتها ، وتدفعها بكل طاقاتها وامكانياتها ٠

ولكن الانجليز الذين عميت أبصارهم ، وتحجرت عقولهم ، لايؤمنون بتطور الفكر البشرى ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ٠ لذلك خيل لهم أن غزو مصر واذلال شعبها ، من اليسر والسهولة بمكان ، بحيث لايستلزم من الجهد والوقت أكثر مما تستلزمه نزهة بحرية ٠ وأن ما تيسر لهم فى عام ١٨٨٢ سيكون أكثر يسرا وسهولة عام ١٩٥٦ ، خصوصا أن فرنسا واسرائيل تقويان من عزيمتها ، وتشدان أزرها فى مواجهة شعوب العالم ، التى ستنحى عليها دون شك باللائمة والسخط ، عندما تتكشف المؤامرة الخبيثة ، وتقف منها موقف المقاومة والمعارضة ٠ ولم تدر أن الزمن قد تغير ، وأن الأفكار قد تطورت ، وأن المركز الكاذب الذى كانت تدعيه فى القرن التاسع عشر ، « والبلطجة » التى كانت تمارسها وتخيف بها الشعوب ، قد امحت ، وأصبحت أثرا بعد عين !

مخطط المؤامرة :

قلنا ان الاستعدادات الحربية ، كانت قائمة على قدم وساق فى شهرى أغسطس وسبتمبر عام ١٩٥٦ ، واتخذت جزيرة قبرص المواجهة لمصر مركزا لتجمع الحشود العسكرية الفرنسية والانجليزية ، واتخذت نيقوسيا عاصمة الجزيرة مقرا للقيادة المشتركة ، واليها كانت تتدفق البوارج الحربية ، والمدرعات وحاملات الطائرات ، وحاملات الجنود ، والجيوش البرية ، وجنود المظلات ٠ وتولى الجنرال تشارلز كيتلى القائد العام للقوات

البريطانية في الشرق الأوسط قيادة الحملة ، بالاشتراك مع الأميرال الفرنسي بييربارجو ، وبلغ عدد الجنود الذين أعدتهم الدولتان المعتديتان مائة وستين ألف مقاتل ، والاسطول الذى أعد للغزو مائة وثلاثين قطعة حربية ، والطائرات أكثر من ألف طائرة مقاتلة ، رابطت في القواعد العسكرية المحدقة بمصر في : ليبيا وفي الأردن ، وفي اسرائيل ، وفي مطار الحبانية بالعراق ، وفي عدن ، وقبرص ، ومالطة ٠

وكان مخطط المؤامرة التي حيكت في الاجتماع السرى ، الذى عقد في ١٦ من أكتوبر عام ١٩٥٦ بباريس ، بين ايدن رئيس وزراء انجلترة وسلوين لويد وزير خارجيتها ، وبين جي موليه رئيس وزراء فرنسا وكريستيان بينو وزير خارجيتها ، أن يبدأ الاسرائيليون هجومهم على مصر في ٢٩ من أكتوبر ١٩٥٦ ، وأن يعرب البريطانيون عن احتجاجهم الشديد – أول الأمر – على الهجوم الاسرائيلي ، وأن يوجهوا إنذارا الى كل من اسرائيل ومصر ، بالابتعاد عن منطقة القناة الى مسافة ١٠ كيلو مترات من الجانبين ٠ ثم تقوم قوات الحلفاء بالتدخل للدفاع عن القناة . كما تم الاتفاق على أن تبدأ عمليات التدخل يوم ٧ من نوفمبر عام ١٩٥٦ ٠

ونظرا الى أن اسرائيل ، بناء على اتفاق ١٦ من أكتوبر ، ستقف بمفردها أمام الجيوش المصرية خمسة أيام على الأقل الى أن يبدأ تدخل انجلترة وفرنسا في المعركة ، فقد خشيت اسرائيل أن يسحق الجيش المصرى القوات الاسرائيلية بطائراته الميج والاليوشن ، ودباباته ومعداته التي استوردها حديثا ٠ لهذا استولى الرعب والفزع على بن جوريون ، فطار بصحبة موشي ديان وشمعون بيريز فجأة الى باريس في ٢٠ من أكتوبر عام ١٩٥٦ ، واجتمعوا بجي موليه في مبنى مجهول في طرف مطار (فيلا كوبليه) ، في باريس ، ووافاهم سلوين لويد وزير خارجية انجلترة ، وقد استطاع بن جوريون أن يظفر من جي موليه وسلوين لويد بتعهد كتابي ، قبل بدئه الهجوم على مصر ، اشترط فيه أن تشترك فرنسا وبريطانيا في تنفيذ الخطة بأكبر عدد ممكن من الطائرات ، بل واشترط أيضا ألا يكتفي حلفاؤه بالدفاع عن أرض اسرائيل ، بل عليهم أن يقوموا بالهجوم الشامل على جميع أنحاء مصر ، وتدمير كل شيء فيها ، وبخاصة المطارات التي سلمتها بريطانيا لمصر ، والمخازن والقواعد العسكرية ، تمهيدا لاسقاط ناصر واحتلال مصر !

ولم يكتف بن جوريون بذلك ، بل طلب الحصول على وعد رسمي من بريطانيا ، بأنها ستدمر مصر ، ولن تشفق على شيء ٠ ولأنه لايستطيع

أن يثق ببريطانيا ، ويخشى ألا تنفذ تعهدها ، تاركة اسرائيل لمصير مظلم ، فانه يريد ضمانات خطية من رئيس الوزراء البريطانى ، أو على الأقل من وزير خارجيته ، فجاء سلوين‌لويد الى باريس ، وأعطى بن‌جوريون الوعد المنشود(١) ٠

وقد اختير يوم ٧ من نوفمبر للتدخل الانجليزى الفرنسى ، لأن هذا اليوم كان موعد انتخابات رياسة الجمهورية فى الولايات المتحدة ، وستكون الولايات المتحدة بطبيعة الحال مشغولة فى هذا اليوم ، فيترك المعتدون الآثمون يباشرون اعتداءاتهم فى غفلة من تدخل الولايات المتحدة ومأمن من نفوذها ٠

وقد قدر المتآمرون أنه فى هذا التاريخ تكون اسرائيل قد وصلت الى ضفة قناة السويس ، فيتلاقون جميعا عندها ، ويباشرون اعتداءهم المنكر على مصر ٠

وقد كان فى ظن المتآمرين أنه بمجرد أن تبدأ اسرائيل الهجوم يخف الجيش المصرى الى صده فى شبه جزيرة سيناء ، ويكون قد عبر قناة السويس ، فيحصره الجيش الاسرائيلى من ناحية ، والجيشان الانجليزى والفرنسى من ناحية أخرى ، فيتعاون الجميع على ابادته ، وتصبح مصر بلا جيش يدافع عنها ، ويصد هجمات المعتدين عليها ، فتقع لقمة سائغة فى أيدى المعتدين الغادرين ٠ وبذلك يضعون أمم العالم أمام الأمر الواقع، فلا يستطيع مجلس الأمن ، أو جمعية الأمم المتحدة عمل أى شىء لاخراجهم من أرض مصر ، وتتهيأ الفرصة لهم أن يفعلوا ما يريدون ، ويحتلون القناة، ويدعون أنهم سيديرونها نيابة عن أمم العالم الحر ، ويضمنون حرية الملاحة لجميع الدول ٠

وبمثل هذه التعلات والأكاذيب يخدعون الرأى العام العالمى ، ويتظاهرون أمام الشعوب بأنهم حماة العالم من جبروت مصر ، وطغيان جمال عبد الناصر ، ولا يعدمون فى هذه الحالة من اقتناص عدد كبير من الدول ، وضمهم الى جانبهم ، وشراء تأييدهم ، ممن كانوا ينقمون على مصر تأميمها للقناة ، وفى مقدمة هؤلاء الولايات المتحدة الأمريكية ، التى كان يوجه سياستها فى ذلك الوقت جون فوستر دالاس ، عدو مصر اللدود

---

(١) كتاب « أضواء جديدة على معركة السويس » ، للمؤرخ الاسرائيلى ميخائيل باردمار، انظر تلخيصا لهذا الكتاب ، بقلم الاستاذ سليمان مظهر ، بعدد بناء الوطن ، رقم ٦٠ بتاريخ الأول من يونيو ١٩٦٤ ٠

هذا هو ملخص المؤامرة الكبرى ، التى أحكم وضعها فى باريس الفرسان الثلاثة ، ايدن ، وجى موليه ، وبن جوريون ، واشـــترك فى تصميمها بينو ، وسلوين لويد · ويأتى سلوين لويد اليوم فيتنصل من الاشتراك فيها ، ويضلل البرلمان الانجليزى (١) ·

تنفيـذ المـؤامرة :

وفعلا بدأ هجوم الجيش الاسرائيلى فجأة ، مساء يوم ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٥٦ ، واجتازت القوات الاسرائيلية الحـــدود المصرية ، فهاجمت « الكونتله » فى وسط سيناء ، واختارت هذا الموقع بالذات ، لقلة القوات المصرية به ، وكان أغلبها يتركز فى الشمال ، ولتصل منه الى الاسماعيلية، عبر « تمد » و « نخل » وممر « ميتللا » .

فاسرعت القوات المصرية نحو الحدود الشرقية ، وأخذ السلاح الجوى يكيل الضربات المسددة للعدو المهاجم · واستطاعت القوات المصرية أن تسحق القوات المعتدية فى نخل ، كما استطاعت أن تكبد جنود المظلات فى مضيق ميتللا خسائر فادحة ، وتعوقها عن التقدم ·

وفى مساء يوم ٢٩ من أكتوبر أيضا ، هاجم اليهود (أبو عجيلة) فى القطاع الشمالى من ســيناء · وكانت تساندهم الطائرات والدبابات الفرنسية والانجليزية ، ومع ذلك فقد صدت القوات المصرية الهجـــوم الاسرائيلى ، وكبدت العدو خسائر كبيرة ، وصمدت للجيش الاسرائيلى فى هجماته المتكررة ، واستماتت فى الدفاع عن مراكزها ، ببسالة منقطعة النظير ، ولم تتمكن القـوات الاسرائيلية من دخول المدينـة الا بعد أن انسحبت القوات المصرية ، فى ٢ من نوفمبر عام ١٩٥٦ ·

ووقفت القوات المصرية فى «رفح» فى وجه الهجـوم الاسرائيلى ، وهجمت على القوات الاسرائيلية هجمات مضادة ، فحاصرتها ، وكادت تسحقها عن آخرها ، لولا مسارعة البوارج الفرنسية لنجدتها ، وفك الحصار عنها بقذف المواقع المصرية بقنابل مدافعها ·

وقاتلت الكتيبة المصرية فى « شرم الشيخ » قتال الأبطال ، وتعرضت لنيران البحرية الانجليزية والطيران الفرنسى مدة ثلاثة أيام ، مما حمل

---

(١) أثيرت مسالة حرب السويس ، فى مجلس النواب البريطانى ، فى شهر مايو عام١٩٦٤ عندما ظهر كتاب « أضواء جديدة على معركة السويس » الذى يؤكد فيه مؤلفه اشتراك سلوين فى المؤامرة ·

القيادة المصرية على أن تصدر لها الأوامر بالانسحاب ، ومع ذلك فقد رفض رجال هذه الكتيبة الشجعان الانسحاب ، فأقرتهم القيـادة على البقاء ، والصمود • فدافعت عن مواقعها دفاعا مجيدا ، بلا انقطاع ، وتمكنت من اسقاط خمس طائرات اسرائيلية • وأخيرا وبعد نضال بطولى ، دخل العدو شرم الشيخ فى ٥ من نوفمبر •

الانذار البريطانى الفرنسى :

عندما بدأ الاعتداء الاسرائيلى ، كان أول ما تبادر الى الذهن أنه كغيره من الاعتداءات المتكررة ، التى اعتادت اسرائيل أن تشنها بين آن وآخر ، على الدول العربية المتاخمة لها • ولكن ماليث هذا الظن أن تبدد ، بمجرد رؤية طائرات السـلاح الفرنسى وهى تدخل المعركة ، لتساند القـوات الاسرائيلية • عندئذ بدأت تنجلى حقيقة الموقف ، وتتكشف المؤامرة ، وثبت أن اسرائيل لم تكن وحدها فى الميدان ، بالرغم من تصريح بريطانيا بأنها لا تنوى استغلال القتال الذى نشب فجأة فى سيناء لمصلحتها •

وما لبث الشك أن تحول الى يقين ، عندما وجهت انجلترا وفرنسا الى مصر فى السادسة والنصف من مساء الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر انذارا ، هو أعجب ما عرف من الانذارات فى التاريخ الحديث • واليك ملخص هذا الانذار العجيب :

أولا ـ ايقاف جميع الأعمال الشبيهة بالحربية فى البر والبحر والجو •

ثانيا ـ سحب جميع القوات العسكرية الى مسافة عشرة أميال من قناة السويس •

ثالثا ـ أن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية للمواقع الرئيسية فى بور سعيد والاسماعيلية والسويس •

رابعا ـ أن ترد الدولتان ـ مصر واسرائيل ـ على هذا الانذار فى مدى ١٢ ساعة ، تنتهى فى السادسة والنصف من صباح الأربعاء ٣١ من أكتوبر ١٩٥٦ ، بحيث اذا لم تسلم بريطانيا وفرنسا الجواب فى الوقت المحدود ، فانهما تتدخلان بالقدر الذى تريانه ضروريا ، لضـمان اجابة مطالبهما •

فالى وقت توجيه هذا الانذار الى مصر ، لم تكن اسرائيل قد اقتربت من قناة السويس ، بل انها كانت على مسافة مائتى ميل منها ، فكيف يطلب اليها الانذار والحالة هذه الابتعاد عنها بمسافة عشرة أميال ! فالذى

يطلع على هذا الانذار يكتشف لأول وهلة أن المقصود به هو مصر وليس اسرائيل ، وبعبارة أدق كان الهدف الرئيسى الذى يكمن وراء هذا الانذار هو احتلال قناة السويس ، كما جاء فى البند الثالث منه ٠

لذلك لم يكن هناك بد بعد أن اتضحت نيات الدولتين المعتديتين ، الماكرتين ، من أن ترفض مصر هذا الانذار الدنىء ، بكل شمم واباء ، وأن تضرب به عرض الأفق ، وأن تتخذ الاهبة فورا لاحباط المؤامرة ، وأن ترد الكيد الى نحور المعتدين ٠

لهذا فقد استدعى الرئيس جمال عبد الناصر الى مكتبه ، قبل انتهاء الموعد المضروب ، للرد على الانذار ، كلا من السفير الانجليزى والفرنسى ، وأبلغهما رفض مصر للانذار ، الذى يحمل بين طياته اعتداء صارخا على مصر ، وتحيزا ظاهرا لاسرائيل وأن مصر ستدفع العدوان بمثله ٠

سحب الجيش المصرى من سيناء :

ولما اتضح خبث نيات الدولتين ، وانفضحت مؤامرتهما لسحق الجيش المصرى فى صحراء سيناء ، اجتمعت القيادة العليا للقوات المسلحة، مساء ٣١ من أكتوبر عام ١٩٥٦ ، واتخذت قرارا خطيرا وعاجلا ، هو سحب الجيش المصرى من سيناء بمنتهى السرعة ٠ وفوجئت قواتنا بهذا القرار ، وقد شعرت بوطأته الشديدة على نفوسها ، اذ كانت تكيل الضربات الموجعة لقوات اسرائيل ، وتنزل بها هزائم ساحقة ، وتحول بينها وبين التقدم خطوة فى الأراضى المصرية ، ولكنها اضطرت الى الاستجابة لأوامر القيادة العليا ، وتركت للقوات التى فى المؤخرة، حمايتها فى أثناء الانسحاب ، وتأجيل دخول القوات الاسرائيلية للأراضى المصرية ٠ وتمت عملية الانسحاب بنجاح فى يوم ٢ من نوفمبر عام ١٩٥٦ ٠

وقد كانت عملية سحب الجيش المصرى بهذه السرعة ، دون أن يصيبه الا القليل من الخسائر ، عملية بارعة ، تهنأ عليها القوات المسلحة ، تماما كما تهنأ فى انتصارها فى موقعة حاسمة ٠ اذ لا يخفى طول المسافة التى قطعتها ، ووعورة الأرض المكشوفة التى سارت فوقها ، وخلوها من موارد المياه والمئونة ،وتعرضها طول الوقت لقذائف الطائرات الفرنسية ، مع ندرة الأماكن أو الأشياء التى تلجأ اليها ، هذا العمل الذى يدل على نذالة الطيران الفرنسى ، وانحطاط خلق القائمين عليه ، وجبنهم ودناءتهم !

ولكن مع كل ما استهدف له الجيش من مخاطر ، فى أثناء عملية الانسحاب ، فقد عاد الى أرض الوطن ، واتخذ مواقعه الحصينة للوقوف فى

وجه المعتدين ، وصد عدوانهم بكل قوة وبأس • وبذلك انهار الركن الأساسى فى المؤامرة ، وفوتت مصر على المتآمرين فرصة سحق الجيش ، وحرمان مصر من قوتها الضاربة •

وقد وصف الكاتب الايرلندى « أرسكين تشلدرز » عملية الانسحاب هذه ، فى كتابه « الطريق الى السويس » فقال : « وكان الانسحاب أمرا شاقا فى وجه هذه الاوضاع ، التى لم يلقها جيش من الجيوش فى الحروب العصرية ، ولا سيما بعد أن فقدت القوات المنسحبة أى غطاء جوى، بعد قرار وقف النشاط الجوى المصرى ، وأصبحت هدفا صالحا للطائرات النفاثة المغيرة ، التى تستخدم ضدها المدافع الرشاشة ، والصواريخ ، والقنابل ، وقذائف النابالم المحرقة • ولا يعنينى هنا أن أبحث فى أمر ما تميزت به هذه الغارات من بعد عن كل ما يسمى « بالاخلاق » ، لأن الطيارين الفرنسيين والاسرائيليين ، كانوا يعرفون أنهم لن يواجهوا أية مقاومة ، سوى ما يحمله الجنود المنسحبون من مدافع وبنادق ، ولكن الحاجة الى وضع الصورة على حقيقتها ، ماسة لاثبات ما فى كلمة «نصر» من زيف ومين •

« ولم يكن هناك أمل فى النجاة ، أو فى الرد على الطائرات المغيرة ، أو فى النجدة تأتى من أية جهة كانت • وكان الضباط والجنود يعرفون أن بلادهم تتعرض لهجوم من دولتين عظيمتين • وأن الأوامر صدرت اليهم بالانسحاب من ميدان المعركة مع اسرائيل • وهم يرون أنفسهم سواء أكانوا مشاة أم فى سياراتهم ، هدفا يائسا لنيران الرشاشات والصواريخ، من الطائرات الفرنسية والاسرائيلية ، التى تروح وتغدو ، كما تشاء • ولم يكن ثمة مكان تختفى فيه هذه القوات ، فالأرض صحراوية ومكشوفة، تعلوها الرمال •

« ولا أدرى ما سيكون عليه موقف جنود اسرائيل، لو وجدوا أنفسهم فى مثل هذه الأوضاع النفسية والبدنية • ولكن ما أعرفه أن سلوك جنود مصر ، لم يكن مختلفا عن سلوك أى جنود يمتون الىأعظم الدول العسكرية، فالجنود ينسحبون وفقا لخطة مرسومة من القتال ، ويجدون أنفسهم فجأة وقد فقدوا كل حماية جوية ، وليست لديهم مدافع كافية ضد الطائرات ، وليس أمامهم من ملجأ أمين ، أو غطاء طبيعى من صخور أو أشجار تخفيهم عن عيون الطائرات المغيرة عليهم باستمرار ••• انها أوضاع لا تنطبق فى رأيى على أى عرف للمعارك •• ومع ذلك فقد أثبت جنود مصر شجاعة

وبسالة فائقتين في دفاعهم ، مما اضطر بن جوريون نفسه ازاءه ، الى الاعتراف به ، وهو في دهشة في أول تقرير عسكرى قدمه الى برلمانه»(١) ٠

وقال الرئيس جمال عبد الناصر في خطبته التي ألقاها فى الأزهر يوم ٢ من نوفمبر ١٩٥٦ « في يومى ٣٠ ، ٣١ من أكتوبر قامت قواتنا الجوية بالسيطرة على أرض المعارك فى سيناء ومنطقة القناة ، وأسقطنا ١٨ طائرة اسرائيلية ، أى ما يعادل ثلث السلاح الجوى الاسرائيلي ٠ وكان أفراد القوات الجوية المصرية ، يعملون ليل نهار ، وباستمرار ، ولم نخسر في هذه المعارك سوى طائرتين ، واستشهد طياران فى هذا القتال ، ولكن الله وفقنا » ٠

« وبعد الغارة الأولى البريطانية الفرنسية ، التى حدثت يوم الأربعاء (٣١ من أكتوبر عام ١٩٥٦) صرنا نحارب في جبهتين ، جبهة اليهود على الحدود ، وجبهة الاستعمار الفرنسى الانجليزى فى القناة ٠ وكان لابد لنا من أن نتخذ قرارا سريعا حاسما لاحباط خطة العدو ٠ وكان الغرض من جر القوات المسلحة المصرية فى سيناء ، هو تمكين القوات البريطانية الفرنسية من الوصول الى القناة ٠ فكان لابد من اتخاذ القرار الخطير ، وهو توحيد جبهتنا ، فأصدرت الأوامر الى القائد العام للقوات المسلحة بسحب جميع القوات المسلحة المصرية منسيناء الى غرب قناة السويس ، حتى تكون بجانب الشعب ، لملاقاة قوات الاستعمار » ٠

« وبذلك أحبطت المؤامرة الماكرة ، التى قامت بها بريطانيا وفرنسا، بالاتفاق مع اسرائيل ، لعزل القوات المسلحة المصرية عن الشعب ٠ وكانت الخطة هى ضرب المدن المصرية بالطائرات ، وتدمير الجيش فى سيناء ، ولكننا كشفنا عن الخطة ، وحشدنا قواتنا المسلحة لصدها » ٠

الانتصارات المزيفة التى أحرزتها اسرائيل :

وصفنا قبل الآن الهلع الذى استحوذ على بن جوريون عندما تخيل القوات المسلحة المصرية وهى تنقض على الجيش الاسرائيلي ، وتكيل له الضربات ، وتفتك به فتكا ذريعا ، مما دعاه الى الطيران الى باريس ، للحصول على عهد من جى موليه وايدن بأن تساند انجلترة وفرنسا الجيش الاسرائيلي في أثناء هجومه الغادر على القوات المسلحة المصرية ٠

ولم يقنع بن جوريون بتعهد شفوى ، خوفا من رجوع انجلترة فى

---

(١) كتاب الطريق الى السويس تأليف ارسكين تشيلدرز تعريب خيرى حماد ٠

تعهدها ، بل أصر على تعهد كتابى وقعه جى موليه وسلوين لويد ، وعاد الى تل أبيب وهو يحمل هذه الوثيقة فى حقيبة · فهل يمكن مثل هـذا الجيش الهزيل أن يحرز نصرا يتباهى به بين جيوش العالم ؟

الواقع أن هذا الجيش لم يستطع أن يتقدم فى الحدود المصرية خطوة قبل يوم٢ من نوفمبر ١٩٥٦، أى قبل انسحاب الجيش المصرى من سيناء ، بناء على أوامر القيادة العليا للقوات المسلحة المصرية · فالثابت أنه قد لقى مقاومة عنيفـة ، لم تكن فى حسـبانه ، ومنى بخسـائر فادحة لم يكن يتوقعها ·

والمؤكد الذى لا شك فيه ، أنه لو لم تتدخل انجلترة وفرنسا فى المعركة ، لصالح اسرائيل ، للقيت اسرائيل حتفها ، ولتقرر مصيرها فى هـذه المعركة ، وهـذا بشهادة المسئولين فى اسرائيل أنفسهم ، وبرغم مكابرتهم لتغطية الفشل الذريع الذى حاق بهم ، والعار الأبدى الذى جلل رءوسهم ·

فقد القى بن جوريون فى ٧ من نوفمبر عام ١٩٥٦ خطابا أمام الكنيست (البرلمان الاسرائيلى) جاء فيه :

« ان القوات الاسرائيلية التى خرجت للهجوم على مصر يوم ٢٩ من أكتوبر الماضى ، قوبلت بهجمات عنيفة ، من الطائرات المصرية التى كانت متفوقة · وان الجيش المصرى قوى جدا ، ولديه أسلحة كثيرة ، ولم نكن نعرف أن الجيش المصرى على هذه القوة » ·

« انى مضطر أن أقول : ان هناك ضباطا مصريين ، حاربوا بشجاعة وعناد يستحقون عليهما الاعجاب والتقدير » ·

وأذاعت رويتر من القطاع الاسرائيلى تصريحا لبيريس ، المدير العام لوزارة الدفاع الاسرائيلى ، جاء فيه :

« استمرت معركة سيناء تسعة أيام ، كانت تجربة قاسية للجيش الاسرائيلى ، ولكنها تجربة ضرورية ، فقد كان يجب علينا أن نختبر مقدرة جيشنا على خوض المعارك الحقيقية ، مع أقوى جيش عربى ، وهو الجيش المصرى ، الذى لا نستطيع أن ننكر أبدا أنه كان أقوى من جيشنا · ولولا ظروف طيبة ، استطعنا أن نضمنها ، لتمكن الجيش المصرى من القضاء على اسرائيل » ·

« اننـا لو لم نتفاهم مع بعض الدول ، التى لهـا مصلحة فى تدمير قوة مصر ، ما استطعنا أن ننجو من مخالب القوة المصرية الهائلة »

وجاء فى التقرير الذى وجدته السلطات الاردنية ، فى جيب القائد العام للجبهة الجنوبية « آساف سمحونى » ، الذى أسقطت طائرته فى الاردن ، والذى تولى قيادة جيش الهجوم الاسرائيلى الغادر على سيناء ، جاء فيه اعتراف باشتراك سلاحي الطيران البريطانى والفرنسى ، فى الهجوم . وقال : « انه لولا تدخل هذين السلاحين ، لكانت اسرائيل قد هزمت ، وتحطم جيشها خلال ٤٨ ساعة ، ولدخل الجيش المصرى تل أبيب » .

ولكن اسرائيل لا تخجل ، لأنها لا تعرف الخجل أو الحياء . وكيف تخجل وهى تعيش على الاستجداء ، وقد رضيت لنفسها أن تكون طعما حقيرا لانجلترة وفرنسا ، لجر الجيش المصرى الى سيناء ، لابادته والقضاء عليه ، ومخلب قط ، ومطية ذلولا ، لكى تدركا اطماعهما الدنيئة . اسرائيل هذه بعد هزيمتها الساحقة ، تتبجح ، وتريد ان تخدع العالم ، فتدعى أنها انتصرت فى حملة سيناء ، وتستخدم الكتاب المأجورين ليلقوا فى روع الناس كذبا ونفاقا أن اسرائيل احرزت نصرا مؤزرا فى سيناء ، ويردد اليهود هذه الكذبة الكبرى ، فى انحاء العالم ، فى غير خجل أو حياء !

ولقد كشف الرئيس جمال عبد الناصر فى بيان شاف عن أسرار المعركة . رد فيه على هذا السؤال الهام : متى استطاعت اسرائيل ان تتقدم ؟ قال « هناك حقيقة واضحة ، لقد أثبتت التجربة العملية أن قوات اسرائيل الرئيسية عجزت أمام « ابو عجيلة » من يوم ٣٠ من أكتوبر الى يوم ٢ من نوفمبر ، ولم تدخل الموقع الا بعد أن تم انسحاب القوات التى كانت تحتل « أبو عجيلة » .

« وعند غروب شمس ٢ من نوفمبر أعلنت اسرائيل أنها استطاعت الاستيلاء على « أبو عجيلة » .

« وهناك سؤال : لماذا لم تقم اسرائيل وحدها بتنفيذ المؤامرة ؟ ولماذا اشتركت بريطانيا وفرنسا معها ؟ »

« لو كانت اسرائيل تستطيع ذلك وحدها ، لكانت بريطانيا وفرنسا تركتا لها وحدها مهمة الحرب ضد مصر ، وقدمتا لها كل ما تحتاج اليه من مساعدات من غير ضجة ، ومن غير أن يشعر أحد » .

« وكانت المعركة يومها تبدو أمام العالم وكأنها بين مصر واسرائيل ، وليست مصر وحدها ، ضد بريطانيا وفرنسا واسرائيل » .

« ولقد أعطتنـــا التجربة الجديدة معلومات عن جيش اسرائيل ، أزالت من خيال الكثيرين الاسطورة الخرافية ، التي حاولت اسرائيـــل على مدى السنوات السبع الماضية ان تبثها فى القلوب وفى العقول » .

« ان اسرائيل لم تستطع أن تتقدم امام قواتنا ، الا عندما كانت الاوامر قد صدرت الى هذه القوات بالانسحاب ، بعد تدخل بريطانيا وفرنسا » .

« بل ان اللواء ٢٠٢ الاسرائيلى لم يستطع أن يتصل طوال يوم ٣٠ من اكتوبر بكتيبة المظلات ، التى أسقطت فى سدر الحيطان — عند ممر ميتللا — برغم عدم وجود أية مقاومة أرضية . ولكنه أوقف بفعـل الطائرات المصرية ، التى كبدته خسائر كبيرة ، ولم يستطع ان يصل الى تمد قبل ليل ٣٠ من نوفمبر » .

« وكذلك لم تستطع اسرائيل احتلال أية بلدة من البلدان التى احتلتها ، كغزة ، ورفح ، والعريش ، الا يوم ٢ من نوفمبر . وبعد أن كانت عملية الانسحاب من سيناء كلها قد انتهت وتمت بنجاح . وأعتقد أن الدنيا كلها تعلم أن خطة الانسحاب لم تكن بسبب اسرائيل » .

وقال أرسكين تشيلدرز فى كتابه « الطريق الى السويس » وأرى لزاما على الآن أن ألخص الوضع :

ففى التاسع والعشرين من اكتوبر ، لم تكن اسرائيل قد حققت أى نصر فى سيناء ، واذا كانت قد حققت أى نجاح ، فان هذا النجاح لم يكن اسرائيليا ، وانما كان بريطانيا — فرنسيا — اسرائيليا — وفى وسعى أن أقول : انه لم يكن هناك أى « نصر » بما تحمله هذه الكلمة من معنى ، حتى بدأ القصف الجوى البريطانى والفرنسى على مصر . وأما بعد صدور أوامر الانسحاب ، فلم يكن هنـــاك فى رأيى الا « نصر » واحد تستطيع اسرائيل أن تتبجح به فى سيناء ، وهو ما أنزلته ، بهؤلاء الجنود المنسحبين المفتقرين الى كل حماية جوية من خسائر فى الارواح » .

« أجل ، لقد كان هناك نصر لاسرائيل فى سيناء ، ولكنه نصر على الورق ليس الا ، وفى صحافة الغرب وبرلماناته ، التى خلقت أسطورة « النصر الاسرائيلى المستقل » ، ولم تكن هذه الاسطورة الا واحـدة من الاساطير الكثيرة ، التى ظل الصهيونيون يخلقونها فى الغـرب ، طيلة أربعين عاما » . (١)

(١) الطريق الى السويس ، تاليف أرسكين تشيلدرز تعريب خيرى حماد ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

الشعب يقف صفا واحدا فى وجه المعتدين :

كانت المؤامرة الكبرى ، كما سبق أن ذكرنا ، ترمى الى عزل الجيش المصرى فى سيناء ، وابادته عن آخره ، ثم ضرب جميع المطارات المصرية ، والمنشآت العسكرية . وبعد أن تكون مصر قد فقدت جيشها ، وسلاح طيرانها ، تتقدم الدول المعتدية لاحتلال مصر ، بغير أدنى مقاومة .

ولكن الله القوى القاهر أبى الا أن يكشف عن مؤامراتهم ، منذ اللحظة الاولى ، ويحبط كيدهم ، فيصدر القائد الملهم ، جمال عبد الناصر أوامره بسحب الجيش المصرى . وقد تمت هذه العملية البارعة فى ٢ من نوفمبر عام ١٩٥٦ ، قبل الموعد المضروب بين الدول الباغية للهجوم على مصر بخمسة أيام ، ومعلوم انهم كانوا قد اتفقوا على أن يكون ذلك يوم ٧ من نوفمبر عام ١٩٥٦ .

ولم تضيع مصر دقيقة واحدة من وقتها للاستعداد لصد الاعتداء الغاشم : فاعلن الرئيس جمال عبد الناصر التعبئة العامة فى ٣٠ من اكتوبر عام ١٩٥٦ ، فوقف سلوين لويد فى مجلس العموم ليندد بعبد الناصر اتخاذه هذه الخطوة ، مدللا بها على نية مصر فى الاعتداء على الحلفاء الاطهار !

وكانى بهذا الأحمق ، وقد قلب الأوضاع ، وسخر من المنطق ، يريد من مصر أن تفتح ذراعيها لطائراته المغيرة ، وتستقبل الموت بنفوس راضية ، وقلوب مستبشرة !

وفتحت مكاتب جيش التحرير والحرس الوطنى ابوابهما ، وتدفق عليها المتطوعون كالسيل المنهمر ، ووزعت الحكومة نصف مليون قطعة سلاح على المتطوعين ورجال الحرس الوطنى ، ولم يسبق لمصر أن توفر لديها السلاح بهذا القدر ، وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر قراره التاريخى « سنقاتل . سنقاتل » هذا القرار الذى اتخذه الشعب شعارا له ، وصار يردده الشيوخ والنساء والشبان والاطفال فى عزم وتصميم .

وقال الرئيس جمال عبد الناصر فى بيانه الذى القاه على الشعب فى الاول من نوفمبر عام ١٩٥٦ : « لقد سررت حينما رأيت أمس واليوم كتائب التحرير والحرس الوطنى والمتطوعين يتدفقون الى مكاتب الحرس الوطنى . وستحارب كتائب التحرير والحرس الوطنى جنبا الى جنب مع الجيش ، من قرية الى قرية . »

« لقد كافحت الشعوب فى الحرب العظمى ، وانتصرت ، فنحن اليوم نقرر مستقبل وطننا . والموقف اليوم والحمد لله احسن مما كان ، فسنقاتل في كل مكان ، ولن نسلم ، وسيكون شعار كل فرد منا فى القوات المسلحة والشعب : سنقاتل ولن نسلم » .

ومنذ الأربعاء ٣١ من اكتوبر عام ١٩٥٦ ، أخذت الطائرات النفاثة وقاذفات القنابل البريطانية فى ضرب القاهرة : فضربت مطار القاهرة الدولى ، ومبنى الكلية الحربية ، والمطارات العسكرية وجامع ومستشفى الماظة ، واستمرت الغارات يوم الاربعاء وطوال الليل ، على المطارات وعلى القشلاقات والمعسكرات ، تنفيذا للمؤامرة الثلاثية ، وقذفوا محطة الاذاعة فى أبى زعبل بالقنابل فى ٢ من نوفمبر ، وكأنها أحد الاهداف العسكرية ، والحقيقة أنها كانت شوكة فى حلق الدول المعتدية الثلاث ، للحملات العنيفة التى كانت تشنها عليهم ، بمختلف اللغات ، شارحة مؤامراتهم ، ومؤلبة عليهم الاحرار فى كل مكان ، ومثيرة حماس المواطنين ، ومبصرة اياهم بمواطن الخطر ، التى يحفرها المعتدون الآثمون للبلاد .

ولم يتورع انطونى ايدن عن الكذب والبهتان ، فاعلن فى مجلس العموم أن سلاح الطيران الانجليزى انما يضرب القاهرة والمدن المصرية دفاعا عن السلام ، ولكى يفصل بين قوات اسرائيل — التى مازالت واقفة فى مكانها لا تستطيع اختراق الحدود المصرية — وبين القوات المصرية ، صيانة لقناة السويس من الهدم والتخريب !

وقد اتخذ الرئيس قرارا حكيما آخر ، لا يقل حكمة وسدادا ، عن قرار سحب القوات المسلحة من سيناء : ذلك هو منع سلاح الجو المصرى من التصدى للطائرات الانجليزية والفرنسية ، وترك عبء مقاومتها لسلاح المدافع المضادة للطائرات . وقد اتخذ هذا القرار ، لانه لم يكن لدى مصر فى هذا الوقت سوى أربعين طيارا ، مدربين على المقاتلات وقاذفات القنابل ، وكان المفروض الا يقوم الطيار فى اليوم الواحد باكثر من ثلاث غارات ، ولكن الذى حدث أن كان الطيار يقوم بسبع غارات يوميا ، ينزل من طائرته ، ليستقل طائرة اخرى ، وهكذا ، علما بأنه كان لدى سلاح الطيران مائتان وخمسون طائرة .

لذلك كان فقد أربعين طيارا خسارة فادحة ، لا يمكن تعويضها الا بعد أربع سنوات على الاقل ، ويجب ادخار هؤلاء الطيارين لوقت الحاجة القصوى .

وقد سحبت الطائرات من المطارات ، وارسل بعضها الى مطارات خفية ، وأرسل بعض آخر الى السعودية ، ووضع فى مكانها طائرات خشبية ،هى التى تعرضت لضرب الطائرات المغيرة ، فهلل الانجليز والفرنسيون وكبروا ، زاعمين انهم قضوا قضاء مبرما على سلاح الطيران المصرى ، ولم يدروا انهم كانوا من الغباء والغفلة لدرجة أن مصر قد أفسدت عليهم مؤامراتهم ، واحبطت مكايدهم وردت كيدهم الى نحورهم، فخرج الجيش والطيران سليمين من كل سوء .

وبالاضافة الى الغارات الجوية الوحشية ، التى كان يتعرض لها الآمنون من النساء والاطفال والشيوخ ، شن المعتدون الغادرون حربا نفسية مجرمة على الشعب المصرى ، ليفتوا فى عضده ، ويغروه على الانتقاض على حكومة الثورة ، والتسليم الى قوى الغدر والبغى ، فسلطت تسع محطات سرية موجاتها على مصر ، من قبرص ومالطة وجنوبى فرنسا والعراق وعدن وشرقى افريقية ، تحث الشعب المصرى على الثورة ، والخروج على حكومة عبد الناصر . فلم تزد الغارات الجوية والاذاعات المسمومة الشعب الا تمسكا بحكومته ، وتكتلا ضد المعتدين ، واستعدادا للبذل والتضحية فى سبيل الوطن . فكنت ترى الشبان والشيوخ والشابات مقبلين على تدريباتهم العسكرية ، يروحون ويغدون فى لباس الميدان ، يحملون اسلحتهم على أكتافهم ، مما خيل للانسان معه أن مصر أصبحت جميعها معسكرا كبيرا يعج بالمحاربين ، الذين اشتعلت قلوبهم حماسة ، واستعد الجميع للدفاع عن كرامة الوطن ، لآخر قطرة فى دمائهم .

ظن ايدن ، رئيس وزراء بريطانيا ، أن غزو مصر لن يستغرق أكثر من ٢٤ ساعة ، وأن المعركة لن تكون أكثر من نزهة بحرية ، لا يسع مصر بعدها الا الاستسلام ، ولم يدر هذا السياسى المأفون الأخرق ، الذى يعيش بعقلية القرن التاسع عشر ، أن الزمن قد تغير ، وأن العالم قد تطور ،وأن عجلة التاريخ لا يمكن ان ترجع للوراء . وما كان جائزا حدوثه عام ١٨٨٢ ، لا يمكن ان يتكرر عام ١٩٥٦ ، وقد تعلم الشعب من أحداث ذلك العام الشيء الكثير ، ولن يسمح لها أن تحدث مرة أخرى ، ولن يستسلم مهما كانت الظروف ، ولن يتسلم الانجليز من مصر ، اذا قدر عليها الاستسلام ، الا جثثا هامدة ، وخرائب مهجورة .

لقد كان أزيز الطائرات المغيرة يملأ سماء القاهرة ، ويصم الآذان ، وكانت طلقات المدافع المضادة للطائرات تهز الارض وما عليها هزا عنيفا ،

ومع ذلك فقد كنت ترى الناس ، يروحون ويغدون فى الشوارع لا يعتريهم خوف أو وجل ، يتابعون الطائرات المغيرة بكل اهتمام ، يتحرقون لهفة وشوقا لملاقات جنود المظلات اذا حدثتهم نفوسهم بالهبوط الى الارض ، ويقف آخرون من فرق الدفاع المدنى والانقاذ ، على أهبة الاستعداد لأداء واجبهم ، والنهوض بتبعاتهم .

بورسعيد خط الدفاع الاول :

قال الرئيس جمال عبد الناصر :

« بورسعيد لم تسلم ، وانما قاتلت وقاست وقاومت ، وضربت بقنابل الاسطول والطائرات والقوات المعتدية . بورسعيد هى التى حمت مصر كلها ، بورسعيد هى التى فدت مصر والعروبة . بورسعيد استطاعت ان تحبط خطط الاستعمار الذى قال : انه سياخذ مصر فى اربع وعشرين ساعة ! »

« بورسعيد دفعت ضريبة الدم ، بورسعيد فى محنتها كانت تفدى كل واحد منكم بدمائها ، تفدى مصر بدمائها ، كانت تحمى شرفنا ، شرف الوطن .. بورسعيد ضحت وقاتلت . وانا أعلم أن أهالى بورسعيد مروا بمحنة ولكنها اظهرت للعالم اجمع أن مصر ستقاوم مقاومة مستمرة مستميتة !» .

كانت خطة انجلترة وفرنسا أن تبدأ عمليات الغزو بالاستيلاء على مدينة بورسعيد ، ثم على بقية مدن القناة ، ومنها يتسربون الى داخل البلاد ، كما حدث عند احتلالهم مصر عام ١٨٨٢ فتحتلها انجلترة من جديد ؛ ويقتسم الغنيمة معها اللصان الآخران ، فرنسا واسرائيل .

ولقد مهدوا لغزوهم الغادر بقصف بورسعيد بقنابل الطائرات ، ابتداء من مساء ٣١ من اكتوبر عام ١٩٥٦ وهى اللحظة التى اعلنت فيها وزارة الحرب فى كل من لندن وباريس ، بدء العمليات الحربية ضد مصر ، نظرا لرفضها الانذار الانجليزى الفرنسى .

وظلت مدينة بورسعيد هدفا لغارات متواصلة ، متلاحقة ، لاتهدأ منذ ٣١ من اكتوبر حتى صباح يوم ٥ من نوفمبر عام ١٩٥٦ . وقد بلغ عدد الغارات الجوية التى استهدفت لها بورسعيد ١٠٠٠ غارة ، وكانت المدافع المضادة للطائرات تسدد للطائرات المغيرة قذائفها باحكام فائق ، مما دعا الطائرات المعادية أن تطير على ارتفاع كبير جدا ، ولكنها مع ذلك لم تسلم من قذائف المدافع المضادة للطائرات .

ونشطت المدافع المصرية المضادة للطائرات ، وبدأت تتقدم يوما بعد يوم ، وكانت الطائرات الفرنسية والانجليزية تعود مليئة بالاصابات ويرجع نشاط البطاريات المصرية المضادة ، الى أنها كانت بمأمن داخل المدن ، ومدافع المطارات وحدها هى التى أمكنت مهاجمتها » .

« كان رجال المدفعية المصرية يتحلون بقسط وافر من الشجاعة والمهارة ، باعتراف جميع الطيارين . ولم تمض ثمانية أيام حتى كانت طلقاتهم سديدة » (١)

وفى يوم ٥ من نوفمبر أنزلت فرقة من جنود المظلات بمطار الجميل ، غربى بورسعيد فأبيدت عن آخرها ، وفى ظهر ذلك اليوم أنزلت فرقة اخرى بناحية (الرسوة) فأبيدت أيضا ، وفى الساعة السابعة من مساء اليوم نفسه ، أنزلت فرقة فى منطقة بور فؤاد ، ولكنها لم تستطع التقدم ، وظلت محاصرة هناك عدة أيام .

وفى هذه الأثناء أعلن ايدن فى مجلس العموم أن بورسعيد قد سلمت ولكن سرعان ما ظهر كذبه وافتراؤه ، وثبت أن بورسعيد صامدة للعدو صمود الطود الشامخ ، تصد دولتين كبيرتين ، تسلحتا باحدث ما تملكان من آلات الفتك والتدمير ، فى عزم وقوة ، أذهلت القراصنة المعتدين ، وخيبت آمالهم الخبيثة ، وقضت على أهدافهم الدنيئة .

وفى يوم ٦ من نوفمبر حمل الانجليز والفرنسيون على المدينة حملة غاشمة ، مقدمين موعد الغزو يوما عما بيتوه قبل الآن ، وتضافر الاسطول وسلاح الطيران فى دك المدينة بالمدافع والقنابل ، من البحر والجو ، وأعقب ذلك نزول القوات البرية الى المدينة بدباباتها ومصفحاتها ، بعد أن أسكتت المدافع المضادة للطائرات ، وهدمت الاستحكامات العسكرية ، التى كانت قائمة على طول الشاطىء .

وانتقل القتال الى داخل المدينة ، فنشبت فى هذا اليوم معركة حامية الوطيس ، بين أبناء بورسعيد الابطال الشجعان ، وبين قوى الغدر والبطش ، ودارت المعركة فى الشوارع ، وعلى أسطح المنازل ، ومن بيت الى بيت . واليك وصف شاهدى عيان ، وهما الصحفيان ميرى وسيرج بروميرجر ، وكانا يرافقان الحملة ، مراسلين حربيين عن احدى الصحف الفرنسية . قالا .

---

(١) كتاب « أسرار الحملة على مصر » بقلم الصحفيين الفرنسيين ميرى وسرج بروميرجر .

« وانتهى القتال على الشاطىء ، وبدأ فى الشوارع ، وانهال الجنود المصريون الذين هجروا الشاطىء ، عقب اطلاق مدافع الاسطول ورشاشات جنود المظلات الانجليز ، انهالوا على المدينة ، وأخذوا يحطمون الابواب وينظمون المقاومة على الاسطح والشرفات . وخلع كثيرون زيهم ، وتبعهم جنود البوليس الذين يرتدون الزى الاسود . وقام متطوعو جيش التحرير بدورهم ، فاقاموا مركز مقاومة ، وأخذ الصبية الذين يبلغون من العمر ١١، ١٢، ١٣ عاما يلعبون « لعبة الحرب » ببراعة ورباطة جأش واستبسال » .

« واخرج الانجليز من أحد المنازل صبيين يرتديان سروالا قصيرا ، وامسكوا ببندقيتهما الساخنتين ، وكانوا لا يدرون ماذا يفعلون بهما ، كانوا ينظرون الى هؤلاء الاعداء ، الذين لا يتعدى سنهم الثانية عشرة أو الثالثة عشرة فى دهشة ممزوجة بالاعجاب »

وقالا أيضا « كان القتال فى الشوارع دائرا حول مقر شركة القناة . ووجه مدفع رشاش نيرانه الى زورق ستكويل (القائد العام للقوات البريطانية) ، ومر الرصاص بجانبه ، فعاد الزورق أدراجه » .

وقالا أيضا : « اننى ممن يمجدون شجاعة المصريين . والمعقول الا يكون هناك جنود فاشلون . فالجنود العرب الذين قاتلو طيلة يوم ٦ من نوفمبر كقناصة غير نظاميين ، كانوا ولا شك من الشجاعة بمكان ، والتحية واجبة كذلك للمتطوعين والصبية الذين اشتعل حماسهم ، فأوقفوا زحف الحلفاء يوما كاملا . وجديرون بالاعجاب والاطراء أيضا رجال البحرية ، الذين قاوموا من نوافذ مبنى الاميرالية » (١)

واتخذت المقاومة الشعبية طابعا خطيرا آخر ، هو المقاطعة السلبية والاضراب العام ، وعدم التعامل مع جيش الاحتلال بأية صورة . وقد نظم رجال المقاومة السرية هذه المقاطعة تنظيما تاما : يقول الصحفيان ميرى وسرج برومبرجر فى كتابهما السالف الذكر :

« كان الجنرال ستكويل مضطربا . فالمدينة زاخرة بالمؤن ، والمتاجر مكدسة بها ،والزيت والماكولات المحفوظة والدقيق والحبوب واللحوم والشاى والدجاج الرومى — كل ذلك كان مكدسا على أرصفة شركات الاستيراد الانجليزية والايطالية » .

---

(١) كتاب « أسرار الحملة على مصر » بقلم الصحفيين الفرنسيين ميرى وسرج برومبرجر .

« غير أن المتاجر لم تفتح أبوابها ، والمخابز توقف عملها ، وانتشر الاضراب العام ضد المحتل . وظهرت على الحوائط عبارات مكتوبة باللغة العربية ، بتوقيع جمجمة تقول : « سنحرق الطابور الخامس حيا » .

« واخذت فنادق بورسعيد الكبرى ترفض خدمة المراسلين الحربيين ، وكانت المتاجر النادرة المفتوحة تقفل أبوابها عند رؤيتنا . والقيادة الحليفة تنتظر من يوم لآخر أن يعود العمال ، الذين ضاقت بهم الحال ، الى أعمالهم » (١)

وطبعا لم يذكر هذان المؤلفان أن الجنود الانجليز والفرنسيين ، انقضوا على المتاجر فنهبوا ما بها من بضائع ، واقتحموا المنازل فسلبوها جميع مابها من أثاث وتحف ومتاع . بل وصل بهم الاجرام أن حملوا معهم عند جلائهم عن المدينة ، كثيرا من السيارات الفخمة ، التى استولوا عليها عنوة . لم يذكروا ذلك لانهما لا يريدان وصم مواطنيهم وحلفائهم الانجليز بأحط ما يمكن أن يوصم به جيش فى العصر الحديث، من السلب والنهب والسرقة والاغتصاب . ولكن اذا كانت الحكومتان اللتان يتبعهما هذا الجيش قد استباحتا لنفسيهما أعمال القرصنة ، فحاولتا اغتصاب وطن بأكمله ، وشعب بأسره ، فلا يستقرب أن يقوم جنودهما بنهب المتاجر ، وسلب المنازل ، واغتصاب السيارات ، تحت أسنة الحراب ، وفوهات المدافع .

وقد وقع الشيء نفسه من اللص الثالث ، وهو اسرائيل الحقيرة ، التى تتكون فى مجموعها من عصابات قطاع الطرق ، وجماعات اللصوص والسفاحين : فقد انقضت هذه العصابات على المدن العربية ، غزة ، والعريش ، وخان يونس ، وغيرها كالذئاب المسعورة ، والجراد المنتشر ، الذى لا يبقى ولا يذر ، فجردت المتاجر والاسواق والمنازل من كل ما اشتملت عليه من غذاء ، وبضائع ، ومتاع ، وأثاث ، وحملته الى تل أبيب ، وانقضت على محجر الطور فجردته من كل ما كان به من اجهزة طبية ، وآلات وأدوات ، تقدر بثلاثة ملايين من الجنيهات ونهبت دير سانت كترين .

وفى شرم الشيخ استولت على مستودعات زيت البترول ، وارسلتها الى اسرائيل ، وبلغ بها الحقد الأعمى أنها عند انسحابها خربت الطرق المعبدة ، وحرثتها بدباباتها ومعاولها ، والحقت بها خسائر لا تصدر الا

---

(١) المصدر السابق .

عن جيش قد افقدته الهزيمة صوابه ، فتجرد من كل الصفات البشرية ، والقيم الاخلاقية .

وبجانب النضال المرير ، والمقاومة السلبية ، اللذين قام بهما الشعب في بور سعيد ، فقد دقت مصر فى نعش الحملة الغادرة أسفينا كان له أثره المباشر فى فشلها نهائيا : ذلك هو سد مدخل القناة ، بالمراكب الغارقة ، ثم سد القناة نفسها فى بعض المناطق ، هذا بالاضافة الى غرق الباخرة عكا فى القناة بفعل قنابل الطائرات المغيرة . بهذا لم تستطع البوارج والسفن الحربية ، وناقلات الجنود السير خطوة فى قناة السويس ، ولم تدع مصر مأساة عام ١٨٨٢ تتكرر ، مأساة استخدام الجيش الانجليزى قناة السويس فى احتلال مصر ، واحجام أحمد عرابى عن ردمها ، مخافة تألب الدول على مصر ، كما ألقى فى روعه فرديناند دى لسبس .

وهكذا افادت مصر من دروس الماضى ، وأخذت لنفسها عبرة من الاخطاء التى وقع فيها السلف ، والتى أدت الى وقوع مصر فى براثن الاستعمار .

ولقد كتبت البحرية المصرية فى تاريخ الشرف والكرامة : صحائف خالدة ، نقشت حروفها من نور ، واستطاعت مع تواضع قدرها ، أن تنزل بالاساطيل الجبارة المهاجمة ، خسائر فادحة فاغرق الفدائيون من رجال البحرية ، بزوارق الطوربيد ، الباخرة الفرنسية العظيمة (جان بارت) ، وكانت تحمل ستمائة جندى ؛ وتنوى انزالهم على شاطىء بحيرة البرلس . كذلك أغرقوا الباخرة (جورج ليج) . وقامت الباخرة ابراهيم بمغامرة جريئة ، وعمل بطولى فريد ، فقد اقتحمت ميناء حيفا ، ليلة ٣١ من اكتوبر ، وضربت منشآتها العسكرية ، واشعلت فيها الحرائق ، وانسحبت فى هدوء ، بعد أن أتمت مهمتها بكل دقة واحكام ، ولكنها فى اثناء عودتها ، تجمعت عليها ثلاث مدمرات فرنسية ، تؤيدها ثلاث طائرات ، واشتبكت معها فى معركة حامية ، فاصيبت اصابات جسيمة ، واستولت عليها وهى على وشك الغرق .

وبلغت الوقاحة والنذالة باسرائيل أنها ادعت بعد ذلك أن السفن الاسرائيلية هى التى اشتبكت مع الباخرة ابراهيم ، وطبعا تهدف من وراء ذلك الى اخفاء التواطؤ بينها وبين فرنسا وانجلترا ، وانتحال انتصار كاذب ليست له أهلا ، لولا ان أحد المراسلين الحربيين الفرنسيين وكان فى احدى السفن الحربية التى هاجمت الباخرة ابراهيم ، ذكر

الحقيقة ،التى لا يمكن ان تخجل منها اسرائيل ، التى لا تعرف للكرامة معنى .

وهناك عمل بطولى آخر ، قامت به ناقلة الجنود المصرية (دمياط) لا يقل اقداما وشجاعة عما قامت به الباخرة ابراهيم : فبينما كانت هذه الناقلة تحمل جرحى من شرم الشيخ ، اذ فاجأتها بعض المدمرات الانجليزية فى البحر الاحمر واستوقفتها وطلبت اليها التسليم فطلب قائد الناقلة الى القوة التى معه أن يلقوا بأنفسهم فى البحر ، ودخل بسفينته فى احدى المدمرات الانجليزية ، فاغرقها ، وقضى هو نحبه . قال القائد الانجليزى للجنود والضباط الذين أخذوا أسرى : « ان قائد هذه السفينة اما أنه أشجع شجاع ، واما انه رجل مجنون . لا يمكن اى أحد أن يفعل ما فعله هذا القائد » .

لم يكن هذا الضابط مجنونا ، وانما كان بطلا مقداما ، وهكذا كان جميع الضباط الذين اشتركوا فى المعارك البحرية ضد القراصنة المعتدين ، كانوا فدائيين مغامرين ، افتدوا الوطن بحياتهم ودمائهم ، وقدموا أرواحهم رخيصة فى سبيل انقاذ بلادهم من الاعتداء الماكر الغادر .

وفى الاسكندرية استطاع رجال المدفعية ، ورجال الاسطول الرابض فيها ، أن يصدوا الغارات المتلاحقة عن المدينة ، وعن سفن الاسطول ، بكل دقة وشجاعة ، فاسقطوا كثيرا من الطائرات ، وفوتوا على القراصنة الانذال أغراضهم الدنيئة ، وسلم الاسطول من اى ضرر .

الاعتداء الثلاثى والقومية العربية :

كان جمال عبد الناصر أول من وجه النظر الى ضرورة تآزر الدول العربية وتساندها فى مكافحة الاستعمار ، واحباط مؤامراته ، وقد أوضح ذلك فى تعمق وحسن ادراك ، وتحليل صادق فى كتابه « فلسفة الثورة » حيث يقول : « أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ، ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها ، حقيقة وفعلا ، — وليس مجرد كلام ؟ » .

ويقول فى موضع أخر : « وما من شك فى أن الدائرة العربية هى اهم هذه الدوائر ، وأوثقها ارتباطا بنا » .

« فلقد امتزجت معنا بالتاريخ ، وعانينا معها المحن نفسها ، وعشنا

الازمات نفسها وحين وقفنا تحت سنابك خيل الغزاة ، كانوا معنا تحت السنابك نفسها » ٠

ومنذ أن قامت ثورة ٢٣ من يوليو عام ١٩٥٢ ، والرئيس جمال عبد الناصر يدعو الى القومية العربية ، وينادى بتوحيد الصفوف ، والوقوف جبهة واحدة فى وجه الاستعمار والصهيونية ، والبعد عن سياسة الأحلاف ، وعدم السير فى ركاب أى من المعسكرين ، واتباع سياسة الحياد الايجابى ، واعتناق سياسة عربية نابعة من صميم الأهداف الغربية الكبرى ، ولقد وجدت هذه الدعوة صدى عميقا فى قلوب الشعوب العربية ، واستجابة لدى بعض حكامها ٠

لذلك لم يكن غريبا حين وقع الاعتداء الثلاثى على مصر ، أن يسارع بعض قادة العرب الى مد يد العون الى مصر ، واضعين جيوشهم وأموالهم تحت تصرفها ، معلنين رغبتهم فى دخول المعركة . فقابلت مصر هذا الشعور الكريم بالشكر وعرفان الجميل ، ولكنها اعتذرت عن عدم قبول هذه المعونة رغبة منها فى ألا يتسع نطاق القتال ، مصممة أن تتحمل وحدها عبء النضال ، وانزال الهزيمة بالمعتدين ٠

ونسجل بالفخر للملك ادريس السنوسى رفضه أن تستعمل بريطانيا بلاده قاعدة حربية لضرب مصر بالطائرات ، على حين استخدمت الطائرات الانجليزية مطار الحبانية ، فى عهد نورى السعيد والامير عبد الاله للتزود بالوقود ، عند قيامها للاغارة على المطارات المصرية ، لأنهما كانا من عملاء الاستعمار البريطانى وركائزه فى الشرق العربى ٠

كذلك هبت الشعوب العربية ، فى كل أنحاء العالم العربى تستنكر الاعتداء على مصر ، وتعلن سخطها وغضبها على الدول المعتدية الثلاث ، وتبدى استعدادها للتطوع فى سلك الجيش المصرى للقيام بنصيبها فى الجهاد والنضال ٠

وقام الشعب فى سورية والأردن والعراق بتحطيم أنابيب البترول ومنع تدفقه الى أوربا ، كما توقفت كثير من الدول العربية ، المنتجة للبترول عن تزويد الناقلات بالذهب الاسود ، فضلا عن اغلاق قناة السويس فى وجهها ، بعد انسدادها ، وتعذر سير السفن فيها ، فوقعت أوربا فى أزمة بترولية لم يسبق لها مثيل ، فتوقفت المصانع والمعامل ، وتعطلت سبل المواصلات فى البر والبحر والجو ، وصار البنزين والكيروسين يوزعان بالبطاقات ، وهجر أصحاب السيارات فى كثير من بلاد أوربا سياراتهم ، بعد أن عز عليهم العثور على وقود لها ٠

والواقع انه قد حلت بأوربا محنة اقتصادية ، وكارثة عامة شاملة من جراء حماقة السياسيين الخطرين : أنطونى ايدن ، وجى موليه ! فلا غرو أن صبت على رأسيهما اللعنات جميع دول أوربا وشعوبها ، وأصبحا هدفا للنقد اللاذع من مواطنيهما فى انجلترا وفرنسا نفسيهما ، وبدأت تظهر فى الأفق بوادر اخفاقهما ، وتتحقق نتائج فشلهما ، ويتقرر سقوطهما ، وانهيار تدبيرهما ، وعلى الباغى تدور الدوائر .

الاعتداء الثلاثى فى المنظمة الدولية :

أخذت المؤامرة الثلاثية تنفضح ، بعد توجيه الانذار الانجليزى الفرنسى الى مصر ، مساء الثلاثاء ٣٠ من أكتوبر عام ١٩٥٦ ، اذ كان هذا الانذار أغرب انذار حدث فى العصر الحديث ، وانه كما وصفته المنشستر جارديان ، الجريدة الانجليزية ، بأنه « عمل يدل على البلاهة وليس له أى مبرر » (١) .. وأخذت المؤامرة تتضح بشكل مؤكد عندما بدأت الغارات الجوية تنهال على المدن والمطارات المصرية ، على أوسع مدى ، يوم ٣١ من أكتوبر والأيام التالية ، وشرع العالم يتبين كذب ادعاء ايدن من أن الغرض من الحملة الغادرة هو فصل القوات المصرية عن القوات الاسرائيلية ، التى لم تكن قد عبرت الحدود المصرية بعد ، حماية لقناة السويس من الهدم والتخريب . وظهر بوضوح أن الغرض من الحملة هو العودة الى احتلال مصر ، وقناة السويس .

وقد ادركت مصر منذ اللحظة الأولى ، حقيقة المؤامرة ، ولذلك أعدت للأمر عدته ، وطفقت تعالج الأمور فى يقظة وحذر ، وأخذت القوات المسلحة بعد انسحابها من سيناء تأخذ مكانها بجانب قوات الحرس الوطنى ، ومنظمات التحرير للدفاع عن حياض الوطن ضد الغزاة السفاحين .

وبما أن مصر فى الوقت نفسه عضو فى المنظمة العالمية الدولية ، وأن المعتدين عليها هم أيضا أعضاء فى هذه المنظمة ، فقد تقدمت الى مجلس الأمن بشكواها ضد أولئك البرابرة المتوحشين .

وسبق لنا القول ، أن المتآمرين الثلاثة ، حددوا يوم ٧ من نوفمبر لغزو مصر ، وهو موعد انتخاب الرياسة فى الولايات المتحدة كى يقوموا بعدوانهم الاجرامى ، فى غفلة من حكومة الولايات المتحدة التى ستكون مشغولة فى هذا الوقت بعملية الانتخابات ، ولكن لم يلبث الانذار الانجليزى الفرنسى ، أن فضح المؤامرة ، فاستشاط الرئيس الامريكى ايزنهاور غضبا لما أسماه « بالخدعة البريطانية » وأصدر أمره

---

(١) حرب السويس تاليف بول جونسون ص ١٢٧ .

الى « كابوت لودج » مندوب الولايات المتحدة فى مجلس الامن بأن يسد الطريق بأية وسيلة يراها ، أمام ذلك العمل العسكرى ، الذى تقوم به بريطانيا وفرنسا (١) ٠

ولقد قدم لودج مشروع قرار الى مجلس الامن يقضى بأن تسحب اسرائيل ، وأن تمتنع الدول عن مساعدة اسرائيل ، ولقد وافق على ذلك سبعة أصوات ضد صوتين هما : صوتا بريطانيا وفرنسا ، وامتنعت استراليا وبلجيكا عن التصويت ، واسخدمت كل من فرنسا وبريطانيا الفيتو ، فلم يكتب النجاح لهذا القرار ٠

وبعد ذلك طالبت روسيا بوقف اطلاق النار ، وطالبت اسرائيل بالانسحاب وراء خطوط الهدنة ، التى عقدت فى عام ١٩٤٨ ، ولقدامتنعت كل من أمريكا وبلجيكا عن التصويت٠ أما باقى الاعضاء وفيهم استراليا ، فقد صوتوا ضد بريطانيا وفرنسا ، واضطرت كل منهما لاستخدام الفيتو مرة ثانية ، فسقط المشروع أيضا ٠

ولكن بريطانيا ، منذ هذا الوقت ، أخذت تلاقى كثيرا من المتاعب نتيجة لتهور رئيس وزرائها وحمقه ، واخفائه مؤامراته عن دول الكومنولث وعن الولايات المتحدة ، بل وعن أعضاء مجلس العموم البريطانى ٠ لذلك أخذت أصوات الاستنكار تتعالى فى كل مكان ، والمظاهرات تجتاح مدينة لندن ، حيث كان المتظاهرون يتادون ٠٠ « القانون وليس الحرب » وذهبت الصحف مذاهب شتى فى التعليق على مغامرة الحكومة ، وتورطهـــا فى الاعتداء على مصر ٠ وتزعم حزب العمـــال معارضة الوزراء فى المجلس ، وشن حملة واسعة النطاق عليها فى طول البلاد وعرضها ، ومطالبتها بالاستقالة ، والخضـــوع لقـــرارات مجلس الامن والجمعيـــة العامة للأمم المتحدة ٠

وقد دب الانقسام فى الوزارة الانجليزية ، وانقسمت الى فريقين : أحدهما يرى الاستمرار فى العدوان ، وعلى رأسه ايدن ومن بين أفراده سلوين لويد ، وزير الخارجية وانطونى هيد وزير الحرب ٠

والآخر يرى فى العدوان كارثة ستحل ببريطانيا وعلى رأس هذا الفريق بتلر وانطونى ناتنج وزير الدولة ، وسيرادواردبويل وزير المالية. ولقد كانت لدى الآخرين الشجاعة الكافية . فاستقالا من الوزارة ٠

---

(١) المصدر السابق ٠

وبعد أن فشل مجلس الامن فى اجبار كل من فرنسا وانجلترة واسرائيل على وقف اطلاق النار والانسحاب من الاراضى المصرية لاستخدام كل من انجلترة وفرنسا الفيتو ، قدمت يوجوسلافيا فى مساء الاربعاء ٣١ من اكتوبر ، اقتراحا يقضى بعقد جلسة طارئة للجمعية العامة للامم المتحدة • وفى ٢ من نوفمبر ١٩٥٦ صوتت ٦٤ دولة فى الجمعية العمومية فى صالح قرار بوقف اطلاق النار ، وكان ذلك ضد خمسة أصوات ، وكانت هذه أكبر أغلبية تمت فى الجمعية العامة • ولكن بريطانيا رفضت الموافقة على هذا القرار على حين قبلته مصر ، ووافقت عليه اسرائيل تحت ضغط الولايات المتحدة وتهديداتها •

وأيقن ايدن أنه بقبول قرارات الامم المتحدة ، سيستسلم للهزيمة والعار ، ويقضى على وزارته بالسقوط ، وعلى حزب المحافظين بالانهيار لذلك أخذ يحاور ويداور ، ملتمسا لنفسه مخرجا من الكارثة المحققة التى تنتظره ، والمستقبل المظلم الذى سيتوارى فيه •

وفى يوم السبت ٣ من نوفمبر أبلغ ايدن مجلس العموم أن بريطانيا قد تسلمت نص القرار الذى اتخذته الجمعية العامة ، ولكن الحكومة لم تكن مستعدة لوقف الأعمال الحربية الا بشروط هى : ــ

أولا : أن يوافق المصريون والاسرائيليون على تكوين قوة تابعة للأمم المتحدة تحافظ على السلم •

ثانيا : وأن توافق الأمم المتحدة على استمرار هذه القوة فى البقاء حتى يتوصل الى ابرام اتفاق بشأن النزاع القائم حول قناة السويس ، والى الوصول الى تسوية سلمية بين العرب واسرائيل •

ثالثا : وأنه حتى تتكون قوة الأمم المتحدة ، فان المتنازعين يجب أن يوافقا على قبول وضع بعض قوات انجليزية فرنسية بينهما ولكن هذه الشروط رفضت رفضا باتا •

ويظهر أن ايدن قد نسى الكذبة الضخمة التى تذرع بها للدول فى المعركة ، وهى الفصل بين القوات المصرية والاسرائيلية ، حماية لقناة السويس من أضرار الحرب • فاذا كان الفريقان قد وافقا على وقف اطلاق النار ، فماذا تبغى انجلترة وفرنسا ، من الاستمرار فى العدوان ؟ ان الحقيقة تأبى الا أن تظهر جلية واضحة ، برغم ما تبذلان من جهد فى سترها واخفائها ، لتزداد احتقارا وازدراء من أمم العالم وشعوبه :

وتقدمت كندا للسكرتير العام للأمم المتحدة باقتراح تطالبه فيه بأن يقدم بعض الخطط فى خلال ٢٤ ساعة ، لانشاء بوليس دولى لضمان ومراقبة وقف الأعمال العدوانية ، طبقا للقرار الذى اتخذته الجمعية فى ٢ من نوفمبر ١٩٥٦ ، وهذا لابطال الحجة التى تذرعت بها بريطانيا ، لتعطيل ذلك القرار • وقد فاز ذلك القرار بثمانية وخمسين صوتا مقابل لاشىء وامتناع ١٩ عن التصويت ، بما فيها بريطانيا وفرنسا • وقد كان عدم وجود قوة دولية هو السبب الذى تعللت به بريطانيا للتدخل فى هذه الحرب ، ولكن بريطانيا لا تخجل ، فجعبتها لاتنضب من التعلات والتمحلات ، وهى لاتتورع عن اتخاذ الكذب والنفاق سندا لها لادراك مطامعها الخبيثة ، وأغراضها الاستعمارية الدنيئة •

هذا وبينما الأمم المتحدة تعقد الاجتماعات المتوالية بحثا عن وسيلة لاجبار المعتدين على الرضوخ والانصياع لقراراتها ، اذا بالانجليز والفرنسيين يمضون فى الاعتداء على مصر ، ويجدون فى تنفيذ مخطط المؤامرة ، وكل غرضهم الحصول على نصر من أى نوع ، يرفعون به رءوسهم ، ويواجهون به النقد المرير الذى يلقونه ، خصوصا من الأحرار من مواطنيهم ، ويعزون به أنفسهم ، قبل أن يفرض عليهم قرار وقف اطلاق النار •

لهذا فانهم قدموا موعد غزوهم لمصر يوما ، وبدءوا هجومهم الغادر يوم ٦ من نوفمبر ، بدلا من يوم ٧ منه ، وأنزلوا قواتهم على ساحل بور سعيد ، ونشب القتال حاميا بينهم وبين شعب بور سعيد ، كما أسلفنا ، فى الشوارع ، وفوق أسطح المنازل ومن بيت الى بيت ، واشتدت مقاومة المصريين فى كل مكان ، بشكل لم يكن يتوقعه هؤلاء البرابرة المتوحشون •

وفضلا على هذا سدت فى وجوههم قناة السويس ، فلم يستطيعوا السير فيها خطوة واحدة ، وصدت المدفعية فى السويس الأسطول الانجليزى المهاجم من البحر الأحمر ، فارتد مهزوما مدحورا ، ولم يتمكن جندى انجليزى واحد من أن تطأ قدماه أرض السويس •

وحاول الغزاة السير برا ، بحذاء القناة من بورسعيد ، على الشاطىء الآسيوى ، فما ان اقتربوا من القنطرة حتى وجدوا مقاومة عنيفة ، ونارا حامية ، ارتدوا على اثرها خائبين ، ورجعوا من حيث أتوا ، يتعثرون فى أذيال الخيبة والفشل •

ودلف ايدن الى مجلس العموم ، ليكذب على أعضائه كذبة جديدة ويهدىء من ثورتهم العارمة ضده ، فادعى أن بور سعيد قد سلمت ولكن سرعان ما افتضحت الأكذوبة ، وثبت للعالم أجمع أن بور سعيد صامدة صمود الجبل الأشم ، واقفة للمعتدين بالمرصاد ، يباشرون هجماتهم على القوات المعتدية فى مهارة واحكام فائقين ، أقض مضاجعهم ، وعكر صفو حياتهم ، وأدخل الهوس والخبل على عقولهم ، وقلب خططهم رأسا على عقب .

وبلغ من جرأة الفدائيين فى بور سعيد ، أن اختطفوا ضابطا بريطانيا يدعى مورهاوس ، يمت الى العائلة المالكة الانجليزية بنسب ، وحاول الانجليز بكل ماأوتوا من قوة ودهاء العثور عليه ، فذهبت جهودهم أدراج الرياح واضطر الفدائيون الى اخفائه بأحد المنازل ، حتى لا يعثر عليه الانجليز فى أثناء تفتيشهم المنازل ، بحثا عنه ، وقد سمحت مصر ، كرما منها وسماحة ، بتسليم جثته وارسالها الى أهله فى انجلترة ، بعد جلاء القوات المعتدية عن أرض الوطن .

وبينما الانجليز والفرنسيون على هذه الحال من البؤس والذلة . وقد عز عليهم الحصول على أى انتصار ، يعجل بنهايتهم ، ويختتم فصول المأساة الرهيبة ، التى أخفق ايدن ومولية وبن جوريون فى تمثيلها ، وباءوا بالفشل الذريع فى تقديمها على مسرح الاستعمار ، اذا بعامل جديد يظهر فى المجال الدولى ، ذلك هو الانذار السوفييتى ، الذى وجهه بولجانين ، رئيس وزراء السوفييت ، الى كل من ايدن وجى موليه، والذى أنذر بوقوع حرب عالمية ثالثة ، فالقى الفزع والرعب فى قلوب المعتدين ، وأيقنوا أن الدنيا على وشك أن تنقلب على رءوسهم جميعا ، فلم يجدوا بدا من الانصياع والخضوع فى ذلة ومهانة .

وكانت الروسيا قد عرضت قبل الآن ، على الولايات المتحدة ، التعاون فى وقف العدوان على مصر ، ولكن الرئيس ايزنهاور رفض هذا العرض لا لأنه يرضى عن أعمال المعتدين وعدوانهم ، وانما لأنه يكره وضع يده فى أيدى الشيوعيين ، والتمهيد للسوفييت فى أن يضعوا أقدامهم فى منطقة الشرق الأوسط .

لهذا رأت الروسيا أن تنفرد بالعمل ، فوجهت انذارها السالف الذكر الى كل من انجلترة وفرنسا ، هذا الانذار الذى حسم الأمور . وألقى الرعب فى قلب ايدن وموليه ، واضطرهما الى الانصياع كما قدمنا وقد أفزعهما أيضا توقعهما وصول المتطوعين الروس فى ساعات

قلائل الى مصر ، وقضاؤهم على الحملة الانجليزية الفرنسية قضاء مبرما .

وقد صيغ الانذار فى شكل مذكرة، سلمها وزير خارجية السوفييت الى السفير البريطانى فى موسكو مساء يوم الاثنين ٥ من نوفمبر موجهة الى السير انطونى ايدن ، هذا هو نصها :

« ترى الحكومة السوفييتية ، ضرورة استرعاء نظركم الى الحرب العدوانية المشبوبة على مصر من بريطانيا وفرنسا ، ولها أخطر العواقب على قضية السلام . ما المركز الذى تجد بريطانيا نفسها فيه ، لو أنها هاجمتها دولة أخرى ، تمتلك كل نوع من الأسلحة الحديثة المدمرة . ان هناك الآن دولا ليست فى حاجة الى ارسال أساطيل بحرية أو جوية الى شاطىء بريطانيا ، ولكنها تستطيع استخدام وسائل أخرى مثل الصواريخ الموجهة .

نحن عازمون عزما أكيدا على سحق المعتدين ، واقرار السلام فى الشرق الأوسط ، باستخدام القوة ، ونحن نأمل فى هذه اللحظة الحرجة ، أن تستعملوا الحكمة المناسبة ، وتستخلصوا النتائج المترتبة على ذلك » .

وكان أنورين بيفان رئيس حزب العمال المعارض ، قد حذر ايدن فى مجلس العموم ، فى اليوم السابق ، مغبة المغامرة الخطيرة التى تقوم بها الحكومة، والخطر الذى تستهدف له ، فقال «اذا كانت الحكومة تريد اعادة فرض قانون الغابة ، فيجب عليها أن تذكر أن بريطانيا وفرنسا ليستا أقوى الحيوانات فى الغابة ، فهناك حيوانات أشد خطرا بكثير تتحرش بها » (١) .

وفى اليوم التالى لتوجيه الانذار السوفييتى ، وهو يوم الثلاثاء ٦ من نوفمبر ، بدا شبح الحرب الثالثة وهو يلوح فى سماء أوربا ، واتصل ايدن — تليفونيا بواشنجطن فور تسلمه الانذار ، فلم يجد استعدادا لمؤازرته ، بل وجد اصرارا على وقف القتال .

وذكرنا أن الانقسام دب فى الوزارة ، فاستقال اثنان من الوزراء ، وكان آخرون فى طريقهم الى الاستقالة ، وتعدى الاستياء حزب العمال الى حزب المحافظين نفسه ، فكان ثلاثون من أعضائه على وشك التقدم الى الوزارة بطلب وقف اطلاق النار . ولم تكن دول الكومنولث أقل غضبا

(١) حرب السويس تاليف بول جونسون ص ١٤٢ .

من الولايات المتحدة ، لاتخـــاذ ايدن قرارات العدوان على مصر من وراء ظهورهم . أما الشعب الانجليزى فقد فوجىء بالحرب، ويخشى أن تندلع نيرانها من مصر ، فتشمل أوربا جميعها . ولذلك نادى بسقوط الوزارة ووقف اطلاق النار .

بداية النهاية :

كان هذا موجزا للحالة فى بريطانيا ، عندما وجه بولجانين انذاره الى ايدن ، وقد كانت دون شك بالغـــة الخطورة ، وتقتضى ايدن ان يتخذ قرارا سريعا وحاسما ، قبل أن تفلت الفرصة من يديه .

قلنا ان هذا اليوم كان يوافق السادس من نوفمبر ، وهو موعـــد افتتاح البرلمان الانجليزى ، حيث يتولى رئيس الوزراء قراءة خطبـــة العرش ، ولأول مرة ، فى تاريخ البرلمان ، يتغيب رئيس الوزراء عن حفلة الافتتاح ، ذلك لأنه كان لديه ما هو أهم من حفلة افتتاح البرلمان ، وهـــو اتخاذ أخطر قرار يمس مستقبل بريطانيا ، بل ويمس مســـتقبل أوربا والعالم أجمع ، قرار الحرب أو السلم ، فاقتضى منه ذلك أن يترأس أخطر اجتماع لمجلس الوزراء ، ذلك الاجتماع الذى تغلب فيه رســـل السلام على دعاة الحرب والشر .

وفى مســـاء ذلك اليوم أقبل ايدن على البرلمـــان ليعلن موافقـــة الحكومة الانجليزية على وقف اطلاق النـــار ، اســـتجابة لقرارات الأمم المتحدة وقال : « ان الحكومة قد تسلمت كتابا من السكرتير العـــام للأمم المتحدة يبلغها فيه أن كلا من مصر واسرائيل وافقت على وقف اطلاق النار، ونظرا الى اقتراح انشاء قوة دولية ، فان بريطانيا قد وافقت على وقف العمليات الحربية فى منتصف الليـــل » . فصفق الأعضـــاء من عمـــال ومحافظين لهذه النهاية الأليمة ، التى أرغم عليها انطونى ايدن ، والتى أنهت المؤامرة الكبرى على غير ما يهوى هو ، وجى موليه ، وبن جوريون ، والتى كادت توقع العالم فى حرب عالمية ثالثة ، تستعمل فيها أشـــد ما عرفت البشرية من أسلحة فتاكة ، ووسائل تدمير شاملة .

لقد عد العمال ، وعلى رأسهم جيتسكل ، هذا القرار نصرا عظيما لهم ، وفوزا مبينا على المحافظين ، وعلى رأسهم أنطونى ايدن ، وان كان قد شعر هؤلاء أخيرا بالكارثة ،التى ستتردى فيها بريطانيـــا ، والنهاية المظلمة التى ستنتهى اليها ، فرفعوا راية العصيان فى وجه رئيســـهم ،

وكادوا يضطرونه الى الاستقالة ، حفظا لبلادهم من كارثة محققة ، ودمار لا شك فيه ، لولا أنه عجل بالنزول على قرارات الأمم المتحدة ، ووافق على وقف اطلاق النار ، وبذلك أقر بالهزيمة ، واستسلم للانهيار ، واستعد للاختفاء من على مسرح السياسة ، والانزواء فى سراديب النسيان هو وشريكه البطل الفرنسى ، جى موليه !

أما جمال عبد الناصر ، الذى سعيا جهدهما لاسقاطه ، فقد ثبت ثبات الطود الشامخ ، والصرح العالى ، لم يستطيعا أن ينالا منه منالا ، أو يدركا منه مأربا ، لسبب بسيط هو أنهما كانا على باطل ، على حين كان هو على الحق ، وكانا يتذرعان فى مؤامراتهما بالكذب والنفاق والغش والتضليل ، على حين كان جمال عبد الناصر يتذرع بالصدق ، والصبر وصريح القول ، والنية الخالصة .

وأخيرا فقد كان اعتماد المتآمرين الأدنياء على الخديعة ، وسوء القصد ، والتدليس ، ولكن « جمال عبد الناصر » كان يعتمد على الله القاهر فوق عباده (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، ولله در الشاعر الذى كان كأنه يصف ايدن وموليه عندما قال :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

نهاية البداية :

قضى الأمر ، بعد أن وافق مجلس الوزراء البريطانى على وقف اطلاق النار ، وأبلغت قيادة الحملة مضمون هذا القرار فى منتصف ليمل ٧ من نوفمبر عام ١٩٥٦ ، وتوقف الغزاة المعتدون عن اطلاق النار فعلا فى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم .

ولكن انجلترة ، مع أنها استسلمت للهزيمة ، ظلت كعادتها تحاور وتداور ، لعلها تستطيع احراز نصر ، مهما كانت تفاهته ، تتعزى به وتستند اليه فى مواجهة الازدراء الشديد الذى تنظر به اليها جميع شعوب العالم ، فاقترحت أن تقوم قواتها بتطهير القناة، واعادتها للملاحة، ولم يسع مصر الا أن ترفض هذا الاقتراح رفضا باتا ، وأصرت على جلاء الجنود المعتدين أولا ، وقبل كل شىء ، وبعدئذ ينظر فى تطهير القناة ، واشترطت كذلك أن يكون تطهيرها باشراف الأمم المتحدة ، على ألا تشترك فى هذه العملية أية قوات انجليزية أو فرنسية .

وفى ٢٤ من نوفمبر ، وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بأغلبية

مطلقة على مشروع قرار تطالب فيه القوات الانجلو فرنسية ، بالانسحاب مقدما ، وقد صوتت أمريكا مرة ثانية ضد انجلترة ·

ولما اشتدت الأزمة الاقتصادية ، وأخذت بتلابيب انجلترة وفرنسا، لانقطاع بترول الشرق عنهما ، وانسداد قناة السويس في وجه سفنهما ، وارتفاع أثمان البترول الامريكي ارتفاعا باهظا ، وتوقف شركات الملاحة العالمية عن مباشرة نشاطها ، مما نجم عنه خسائر فادحة ، فلذلك ولغير هذا من الأسباب الكثيرة ، لم ير سلوين لويد بدا في ٣ من ديسمبر من اعلان الانسحاب العاجل للقوات المتحالفة من مصر ·

أما أنطوني ايدن ، فهو في رأينا يستحق الرثاء · انه كالجندي الذي اثخنت جسده الجراح ، وأضحى أسير الهزيمة والفشل · لقد أحبطت كل خططه ، وانهارت آماله جميعها ، وتحطمت مؤامراته ، وتبع ذلك انهيار أعصابه ، ولم يقو على البقاء في كرسي الوزارة ، ليتجرع كأس الهزيمة حتى الثمالة ، لذلك عول على الفرار من الميدان في ١٩ من نوفمبر عام ١٩٥٦ في أجازة لمدة ثلاثة أسابيع يقضيها في جزيرة جميكا، احدى جزر الانتيل السحيقة ، في المحيط الأطلسي ، على حدود البحر الكاريبي ليكون بمأمن من أشباح الهزيمة ، التي كانت تلاحقه في حله وفي ترحاله ·

ولقد ظل في هذا المنفى الاختياري حتى يوم ٩ من يناير ، حين اعتزل الحكم ، فخلفه هارولد ماكميلان، أحد أعضاء وزارة المؤامرة الكبرى، وبقي سلوين لويد وزيرا للخارجية ، ليواصل سياسة الاعتداء نحو مصر ·

ولم يبق أمام قوات الاعتداء بعد وصول قوات الأمم المتحدة الا أن تنجلي وأنفها راغم في التراب . وقد تم جلاؤها على دفعات وغادر آخر فوج من الجنود البريطانية بور سعيد في ٢١ من ديسمبر عام ١٩٥٦ ، كما جلا الفرنسيون عن بور فؤاد في ذلك اليوم نفسه ، جلا الانجليز والفرنسيون يتعثرون في أذيال الخيبة والفشل ، ويجلل رءوسهم ذل الهزيمة والعار · ولم يكف الفدائيون عن مهاجمتهم الى آخر لحظة من انسحابهم ، والايقاع بهم ، وتوديعهم أحقر توديع ، يستحقه جيش من القراصنة المتوحشين ، والبرابرة السفاحين ، أضافوا الى تاريخ الاستعمار الأسود في مصر ، صفحة أخرى أشد سوادا ، وتركوا جراحا لا يمكن أن تندمل ، وستظل تذكر المصريين بصفة خاصة ، والعرب بصفة

عامة ، بخسة الاستعمار ودناءته ، ولا تدعهم يطمئنون الى وعوده ونياته ، بل تلزمهم أن يقفوا منه موقف الحيطة والحذر ·

اما عصابات قطاع الطرق ، أو قطعان الذئاب المسعورة ، أو أسراب الجراد الأحمر ، المدعوة اسرائيل ، التى تخلى عنها أسيادها فى اللحظة الأخيرة ، فوجدت نفسها وحيدة فى الميدان ، مرموقة بالازدراء والاحتقار، أرادت اسرائيل هذه ، بأساليب (البلطجة) والقرصنة أن تغتصب لنفسها نصرا رخيصا ، بعد أن عز عليها ادراك النصر فى ميدان القتال ، فتقدم دالاس ، عدو مصر اللدود ، بمشروع يقضى بانسحاب اسرائيل ، مقابل ، اباحة حرية الملاحة لها فى خليج العقبة ، ووضع قوات الأمم المتحدة ، فى غزة ، بحجة حماية اسرائيل من العدوان المصرى ، فرفضت مصر هـذا المشروع رفضا باتا ·

والآن لم يبق أمام اسرائيل الا أن تنسحب وأنفها راغم فى التراب، كما انسحبت شريكتاها فى المؤامرة الدنيئة ، فانسحبت من العريش فى ١٤ من يناير عام ١٩٥٧ ، ثم من رفح وخان يونس ، وانسحبت من غزة فى ٦ من مارس عام ١٩٥٧ ومن شرم الشيخ فى ٧ منه ، وتم انسحابها بدون قيد أو شرط ·

ولكن كما سبق أن ذكرنا لم تنسحب الا بعد أن اقترفت أبشع الجرائم وأحط الافعال من قتل الابرياء ، واغتصاب المؤن والمتاع ، وسرقة العدد والآلات والأدوات من محجر الطور، واغتصاب البترول من مشروعات شرم الشيخ ، وسرقة المخطوطات النادرة من دير سنت كاترين بسيناء مما لم يسبق له مثيل فى جميع أدوار التاريخ الا على أيدى جموع التتار ·

وليس غريبا أن تسلك هذه العصابات ذلك المسلك الدنىء ، فهى مجردة من الكرامة والأخلاق ، مفتقرة الى الشرف والاباء ، نعوزها المثل العليا والصفات الانسانية وكفى أنها تعيش على السلب والنهب والاستجداء تستظل بحماية الاستعمار ، الذى خلق منها نقطة ارتكاز فى المنطقة ، لادراك مآربه الدنيئة ، وأهدافه الخسيسة ، بعد أن تقلص ظله فيها وذهب نفوذه ·

ولن تجدى اسرائيل هذه الحماية ، وسيأتى اليوم الذى يقضى فيه عليها القضاء المبرم ، وتزول من عالم الوجود ، وسيتخلى الاستعمار عنها حينئذ ،كما تخلى عنها اليوم ،اذ يكون قد استنفد جميع مآربه منها ·ولن يسمح العرب أن تتكرر أخطاء عام ١٩٤٨ ، التى مكنت لهـذه العصابات

الباغية ، ومهدت لقيامها ، وشجعتها على العربدة والبلطجة ، وممارسة أعمال النهب والسلب والقرصنة ، وأخيرا زينت لها التوسع ، من الفرات الى النيل ، هذا الحلم الثقيل الذى سيكون فيه محوها وازالتها من منطقة الشرق الأوسط ، ان شاء الله ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون •

نتائج حرب السويس من الوجهة البريطانية :

قال الكاتب البريطانى بول جونسون فى كتابه « حرب السويس » •• والثمار المرة التى تمخضت عنها حرب السويس ، انما هى أمة وصمت بالعار ، وحكومة بدا للعالم أنها تتألف من معتدين ومتآمرين ، واقتصاد يحيق به الخطر ، وانقسام الكومنولث ، وتصدع التحالف ، وفى أسبوع واحد من المغامرة الرعنـــاء ، فقدت الأمة ممتلكات قومية ، قضت عشرات السنين بل القرون ، فى جمعها ، وفى الوقت الذى تنهار فيه قوتنا الحربية والاقتصادية ، كان المركز الرئيسى لنفـوذنا فى الشـــئون الدولية ، هو ادعاؤنا بأن مركز الثقل فى العالم من الناحية الأدبية هو وستمنستر ، ولم يكن هذا ادعاء فارغا » •

ويقول فى موضع آخر « لقد نبذ الرأى العام العالمى بريطانيا ، وعدها لا تمت الى الأخلاق بصلة ، واضطررنا فى أقل من أسبوع الى التخلى عن محاولتنا ، لاخضاع مصر بالقوة المسلحة » •

وقال أيضا : « فى الأسابيع القليلة الماضـــية ، كنا نرى الوزراء البريطانيين يكذبون على مجلس العموم ، وعلى حزبهم ، وعلى الشـــعب ، ولقد ألقوا بأكاذيبهم الى الأمم المتحدة ، والى حلفائهم • وعندما انكشف الكذب حاولوا التستر ، باختلاق أكاذيب جديدة ، وأمام هجوم ضـمير الرأى العام ، أثاروا جميع الغرائز الحقيرة التى تعفنت تحت غشـــاء حضارتنا ، وحاولوا عن طريق بعض الصحف المنحطة ، أن يحركوا كوامن الأعماق ، ورواسب العنف ، وكراهية الأجناس ، وفى كل هذه الفعال ، جروا معهم كل أتباعهم ، وبهذا ألحقوا العار بحزب له تاريخه المجيد • ولن يكون من السهل على نظامنا ، أن يسترد مكانته التى فقدها بسبب هذه الضربات ، والحقيقة أنه لن يستعيدها » • (١)

من وجهة النظر العربية :

ذكرنا مرارا أن الاستعمار عندما أرغم على الجلاء عن مصر ، انمـــا

---

(١) كتاب حرب السويس تاليف بول جونسون •

فعل ذلك وهو يضمر فى قرارة نفسه ، اقتناص فرصة مواتية للعودة الى احتلالها ، ولذلك ضمن معاهدة الجلاء ، بندا يخوله ذلك بأية طريقة .

ولم تلبث الظروف أن أسعفته بفرصة ذهبية ، لعودته لاحتلال البلاد ، واستعادة سيطرته عليها . وقد كانت هذه الفرصة تأميم مصر لقناة السويس .

فالواقع أن حرب السويس كانت تخفى وراءها غرضا أساسيا هو اعادة احتلال مصر .

لقد استطاعت مصر أن تكسر احتكار السلاح ، وتنتهج لنفسها سياسة قومية عربية ، فامتنعت عن الانضمام الى الاحلاف ، التى حاول الاستعمار الغربى جرها اليها ، بقصد فرض سيطرته عليها ، وأن تبنى لها شخصية دولية فى مؤتمر باندونج ، وتنادى بسياسة الحياد الايجابى، التى وجدت استجابة من كثير من الدول الآسيوية والافريقية ، ثم تسير قدما فى تكوين جيش قوى ، مزود بأقوى الأسلحة والعتاد ، ليقف فى وجه الاستعمار وربيبته اسرائيل ، وفى الوقت نفسه تشيد البلاد على أسس قويمة من الاصلاح والتقدم .

فكيف يسمح الاستعمار لمصر أن تصبح قوة لا يستهان بها ، فى منطقة الشرق الأوسط ، تنادى بالقومية العربية ، وتعمل على القضاء على الاستعمار ، وتشجع الأحرار فى كل مكان ، وبخاصة فى الجزائر ، على النضال والقتال ، فى سبيل الظفر بالحرية والاستقلال .

هذه هى المسائل الرئيسية التى اختفت وراء حرب السويس ، وشغلت بال المتآمرين على مصر ، الحاقدين عليها ، وبخاصة بريطانيا التى بنت سياستها على اضعاف مصر ، والحد من قوتها ، وهدم صرح التقدم فيها ، كلما أخذ فى الارتفاع والعلو .

وبالرغم من ان الاستعمار أخفى وجهه الكريه فى حرب السويس، ولبس أقنعة تستر أغراضه ومراميه ، فان هذه الأقنعة ما لبثت أن سقطت الواحد تلو الآخر ، فظهر الاستعمار على حقيقته ، وما لبثت أغراضه أن تكشفت للعالم أجمع ، وعرف القاصى والدانى ما يضمره لمصر ، وللشعب العربى عامة .

وصمدت مصر هذه المرة للاستعمار ، ووقف شعبها رجلا واحدا ، ويدا واحدة ، فى وجه المعتدين الانذال ، ووقفت بورسعيد فى خط

الدفاع الأول ، وقفة أذهلت الجيوش المتحالفة ، وقدمت اليهم نموذجا لما سيكون عليه النضال فى بقية المدن المصرية ، فارتاع المجرمون ، وانخلعت قلوبهم ، وانهارت آمالهم •

لم تجد منشوراتهم التى أمطرتها طائراتهم على المدن المصرية ، تحض فيها المصريين على الثورة ، ولم تثمر الحرب النفسية التى شنتها اذاعاتهم على الشعب المصرى ، ولم تؤثر فى أعصابه الغارات الجوية التى سلطت على الشيوخ والأطفال والنساء ، والآمنين فى طول البلاد وعرضها •

وهذه دول العالم تناصر مصر، وتؤيدها ضد البغاة الآثمين ووصمتهم بالنذالة والجبن ، وأحط ما توصف به الأمم المتبربرة المتوحشة •

وأخيرا فشل العدوان ، وأحبطت المؤامرة الكبرى ، وارتد كيد المتآمرين الى نحورهم ، وعلت كلمة الحق ، وخفتت أصوات الباطل (وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا) وخرجت مصر من هذه المؤامرة ، عالية الرأس ، موفورة الكرامة ، يرمقها الرأى العام العالمى بنظرات التجلة والاعجاب •

خرجت من هذه المؤامرة ، وهى أشد ما تكون قوة ، وأعز ما تكون جانبا ، وأمضى ما تكون عزيمة • أضحت وقد أتيحت لها كل الفرص ، لكى تعاود العمل فى همة لا تعرف الملل ، ما كانت قد بدأته قبل الاعتداء الغاشم ، فى معركة البناء والتعمير ، وها هى ذى قد أنجزت فى سبع السنوات التالية لمعركة الاعتداء ، ما لم يتم فى مدى سبعين سنة ، جثم فى أثنائها الانجليز على أنفاس الشعب المصرى ، وأناخوا على أرض الوطن الحبيب بكلكلهم وثقلهم • فما خلفوا وراءهم الا الفقر والجوع والمرض •

ويقول الله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » ويقول المثل « رب ضارة نافعة » •

« ان معركة السويس ، التى كانت أحد الأدوار البارزة فى التجربة الثورية المصرية ، لم تكن لحظة اكتشف فيها الشعب المصرى نفسه ، أو اكتشفت فيها الأمة العربية امكانياتها فقط • وانما كانت هذه اللحظة عالمية الأثر ، رأت فيها كل الشعوب المغلوبة على أمرها ، أن فى نفسها طاقات كامنة لا حدود لها • وأنها تقدر على الثورة ، بل ان الثورة هى طريقها الوحيد » (١) •

---

(١) الميثاق •

والآن هل تيقظ الاستعمار ؟ وهل يتخذ من دروس الماضى عبرة له، وهل يقلع عن أساليبه العتيقة البالية ؟ هل يتجنب المؤامرات والمكائد التى ينصبها للشعوب لسرقة أقواتها وأرزاقها ، واغتصاب أموالها وثرواتها ، والقضاء على مقوماتها وكيانها ، بعد أن فطنت الشعوب الى قوتها ، ووعت حقوقها ، ولم تعد تقبل السيطرة والتسلط على مقدراتها ، كما لم تعد ترهبها القوة الغاشمة ، أو تصرفها عن حقوقها السياسة النكراء ، سياسة « فرق تسد » ؟

لا مشاحة فى أن الاستعمار يلفظ اليوم أنفاسه الأخيرة ، وستزهق روحه عما قريب ، وأن كان لا يزال يتظاهر بالقـوة ، ولكنها صـحوة الموت ، وسيصبح بعدها جثة هامدة لا حراك فيها ·

انه ما يزال يشن غاراته على الجنوب المحتل ، كما شنها من قبل على بور سعيد ، وسيخرج من الجنوب المحتل ملوما مدحورا ، كما خرج من بور سعيد ·

وسيلقى دوجلاس هيوم وسلوين لويد ، المصير الذى انتهى اليـه أنطونى ايدن وجى موليه ·

أيها المستعمرون ، خير لكم أن تستسلموا قبل أن يفوت الأوان ·

أيها المستعمرون ، أنقذوا البقية الباقية من شرفكم الضـائع · وكرامتكم المنهارة ، وارفعوا أيديكم عن الجنوب العربى ، فطردكم من هذه البلاد التى اغتصبتموها اغتصابا ، أمر لا شك فيه ·

لقد دق جمال عبد الناصر فى نعش الاسـتعمار مسامير فولاذية ، ستقضى على الاستعمار حتما ، ولقد أعدت الشعوب المظلومة للاسـتعمار قبره ، وستهيل على رأسه وعلى رءوسكم التراب ، وبعدئذ تطؤه بأقدامها وتبلل ثراه ببصقاتها ، وستترحم عليه وعليكم بأنشودة حزينة مؤثرة ، مطلعها « وعلى الباغى تدور الدوائر » ·

بعض مراجع الكتاب

المراجع العربية

سلسلة تاريخ الحركة القومية للمؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

وهى :

١ ـ تاريخ مصر القومى فى عهد الحملة الفرنسية مطبعة النهضة عام ١٩٢٩

٢ ـ جلاء الحملة الفرنسية . مطبعة النهضة عام ١٩٢٩ .

٣ ـ عصر محمد على . مطبعة النهضة عام ١٩٣٠ .

٤ ـ عصر اسماعيل (جزءان) مطبعة النهضة عام ١٩٣٢ .

٥ ـ الثورة العرابية والإحتلال الانجليزى. مطبعة النهضة عام ١٩٣٧ .

٦ ـ مصر والسودان فى أول عهد الاحتلال . مطبعة مصطفى البابى الحلبى عام ١٩٤٢ .

٧ ـ مصطفى كامل باعث الحركة القومية . مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٣٩ .

٨ ـ محمد فريد رمز الاخلاص والوطنية . مطبعة مصطفى البابى الحلبى عام ١٩٤١ .

٩ ـ ثورة سنة ١٩١٩ (جزءان) ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦ .

١٠ ـ فى أعقاب الثورة (ثلاثة أجزاء) مكتبة النهضة المصرية ٤٧ ـ ٤٩ ـ ١٩٥١ .

١١ ـ مقدمات ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٧ .

١٢ ـ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٩ .

١٣ ـ تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة للأستاذ محمد رفعت (جزءان). مطبعة الرحمانية ١٩٢٦ ـ ١٩٣٢ .

١٤ ـ الزعيم أحمد عرابى للاستاذ عبد الرحمن الرافعى مطبوعات الهلال ـ مارس ١٩٥٢ .

١٥ ـ مذكرات أحمد عرابى طبعة دار الهلال (جزءان) فبراير ١٩٥٣ ، مارس ١٩٥٣ .

١٦ ـ تاريخ المسألة المصرية تاليف تيودور روثسبين ، تعريب الاستاذين عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ، مطبعة الاعتماد ١٩٢٣ .

١٧ ـ مذكرات الشيخ محمد عبده . مطبوعات دار الهلال . ابريل ١٩٦١ .

١٨ ـ التاريخ السرى لاحتلال الانجليز مصر ، تاليف الفرد بلنت وتعريب عبد القادر حمزه . مطبعة البلاغ الاسبوعى ١٩٢٨ .

١٩ ـ عباس الثانى للورد كرومر ، مطبعة التوفيق بمصر (مترجم عن الانجليزية) .

٢٠ ـ مفاوضات الانجليز بشأن المسألة المصرية للاستاذ أمين الرافعى . مطبعة النهضة ١٩٢١ .

٢١ ـ انجلترة فى مصر بقلم مدام جوليت آدم ، تعريب على فهمى كامل . مطبعة شركة العلم ١٩٢٢ .

٢٢ ـ منتخبات المؤيد ـ السنة الأولى عام ١٨٩٠ طبع مطبعة المؤيد .

٢٣ ـ تاريخ مصر الحديث لجورجى زيدان . مطبعة الهلال عام ١٩٢٥ .

٢٤ ـ سيرة الزعيم سعد زغلول للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد مطبعة حجازى ١٩٣٦ .

٢٥ ـ آثار الزعيم سعد زغلول ـ جمع محمد ابراهيم الجزيرى . مطبعة دار الكتب ١٩٢٧ .

٢٦ ـ جريدة الاهرام أو تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة ، تاليف الدكتور ابراهيم عبده ، دار المعارف عام ١٩٥١ .

٢٧ ـ مذكرات فى السياسة المصرية ، للدكتور محمد حسين هيكل • نشر مكتبة النهضة (جزءان) ١٩٥١ و ١٩٥٣ •

٢٨ ـ كتاب القضية المصرية ، الصادر عن وزارة الخارجية المصرية • طبع المطبعة الأميرية عام ١٩٥٥ •

٢٩ ـ محاضر المحادثات السياسية والمذكرات المتبادلة بين الحكومة المصرية ، وحكومة المملكة المتحدة ، الصادر عن وزارة الخارجية المصرية عام ١٩٥١ •

٣٠ ـ وثائق مصلحة الاستعلامات المصرية •

٣١ ـ الميثاق ، للرئيس جمال عبد الناصر • ٢١ مايو ١٩٦٢ ، الدار القومية للطباعة والنشر •

٣٢ ـ فلسفة الثورة للرئيس جمال عبد الناصر •

٣٣ ـ خطب الرئيس جمال عبد الناصر من عام ١٩٥٢ الى عام ١٩٥٩ •، مجموعة اخترنا لك •

٣٤ ـ حرب السويس تأليف بول جونسون ، مترجم من الانجليزية • مجموعة اخترنا لك •

٣٥ ـ أسرار الحملة على مصر بقلم الصحفيين الفرنسيين ميرى وسرج بروميرجر (مجموعة اخترنا لك)

٣٦ ـ أضواء جديدة على معركة السويس لميخائيل بازدهار • تلخيص بعدد بناء الوطن رقم ٦٠ بتاريخ أول يونية ١٩٦٤ •

٣٧ ـ الطريق الى السويس ، تأليف ارسكين تشيلدرز ، تعريب خيرى حماد • كتب سياسية • العدد ٢٩٦

٣٨ ـ مذكرات انطونى ايدن •

٣٩ ـ « مقالات قصر الدوبارة » وهى مجموعة ماكتبته جريدة اللواء عن اللورد كرومر وسياسته وخطابه الوداعى ، ورد المؤيد عليه الناشران عبد الله حسين وصالح شكرى •

٤٠ ـ الثورة فى ١١ عاما • مصلحة الاستعلامات المصرية •

٤١ ـ مجموعة مقالات مجلة العروة الوثقى للاستاذين جمال الدين الافغانى ومحمد عبده • طبع مطبعة التوفيق ببيروت سنة ١٣٢٨ هـ

٤٢ ـ مجلة المجلات العربية ، عدد خاص بحادثة دنشواى أول فبراير عام ١٩٠٨ .

٤٣ ـ قصة الثورة كاملة بقلم أنور السادات مطبوعات الهلال يونية ١٩٥٧ .

٤٤ ـ أسرار الثورة المصرية ، بواعثها الخفية وأسبابها السيكلوجية ، تقديم الرئيس جمال عبد الناصر وتاليف أنور السادات . مطبوعات دار الهلال يوليو ١٩٥٧ .

٤٥ ـ كفاح الشعب والجلاء من مجموعة اخترنا لك العدد ٢٦ دار الجمهورية للطباعة .

بعض المصادر الافرنجية

1. England in Egypt, by Lord Milner.

2. Abbas the II, by Lord Cromer.

3. The Emancipation of Egypt, by A.Z. (translated from the Italian) Chapman and Hall, London, 1905.

وقد ترجمه الى اللغة العربية الاستاذ محمد لطفى جمعة بعنوان (تحرير مصر) عام ١٩٠٦ ·

4. Egypt Since Cromer, by lord Lloyd 2Volo.

5. modern Egypt, by Lord Cromer.

فهرس

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٩٢٢٣٠
الترقيم الدولى: 978-977-92-0261-7